

الكتبة وجهاات نضر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 137 - June 2010

مجلة شهرية العدد ١٣٧ - السنة الثانية عشرة - يونيو ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

لماذا تخسر الولايات المتحدة التيار الاسلامى؟
أكبر سجل «سرى جدا» فى التاريخ!
ألف ليلة وليلة من الأرق



حديث الحصار.. والجدار

وجاءت القراصنة عند الفجر



محتويات العدد:

- أيمن الصياد ٤
قراءة: عشية الفجر الدامي «حديث الحصار»
- رايموند ويليام بيكر ٨
لماذا تفقد الولايات المتحدة العلاقة مع التيار الإسلامى
- فؤاد قنديل ١٨
ترجمات: الاستشراق الأمريكى
قصة العلاقة المضطربة بين أمريكا والشرق الأوسط منذ عام ١٩٤٥
- جيمس بامفور ٢٠
هل اسمى هناك؟ .. أكبر سجل «سرى جدا» فى التاريخ
- لبنى الريدى ٢٤
كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!
- محمد عبد السلام العمري ٣٢
العمارة تكتب التاريخ.. استعادة المسافر خانة
- محمد مستجاب ٤١
مقدمات: كتابة على الأرض
- باتريشيا موريسر ٤٢
ألف ليلة وليلة.. من الأرق
- أحمد مستجير ٤٤
من أرشيف وجهات نظر: النوم ذلك الموت الصغير
- فاضل الربيعى ٥١
فى تاريخ «النصرانية» العربية - سياسة وحروب وعقائد
- محمد يوسف عدس ٥٤
رواية لأديب مصرى فى المهجر
العالم الذى خلفه وراءه!
- حسن أبشر الطيب ٦٠
فى الهجرة إلى الطيب صالح
- إصدارات جديدة ٦٦
- وضاح خنفر ٧٤
محاضرات: صحافة أكثر عمقاً

كتّاب العدد:

- أحمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة (راحل)
- أيمن الصياد.. صحفى
- باتريشيا موريسر.. كاتبة أمريكية، تكتب فى عدد من المجالات الأمريكية
- جيمس بامفور.. صحفى وكاتب أمريكى متخصص فى شئون الاستخبارات
- حسن أبشر الطيب.. ناقد أدبى من السودان
- رايموند ويليام بيكر.. أستاذ سابق للسياسات الدولية فى Trinity College
- فاضل الربيعى.. كاتب وروائى عراقى متخصص فى دراسة التاريخ القديم والأساطير
- فؤاد قنديل.. كاتب مصرى
- لبنى الريدى.. مترجمة
- محمد عبد السلام العمري.. معمارى وكاتب
- محمد مستجير.. قاص مصرى راحل
- محمد يوسف عدس.. كاتب مصرى

رسوم العدد

محمد حجي - Carlos Latuff - Dave Granlund



يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعائم ورقية
أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء
منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

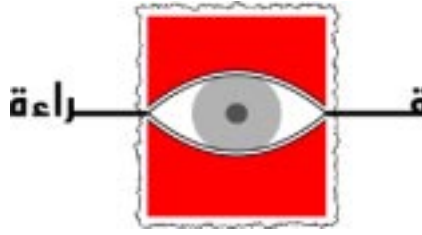
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد
بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠
دولاراً أمريكياً - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبيه المصرى - ص. ب : ٢٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥
درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠
ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب
٣٠ درهماً - تونس ٤ دنائير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA \$ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبير المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»



عشيّة الفجر الدامي .. «حديث الحصار»

الحصار على قطاع غزة لن يؤدي إلى إضعاف حماس أو سقوطها، بل إلى إضعاف أهل غزة واقتصادها» والرأى هنا لتبيل شعث، لا غيره.

٥- لم تعد المراهنة على إسقاط «خيار المقاومة» ممكنة، رغم كل ثمن باهظ. سواء تحت «الرصااص المصوب» على غزة المحاصرة ديسمبر ٢٠٠٨ / يناير ٢٠٠٩، أو على سطح «مرمرة الزرقاء» مايو ٢٠١٠.

٦- أنه في عالم «ما بعد الإنترنت» هناك «قوى دولية» جديدة، ما زلنا نغفل دورها، متمثلة في تلك «اللا حكومية» (Non-Governmental)، والتي من ظواهرها هؤلاء «الناشطون» القادمون من ٤٣ دولة، والقادرون على تنظيم أنفسهم عبر آليات التواصل «والتنادي» التقنية الجديدة. في هذا العالم الجديد، الذي أسقط ما كان «للحدود» من قيمة سياسية وعسكرية، لم يعد بوسع أي دارس للعلاقات الدولية أن يتجاهل ما جرى من عطب لمفاهيم كانت قد استقرت ردها من الزمان، ليس أولها مفهوم «السيادة» كما ليس آخرها مفهوم «الهوية» أو «المواطنة».



جاء حزيان إذن وغزة في قلب الحدث. والحاصل أن واشنطن - كعادتها - أعاققت إصدار قرار «عادل» من مجلس الأمن يدين عدوانا في المياه الدولية على دولة «إسلامية» كبرى، لم توصف يوماً بـ«المروق» أو «التطرف»، بل على العكس، فهي الدولة الإسلامية الوحيدة العضو في «الأطلمنطى»، كما أنها اعتبرت دوماً من جانب الغرب «النموذج» الذي يجب أن تحتذيه الدول الإسلامية الباحثة عن الحداثة. وكانت المفارقة أن جرى ذلك - بالمصادفة - وسط فيض من التعليقات والتحليلات يحاول رصد ما جرى على صعيد العلاقة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي بمناسبة عام من خطاب أوباما الشهير في جامعة القاهرة (مايو ٢٠٠٩).

«One Year After» كان عنواناً لمعظم المقالات والبرامج التلفزيونية التي خصصت للموضوع. وللمصادفة أيضاً فالعنوان ذاته «One Year After»

أرضاً هنا ونقاطاً هناك، فتركيا «الجديدة» لها ملامح لا تخفى عن العيان، وكثير من الرموز كانوا «بأنفسهم» على سطح الأسطول. فكما كان في المشهد استقبالي موريثاني حافل لنائب رئيس حزب «تواصل» الإسلامي محمد غلام ولد الحاج الشيخ، كان فيه قرار غير مسبوق للبرلمان الكويتي (الذي كان نائبه الطبيطبائي ضمن الذاهبين إلى غزة) بالدعوة إلى سحب مبادرة السلام العربية. كما كان فيه أن رموز الإخوان المسلمين، والذين «وحدهم» شاركوا من مصر، وجدوا طريقهم للمرة الأولى إلى شاشات التلفزيون المصري. كما كان فيه طبعاً «صورة» الشيخ رائد صلاح، بما يعنيه عند فلسطيني الداخل.

٤- لم نعد نسمع أحداً - غير الإسرائيليين ربما - يدافع عن الحصار، فكما أن المصريين لم يكن أمامهم غير فتح معبر رفح (ولو جزئياً، أو إلى حين)، صار هناك حديث عن عودة الأوربيين إلى المعبر، بعد أن أدرك الجميع، أو بالأحرى اعترف «أن بقاء

١- عرى الأتراك «الجدد» الجميع؛ إسرائيل المغترة بقوتها، والعرب المترددين والمتربكين في حساباتهم العنكبوتية، والنظام الدولي الموروث من القرن الماضي، والذي عجزت «حكوماته» متمثلة بمجلس أمنه الدولي عن الخروج من إصار الضيق، ليندد «بوضوح» بعدوان في عرض البحر على قافلة إنسانية تحمل مواطناً ثلاث وأربعين دولة؛ أي ما يقارب ربع أعضاء المنظمة الدولية بالتمام والكمال. (تركيا التي فقدت تسعة من مواطنيها عضو في حلف الأطلمنطى).

٢- كشف إعجاب الشارع العربي بـ«الطيب» أردوجان، والذي خاطب الإسرائيليين بلغة لم يسمعها العرب من قادتهم منذ أكثر من ربع قرن من الزمان: «لقد سئمتنا أكاذيبكم..» عن حقيقتين: الأولى أن العرب ما زالوا يبحثون عن الزعيم، وإن لم يكن عربياً (١). والثانية أنهم ما زالوا - رغم كل شيء - يعتبرون أن إسرائيل هي «العدو».

٣- كسب تيار الإسلام السياسي

■ دون أن نبالغ في تقييم ما حدث.. ودون أن تسكرنا صيحات التنديد شرقاً وغرباً بـ«الجريمة» فنطمئن إلى ما نعرفه من أننا على حق.. فنذهب «لنقعد مع القاعدين»، تبقى حقيقة أن الدماء التي سالت على سطح «مرمرة الزرقاء» في فجر اليوم الأخير من مايو ستكتب سطرًا مهمًا في تاريخ هذه المنطقة الذي لم يستقر أبداً منذ وضعت الحرب الأولى أوزارها في ذلك اليوم البعيد من العام الثامن عشر من القرن الماضي. ولم تكن أبداً «الأصدا» الحمراء» لدماء الضحايا، والتي تجسدت أعلاماً تركية «حمراء» غطت شوارع عواصم عالمية عديدة، من طوكيو وكوالالمبور شرقاً، إلى نيويورك وأتوا غرباً، إلا واحدة من مشاهد عدة، لها بالضرورة معنى ودلالة.



هل كان ما جرى مفاجئاً؟ لا.. بدليل أن كلا من نتنياهو وأردوجان كانا في الطرف الآخر من الكرة الأرضية.

ونعم.. بدليل أن كلا منهما استقل أول طائرة عائداً إلى حيث الحدث. المفاجأة إذن كانت في التفاصيل.. لم تكن القيادة السياسية في إسرائيل، على رعونتها، تتصور أن جنود بحريتها سيقودونها إلى هذا المأزق. كما لم يكن أحد في العالم المتحضر - الذي تتباهى إسرائيل بأنها الوحيدة في المنطقة التي تنتسب إليه - يتصور أن المسألة يمكن أن تصل إلى حد إراقة الدماء، رغم أن صورة «راتشيل كوري» الناشطة اليهودية الأمريكية التي قضت ذات يوم تحت جرافة إسرائيلية ما زالت ماثلة في الأذهان.

أيا ما كان الأمر، فقد كان ما جرى مهما كانت تفاصيله، كاشفاً عن خريطة «إقليمية» جديدة تتشكل.. وكذلك عن واقع «دولي» جديد، تتراءى بعض ملامحه ربما في سفن «الناشطين» البادية في الأفق.

انبج الفجر الدامي إذن عن مشهد - بدا للبعض جديداً - وهو ليس كذلك، وعلى أي، فهذه بعض ملامحه.. فضلاً عن أسئلته:



غزة إلى حالته في يوم ٢٦ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٨، اليوم السابق على اليوم الذي بدأت فيه القاذفات الإسرائيلية قصفها الذي دام ٢٣ يوماً.

حكومية.. ولا حكومية

في الثاني من مارس/ آذار ٢٠٠٩، وفي أجواء الصدمة الإنسانية التي أحدثتها صور العدوان الإسرائيلي على غزة، اجتمع حشد كبير من قادة العالم في شرم الشيخ، وتحت لافتة «مؤتمر شرم الشيخ للماضين»، التقطت مئات الصور التي بدت وكأنها هدف في ذاته، ثم كان «إبراء للذمة» أن اعتمد المجتمعون خطة السلطة الوطنية الفلسطينية للإنعاش المبكر وإعادة الإعمار في غزة (PNERRP) متعهدين بتقديم أكثر من ١.٣ مليار دولار أمريكي مساندة للخطة.

يذكرنا التقرير «الدولي» بما جرى

والصرف. كما خلفت العمليات العسكرية أيضاً أضراراً كبيرة على المدارس والجامعات والمستشفيات ومراكز الرعاية الصحية والشركات والمصانع والأراضي الزراعية ومرافق الإدارة العامة. حيث شملت أهداف الغارات المباني والدواوين الرئاسية والبرلمانية والوزارية والقانونية، وتلك التابعة للمجتمع المدني والإدارة المحلية، ملحقة دماراً بالقدرات المؤسسية التي كانت تعاني في الأصل من الضعف.

ويؤكد التقرير على أن الحصار المستمر والمتواصل يعيق أية جهود حتى لو كانت دولية، للتعافي من آثاره، فعلى الرغم من مرور أكثر من عام على إيقاف إسرائيل لعملياتها العسكرية ضد القطاع، فإنه ما زال ٥٧.٣ في المائة من الدمار الذي طال المباني والبنية الأساسية قائماً بلا إصلاح ولا إعادة بناء. ولا تزال هناك حاجة إلى ما يقرب من ٥٢٧ مليون دولار أمريكي لإعادة قطاع

بلغة الأرقام، واعتماداً على تقرير سابق لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية. عن الأثر الإنساني «لعاميين من الحصار» على قطاع غزة. والصادر في أغسطس/ آب ٢٠٠٩، إلى جانب مصادر مستقلة أخرى، يُذكر التقرير «الدولي» بما أدت إليه عملية «الرصاص المصبوب»، وهو الاسم الذي أطلقه الجيش الإسرائيلي على حملته الدموية ضد قطاع غزة: مقتل ١٤١٧ فلسطينياً (١٣٨٣ في تقديرات أخرى) ، ٣١٣ منهم من الأطفال و١١٦ من النساء، إضافة إلى ٩٨٨ رجلاً. كما أصيب أكثر من ٥٣٨٠، من بينهم ١٨٧٢ طفلاً و٨٠٠ امرأة، وكذلك ٢٥٢٠ رجلاً. وعانى ٤٠-٧٠ في المائة من المصابين من إصابات شديدة، بينما أصيب ١١ في المائة منهم بالعجز الدائم. ودمر أو أصيب بأضرار بالغة ما لا يقل عن ٦٢٦٨ منزلاً. وتكبد السكان المدنيون المزيد من المعاناة من جراء الأضرار التي لحقت بأنظمة الكهرباء والمياه

كان عنواناً لتقرير دولي مهم يتناول حال غزة «السجن الكبير» كما أسماه الرئيس الأمريكي كارتير لا غيره، بعد عام من عملية «الرصاص المصبوب».

التقرير الذي أعده برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) وصدرت نسخته الإنجليزية قبل أيام، تصل عدد صفحاته إلى ١١٢ صفحة، ويضم ٤٤ جدولاً بيانياً، توضح «بالأرقام» حالة «السجن الكبير».

يُكذب التقرير «الدولي» ابتداءً ما يروجه الإسرائيليون بأن «لا مشكلة هناك»، وينسب إلى جون هولمز، منسق جهود الإغاثة الطارئة للأمم المتحدة، وصفه للحصار بأنه «عقاب جماعي» للسكان المدنيين في قطاع غزة. مؤكداً أن الحصار يؤدي حتماً إلى «نقص في الغذاء والدواء، والتضييق على حقوق سكان القطاع في التعليم والصحة والمأوى والثقافة والتنمية الشخصية والعمل».

يشير التقرير «الدولى» الى أنه وبسبب الحصار، ظلت «الأنفاق» دوماً حلاً عبقرياً «ووحيداً» للإبقاء على الحياة فى هذا السجن الكبير



بيروت - لبنان

©REUTERS/Khalil Hassan



بودابست - المجر

©AFP PHOTO / BALINT PORNECZI



بورديو - فرنسا

© AFP PHOTO PIERRE ANDRIEU



بالكامل جراء القيود الإسرائيلية المستمرة على المجال البحرى. وبإلقاء نظرة فاحصة، يتبين أن البنية الأساسية التى لا تزال فى معظمها دون إصلاح هى تلك التى تعد ضرورية للاحتياجات الأساسية لسكان غزة. فقد تأخر إصلاح كل من مستشفى الوفاء والقدس اللذين تعرضا لأضرار بالغة، بسبب نقص المواد، ولم يبدأ العمل فى مستشفى القدس إلا فى فبراير/ شباط ٢٠١٠. ولا تزال هناك حاجة إلى ٤٦٠ ٥٤١ ٢١ دولاراً أمريكياً قيمة عمليات الإصلاح لإعادة تأهيل الجامعات، ومدرستين خاصتين دمرتاً بالكامل، بما فى ذلك المدرسة الأمريكية فى غزة. كما لم يتم إصلاح معظم البنية الأساسية الزراعية المدمرة، بما فيها مزارع الدواجن والماشية والصوب الزجاجية ومنشآت التخزين والبنية الأساسية للرى، والتى تبلغ قيمتها ٤٠ مليون دولار أمريكى، وثمة حاجة أيضاً إلى إعادة زراعة أشجار بساتين بقيمة ٣٠ مليون دولار أمريكى.

الأنفاق.. شريان الحياة

وبعيداً عن «نفاق» الرسميين الذين اجتمعوا يوماً فى شرم الشيخ قبل أن ينفذ كل منهم إلى حال سبيله، تبقى «الأنفاق» حلاً عبقرياً «ووحيداً» للإبقاء على الحياة فى هذا السجن الكبير. إذ تحت عنوان واضح الدلالة: «اقتصاد الأنفاق.. شريان حياة غزة»، يقول التقرير الدولى: «للتحايل على الحصار، والحصول على السلع من أجل حياة كريمة، بدأ سكان غزة الاعتماد على الأنفاق القديمة والجديدة التى تمر عبر رفح إلى مصر». موضحاً أن اقتصاد غزة المعتمد على الأنفاق ظل قائماً لمدة ١٥ عاماً، مدفوعاً بالضرورات التجارية والنقص فى السلع فى غزة. وقبل فك الارتباط فى عام ٢٠٠٥، دأب الجيش الإسرائيلى على شن حرب مستمرة لمنع حفر الأنفاق. حيث عمد الجيش إلى إغراق المنطقة الحدودية، واصطناع هزات أرضية مصغرة بواسطة المتفجرات، والتفتيش من منزل إلى منزل. وفى كل مرة يردم فيها نفقاً، يقوم

فى المدينة المصرية الساحلية، ويؤكد نصاً أنه «بعد مرور أكثر من عام بعد مؤتمر شرم الشيخ، لم يتحقق سوى عدد قليل من هذه التعهدات...»، إذ ما زال الحصار الإسرائيلى يمثل أحد العوامل الرئيسية التى تعيق عملية إعادة إعمار غزة.

وعلى مدى الأشهر الماضية، يقول التقرير: تجددت دعوات كل من الجهات المانحة واللجنة الرباعية وهيئات الأمم المتحدة والعلماء والمنظمات الدولية غير الحكومية، لإسرائيل برفع الحصار عن غزة أو تخفيفه على الأقل. وعلى الرغم من تلك الجهود، لم يسجل سوى تقدم ضئيل يظل شكلياً إذ لا يسمح عملياً بتلبية طبيعة احتياجات القطاع وحجمها.

وفيما يمكن أن نعهده نحن رسالة إلى كل من يعترض على الجهود «اللاحكومية» لكسر الحصار، وأخرهم وزير الخارجية البريطانى، ورغم كل المؤتمرات «التجميلية» التى تعقد تحت لافتة «إعادة الإعمار»، يجدر بنا الإشارة إلى ما يخلص إليه التقرير «الدولى» صراحة من أنه «مع استمرار الحصار، لا يمكن عملياً إعادة الإعمار». إذ على الدوام - يقول التقرير - كان الحصار عقبة رئيسية فى طريق إصلاح الأضرار التى تسببت فيها الاعتداءات الجوية الإسرائيلية والدمار الذى خلفته. فلم يتم إعادة بناء أى من المنازل المدمرة البالغ عددها ٣٤٢٥ منزلاً، مما أدى إلى تشريد ما يقرب من ٢٠ ألف شخص. وتم إصلاح ١٧,٥ فى المائة من قيمة الأضرار التى لحقت بالمرافق التعليمية، مما أدى إلى فرض مزيد من الضغوط على الجهاز التعليمى المثقل كاهله بالفعل فى غزة، حيث كان التدريس فى المدارس على فترتين يومياً لعقود.

كما أعيقت كذلك عمليات إصلاح البنية الأساسية. فلم يتم إصلاح سوى نصف شبكة الكهرباء، وهو ما يعد أحد أسباب ازدياد حالات انقطاع الكهرباء؛ ولم تنجز أى تحسينات فى البنية الأساسية للنقل. وفى القطاع الاقتصادى، أعيد تأهيل ربع الأراضى الزراعية المدمرة وتم إصلاح ٤٠ فى المائة فقط من شركات القطاع الخاص. أما صناعة الصيد فتكاد تكون مدمرة

©AFP PHOTO / ROMEO GACAD

جاكارتا - اندونيسيا



العمال بحفر واحد آخر للالتفاف على الحصار، وإعادة الاتصال بالمر الرئيسي. وبعد أن كانت أعمال حفر الأنفاق سرية، صارت علنية، بعد عام ٢٠٠٧، حيث أنشئت المئات من الأنفاق تحت أبراج المراقبة الحدودية.. وأن تلك الأنفاق تراوحت من أنفاق بدائية إلى أنفاق متطورة، استخدمت في تهريب كل شيء.. خاصة السلع الأساسية التي تحظرها إسرائيل. ويمكن رؤية شواهد اقتصاد الأنفاق في قطاع غزة في الكوكا كولا والسجائر المصرية والدراجات النارية الصينية والوقود ومواد البناء والأدوية.

العمال بحفر واحد آخر للالتفاف على الحصار، وإعادة الاتصال بالمر الرئيسي. وبعد أن كانت أعمال حفر الأنفاق سرية، صارت علنية، بعد عام ٢٠٠٧، حيث أنشئت المئات من الأنفاق تحت أبراج المراقبة الحدودية.. وأن تلك الأنفاق تراوحت من أنفاق بدائية إلى أنفاق متطورة، استخدمت في تهريب كل شيء.. خاصة السلع الأساسية التي تحظرها إسرائيل. ويمكن رؤية شواهد اقتصاد الأنفاق في قطاع غزة في الكوكا كولا والسجائر المصرية والدراجات النارية الصينية والوقود ومواد البناء والأدوية.

يبين التقرير أن أي انتعاش في قطاع غزة يجب أن ينسب أولاً وقبل كل شيء إلى ما يسميه «صمود وإبداع أهل غزة». وعلى الرغم من أن التقرير لا يمكنه أن يقدم دراسة متعمقة لمختلف الإستراتيجيات المتبعة في حل المشاكل، ويكتفى في الغالب بتسجيل أعمال الإنعاش الممولة من قبل الجهات المانحة، فإن حقيقة حدوث الانتعاش على الرغم من الحصار الحالي خير شاهد على وجودها. فعلى مدى السنوات الماضية - يقول التقرير - استطاع أهل غزة تحقيق أقصى استفادة من الموارد المتاحة محلياً. فطوروا حلولاً محلية لحل مشكلة عدم توافر المبيدات الحشرية. وأصلحوا الطرق الزراعية باستخدام أنقاض المنازل المدمرة. وكان الدافع وراء إعادة تشغيل قطاع البناء والتشييد هو إعادة تدوير الأنقاض المسحوقة المختلطة بالأسمنت المجلوب عبر الأنفاق. وأنجزت شركات الكهرباء والاتصالات معظم الإصلاحات باستخدام قطع الغيار المتاحة، وباستخدام حلول مبتكرة وغير تقليدية. كما تم تطوير تكنولوجيات إنشاء بديلة بمساعدة من الأونروا وموئل الأمم المتحدة، من أجل بناء المنازل على الرغم من الحظر الإسرائيلي على مواد الإنشاء.

يبين التقرير أن أي انتعاش في قطاع غزة يجب أن ينسب أولاً وقبل كل شيء إلى ما يسميه «صمود وإبداع أهل غزة». وعلى الرغم من أن التقرير لا يمكنه أن يقدم دراسة متعمقة لمختلف الإستراتيجيات المتبعة في حل المشاكل، ويكتفى في الغالب بتسجيل أعمال الإنعاش الممولة من قبل الجهات المانحة، فإن حقيقة حدوث الانتعاش على الرغم من الحصار الحالي خير شاهد على وجودها. فعلى مدى السنوات الماضية - يقول التقرير - استطاع أهل غزة تحقيق أقصى استفادة من الموارد المتاحة محلياً. فطوروا حلولاً محلية لحل مشكلة عدم توافر المبيدات الحشرية. وأصلحوا الطرق الزراعية باستخدام أنقاض المنازل المدمرة. وكان الدافع وراء إعادة تشغيل قطاع البناء والتشييد هو إعادة تدوير الأنقاض المسحوقة المختلطة بالأسمنت المجلوب عبر الأنفاق. وأنجزت شركات الكهرباء والاتصالات معظم الإصلاحات باستخدام قطع الغيار المتاحة، وباستخدام حلول مبتكرة وغير تقليدية. كما تم تطوير تكنولوجيات إنشاء بديلة بمساعدة من الأونروا وموئل الأمم المتحدة، من أجل بناء المنازل على الرغم من الحظر الإسرائيلي على مواد الإنشاء.

© REUTERS/
Kevin Lamarque

واشنطن - الولايات المتحدة: ادوارد بيك السفير الأمريكي السابق في موريتانيا يخطب في مظاهرة احتجاجية أمام البيت الأبيض



وبعد.. لا أحد يعرف إلى أين سينتهي حال الغضب على ما جرى فوق المتوسط، فالعرب أنفسهم قصير.. «يتحدثون.. ولا يفعلون» كما قال موشيه ديان «مطمئناً صحبه» وهو يدخل الأقصى في ذلك اليوم البعيد من يونيو ١٩٦٧.

وبعد.. لا أحد يعرف إلى أين سينتهي حال الغضب على ما جرى فوق المتوسط، فالعرب أنفسهم قصير.. «يتحدثون.. ولا يفعلون» كما قال موشيه ديان «مطمئناً صحبه» وهو يدخل الأقصى في ذلك اليوم البعيد من يونيو ١٩٦٧.

فالحاصل أن العرب لم يستفيدوا أبداً من «تقرير جولدستون»، كما لم يستفيدوا قبله من قرار «العدل الدولية» الخاص بالجدار. ولعلمهم لن يستفيدوا أيضاً من هذا التقرير الواصف لحال غزة بعد عام، رغم أنه يحمل - كغيره - خاتم منظمة «دولية».

ورغم أن التقرير الدولي الذي نعرضه هنا يكتفى بحكم عنوانه برصد البيانات الخاصة بوصف الحالة

©AFP PHOTO / JOHANNES EISELE

الروائي السويدي الشهير هنين مانكيل الذي كان على ظهر السفينة يحكى تجربته



رايموند ويليام بيكر Raymond William Baker

■ ■ هذا المقال يزعم أن الولايات المتحدة على وجه الخصوص والغرب بصفة عامة فشلا في فهم التيار الإسلامي كشريك محتمل في معارك الحرية والديمقراطية على مستوى العالم كله. هي حقيقة محجوبة بفعل شعارات إسلامية رئيسية تشن تلك المعارك التحررية باسمها. فالولايات المتحدة تنفر القوى الإسلامية الرئيسية بفعل سياساتها وتحولهم من شركاء محتملين إلى أعداء مرجحين. وفي حين يبدو من غير المرجح على المدى القصير أى تغيير على السياسات الأميركية الرسمية، يبدو المجال مفتوحا أمام مؤسسات المجتمع المدني الغربية ذات التوجهات الديمقراطية والمعادية للإمبريالية لخلق توازن ما مع النداءات المدمرة للسياسات الأميركية ولخلق مجالات للتعاون مع التيار الإسلامي.

وبعد أدنى لابد من إعادة النظر في

الكلاسيكية التى اعتاد جيله من الدارسين على التركيز عليها، بالرغم من كونه عالما فى السياسة تربطه علاقات قوية بإسرائيل. وتعلقت من جانبى ضمن دراستى لتلك الكلاسيكيات بما اعتبرته أفضل الدراسات الاجتماعية حول التحديث. وبدأت خلال دراستى فى فصول صافران الدراسية قراءتى للأدب المتعلق بالشرق الأوسط والذى كان يلقي ازدهارا ونموا.

كان صامويل هنتنجتون المفكر المحافظ واسع الصيت مرشدا لى فى هذا الصدد، وصار مشرفا ومستشارا أكاديميا على دراستى. كنت قد وطنت نفسى على أن أشهد التحول الفكرى والأخلاقي والاقتصادى والسياسى لمجتمعات متأخرة إلى صورة الدولة الحديثة. واخترت مصر باعتبارها «المجتمع الرائد» فى العالم العربى نموذجا لدراسة حالة حول «التنمية السياسية». وكانت القاهرة بذلك

كانت الحقائق على الأرض لا تحمل أى وجه شبه مع المسارات التاريخية والمفاهيم الذهنية التى كنت مسلحا بها. لم أكن كذلك مستعدا على الصعيدين العاطفى والفكرى لمواجهة الجاذبية القوية للثقافة العربية الإسلامية التى اجتاحتنى.

ولاحظت عبر خلفيتى عن تاريخ الفن، تلك الركاكة الفكرية التى تناولت بها التيارات الرئيسية والعلوم الاجتماعية النقدية على السواء القضايا الثقافية.

اكتشفت أن كلا التيارين - المهيمن واليسارى - لا يختلفان فى افتراضاتهما عن العالم، سواء إن كان ينبغى القبول به أو تغييره: هو العالم وفقا لما يعرفه الغرب فقط.

لم تثبت دراستى فى هارفارد أى فائدة لى حينئذ باستثناء دراستى التكميلية للغة العربية وآدابها والفلسفة وهى

كان ابن بطوطة يهمس فى أذنى من آن إلى آخر بشكوكه فى استطاعة أى ثقافة أخرى أن تتيح نفسها بتلك الشفافية، بينما كنت لسوء الحظ قد جئت القاهرة فى الأساس لدراسة الأدب الحديث.

واكتشفت عدم قدرة تلك الصيغ التبسيطية التى حملتني بها العلوم الاجتماعية الغربية على التعامل مع هذا المجتمع المدهش الغنى المركب الذى غرقت فيه فى مصر.

ساعدتني نظرتي اليسارية النقدية نوعا ما على فتح مجال لتفكير أقرب للأرضية المصرية. كتبت أطروحتي وأول كتيبى حول الثورة المصرية المترددة فى العالم العربى بمساعدة مفكرين ماركسيين مصريين أعانوني على تناول أفكار صافران وهنتنجتون على أرضية يسارية وبعيون مصرية (بيكر ١٩٧٦).

وبالرغم من تلك الإيجابيات، أجد

ماذا تفقد الولايات المتحدة

الدراسة الأكاديمية للشرق الأوسط لخلق مجال من الدراسة الإنسانية ربما توفر دعما فكريا ونظريا يساند تلك الجهود.

وكنيت عن نفسى قد بدأت دراستى - الجديدة - للعالم الإسلامى بعد تخرجى من جامعة هارفارد أواسط الستينيات. واستعددت لاحقا عام ١٩٦٨ بعد إتمام الدراسة المطلوبة للدكتوراة، للتلاقى وجهها لوجه مع العالم الذى درسته فى واحدة من أعظم مراكز الدراسة الغربية. وكان استعدادى ممتازا، أو هكذا على الأقل ظننت وقتئذ. وكنيت خلال دراستى قد ألفت دراسة منهج هارفارد الرائع فى التراث الإسلامى الذى تضرع به هارفارد على يد الراحل ناداف صافران أحد رواد دراسات الشرق الأوسط.

وشجعنى صافران على المضى قدما فى اهتمامى باللغة العربية وآدابها وأشرف على قراءتى المستقلة للنصوص

ينشر هذا المقال بالاشتراك مع:
Arab Studies Quarterly

حقوق النشر محفوظة ل:
Association of Arab-American
University Graduates

ترجمة: بيسان كساب

زاوية مواتية تمكننى من رؤية عن قرب لحركة التاريخ.

ومع ذلك فلم أكن متقبلا وجهات النظر تلك دون نقد. بل على العكس، فطبيعة وضعى كصبي من الطبقة العاملة نشأ فى جيرسى سيتى فى نيو جيرسى، استقدمت معى إلى هارفارد التزامات يسارية قوية جدا على الصعيدين الأخلاقي والفكرى. وفرضت على تلك الالتزامات بدورها موقفا نقديا من التقاليد الاستشراقية القديمة من ناحية ومن الأدب الحديث من ناحية أخرى.

فقد نظرت من البداية لكلا المنهجين كتيار ولوقضى منه كموقف نقدى. ولبناء موقضى المستقل، اقتربت من نقاد النظام العالمى من التيارات المهيمنة بالإضافة للماركسيين من مختلف التيارات الذين هيمنوا على الحركات اليسارية الجديدة التى كنت ناشطا فيها، والتى تمحورت فى الأساس على مناهضة الحرب الأمريكية على فيتنام.

وبالرغم من تحصنى بالنظرة اليسارية النقدية تلك، إلا أن مواجعتي مع القاهرة كانت صدمة قوية للغاية. كان ذاك العالم الذى درسته بالتفصيل فى كامبريدج -سواء على يد التيارات السائدة أو نقادها- ببساطة غير موجود على الإطلاق.

الدراسات التى بدا أنها قد دبت فيها حياة موازية لحياتها فى هارفارد. وأثبتت تلك المواد الدراسية أنه لاغنى عنها على المدى الطويل. وبدأت لى تلك الدراسات الثقافية وقتها كمكافأة على كدى فى دراسة أدبيات العلوم الاجتماعية، غافلا وقتئذ عن أنى قد خلطت الأمرين.

وتذوقت وقتها لغة القرآن البديعة القوية بالرغم من صعوبتها. كما أسرنتى تلك المقاطع الرائعة التى كنا نتلوها من أدب الرحلات العربى والأدب الفلسفى فى عصره الذهبى.



وعبر تلك القصصات فى منهج اللغة العربية الدراسى لاحظت الثراء والتعقيد والتنوع فى الثقافة الإسلامية والعربية (وفى تلك الأيام كان فصل المستوى الدراسى المتقدم للغة العربية يضم طالبيين فقط). كان العنصر الإنسانى هو أكثر ما مسنى.

كان انفتاح ودهشة ابن بطوطة، الرحالة والحكاة العربى الشهير فى القرن الرابع عشر، على النقيض من الانغلاق البادى فى أداء المتخصصين الغربيين الذين هيمنوا على دراساتى السابقة فى هارفارد.

نفسى لدهشتى كغيرى من نظرائى الغربيين قد فشلت فى تدوين ملاحظات جادة حول «الصحة الإسلامية» فى ظل ما حققته من تقدم هائل وقتذاك.

كانت الحركات الإسلامية فى كل مكان فى المنطقة بازغة على طريق إعادة تشكيل الشرق الأوسط على نحو خالف بالكامل التوقعات الغربية، إن لم نقل توقعات اليسار المصرى.

كانوا هناك يخوضون معاركهم أمام عيني إلا أنى أغفلت عنهم. فقد ركزت فى دراستى عن مصر على القوى العلمانية، القومية واليسارية، التى كانت تقود مسار ثورة ناصر.

فقد ضاشرت بين رؤى اليساريين المصريين ونقدتهم المميز للتجربة الناصرية والحقائق التى تعلمتها فى هارفارد.

لكن الأهم هنا أنى أهملت للأسف فى كتابى هذا الحركات الإسلامية وخاصة الإخوان المسلمين.

ومع ذلك، أتذكر - بشئ من الفكاهة - أنى لم أستطع التحكم فى العداء الذى تحكم فى حركة عمل أساتذتى فى هارفارد من ناحية وأصدقائى الجدد من اليساريين المصريين لكل ما هو إسلامى. احتجت بعض الوقت والكثير من المجهود لإعادة النظر قبل أن أتمكن من هز تلك التحيزات الأيديولوجية والنظر

فشلت الولايات المتحدة فى فهم التيار الإسلامى كشريك محتمل فى معارك الحرية والديمقراطية



يقتضيه الأمر لحماية الوطن من ١١ سبتمبر جديد.

لم تعد أمريكا اليوم تهدف لتطوير المجتمعات المتخلفة بل لتدمير المناطق التى ترى أنها تشكل معاقل لعدوتهم، لحماية «الوطن».

وتتراجع اليوم المراكز التقليدية المتخصصة فى (دراسات- المترجم) التنمية والتحديث لصالح جيل جديد من المراكز المتخصصة دراسات الإرهاب فى بعض من أرقى الجامعات الغربية. ويعتقد طلابى فى السنة النهائية أن تجربتنا العلمانية فى الغرب التى استقينها منها نماذج للتنمية تصلح لتقديم خريطة مستقبل العالم العربى والإسلامى.

فحين نضع نصب أعيننا مستقبلا مستورا حتميا للمجتمعات العربية، نفقد أهمية الموجة الإسلامية التى أصبحت

وأثارها العنصرية فى الستينيات، فالأوضاع اليوم أسوأ. فالطلب اليوم كبير على متخصصين فى شئون الإرهاب، يتحدثون العربية بطلاقة لخدمة مصالح الأمن الوطنى. حتى إن الأمر يصل بى فى بعض الأحيان للتساؤل حول ما إن كانت توصياتى للطلبة بالالتحاق ببرامج لدراسة اللغة تنتهى ببساطة إلى زيادة عدد متحدثى العربية اللازمين للتنصت والاستجواب (فى الأجهزة الأمنية - المترجم).



ويعد المتخصصون فى شئون الإرهاب أنفسهم، بتركيزهم هذا على العالم العربى، لمواجهة جيش ضخم بلا اسم من الإسلاميين المتشددى الذين ينبغى وفقا لما لقنوا مواجهتهم بأبعد مدى قد

أما اليوم ف«الفاشية الإسلامية» هى العدو واصطبغ بالتالى النموذج باللون الأخضر بدلا من الأحمر، بالرغم من أن كلا النموذجين تجريديان، تعميمان، ويخدمان مصالح ذاتية ولا علاقة لهما بأى حقائق على الأرض.

كانت الدراسة فى الستينيات تحركها النظرة للولايات المتحدة كقوة عظمى بازغة تواجهها مسؤوليات عالمية ومنافسة محتدمة مع الاتحاد السوفيتى.

كنا نحتاج إدراك الناس للعالم خارج حدودنا للمساعدة فى تغييره إلى النمط الحديث الذى كنا رواده، خشية من سيادة النموذج الشيوعى.

هذا الخطاب حول المسؤولية العالمية كان كاشفا لصعود إرادة إمبريالية، كما أن الحديث حول الدول المتخلفة استدعى ببساطة افتراض ضرورة تقديم تنازلات من قبل الشعوب المتخلفة. وأيا كان رأى حول تلك الذرائع

بعقلانية للصحو الإسلامية مع الوضع فى الاعتبار أسباب مركزية مصر فيها.

إلا أن ما يقلقنى اليوم ليس خيبة أمل فى الكثير من الدراسات الغربية عن العالم الإسلامى الذى نلت تدريبى العملى فيه، بقدر ما يؤرقنى حقيقة أننا لازلنا لا نبلى بلاء أفضل إلى اليوم.

وحقيقة الأمر أن تفشى العداء فى الولايات المتحدة للمسلمين وللإسلام نفسه قد جعل الوضع أسوأ.

فالفصول الدراسية التى أحاضر فيها تفيض بطلاب تحركهم نغمة «اعرف عدوك» التى لم أحتك بها إلا إبان دراستى للاتحاد السوفيتى. كانت الشيوعية السوفيتية وقتذاك هى العدو الذى تطبق عليه النماذج «التوتاليتارية» (مصطلح نظم الحكم التوتاليتارية يشير على نحو مبسط إلى النظم الشمولية - المترجم).

العلاقة مع التيار الإسلامى؟!



Demonizing Islam by Carlos Latuff

عنوانا للسياسة فى معظم العالم العربى .

ففى تلك الأيام تجدنا ناصبين أعيننا فقط على المجموعات الإجرامية الهامشية كالقاعدة، وعلى العنف والفوضى التى تسببها . ونهمل أعدادا أكبر بكثير من الإسلاميين المعتدلين نافذى التأثير .

وبالكاد نلاحظ بساطة حياة الناس العاديين فى العالم الإسلامى وأحلامهم اليومية .

ولا نمنح أى اهتمام تقريبا لتيار الوسطية الإسلامى الذى يوفر واحدة من أكثر الأطر تأثيرا لتلك الحياة وتلك الأحلام .

الأخبار الحقيقية من العالم العربى هى هؤلاء الناس العاديون فى كل المنطقة الذين يناضلون كل يوم بكل السبل المتاحة أمامهم لخلق حياة أفضل لهم ولأطفالهم .

يتوقون لأنظمة اقتصادية وسياسية أكثر عدالة، ويسعون لخلق مجتمعات ذات جذور من قيم موروثه لكنها مفتوحة على العالم، تعددية ومتسامحة، تسمح بحريات أوسع وتوزيعا أوسع للثروة . (خورى ٢٠٠٧) .

ويزداد اختيار أولئك الناس يوما بعد يوم للرايات الإسلامية شعارا لمعاركهم تلك .

وما يلفت النظر فى تلك النضالات هى الظروف المحيطة بها من الاستبداد المحلى والهجمات الأجنبية . فالعالم العربى والإسلامى يتأوه تحت حكم سلطوى بينما يواجه هجمات أجنبية على عدة جبهات . ويكتسب التيار الإسلامى قوة عبر المنطقة ويؤسس نفسه كمعارض رئيسى للنظم الحالية وكملهم للنضال ضد الغزاة الأجانب .

وفى بعض الأحيان تتخذ معارك نشطاء التيار الإسلامى ومفكره أبعادا بطولية بينما يخاطر أولئك الناس بكل شئ من ناحية لتحويل دول بوليسية رهيبة، فاسدة، عاجزة لأنظمة سياسية عاقلة، وفى مواجهة الأجانب الذين يتسللون ويحتلون أراضيهم .

لن يفيد فى شئ تشويه تلك المعارك من أجل حياة طبيعية سوية، ذات القدرة الهائلة على شحذ المقاومة، بما فيها المقاومة المسلحة .

وفى بعض الأحيان تساء قراءة المعارك اليومية من أجل البقاء لصالح افتراض أن قضايا حرية الوطن والاستقلال لا تهم الناس العاديين . بل بالعكس: فالمعركة من أجل الحياة العادية تحتاج مقاومة غير عادية وهى حقيقة معروفة للغاية .

ومن غير المقبول أن نلوم المواطنين

العرب والحركات التى يدعمونها على ولأنها لكلا الأمرين: القضايا المتعلقة بالأحلام اليومية كالطعام، المسكن الرعاية الصحية والتعليم لأطفالهم من ناحية ودعم المقاومة ضد الطغاة المحليين والغزاة الأجانب .

وفى مواجهة ظروف كذلك لا يمكن فعل ما هو أقل من ذلك، كما يتضح من تجارب حماس وحزب الله . فالأمر لا يتعلق بازواجية ما أو أجندة خفية . بل يتعلق الأمر بتحمل حزمتين من المسئوليات . فالناس العاديون فى أرجاء العالم العربى يمتلكون حسا ثاقبا ودقيقا للغاية أن أعداء الحرية والحياة الكريمة المتمثلين فى حكوماتهم القمعية ليسوا وحدهم، وليسوا بالضرورة التهديد الأخطر على الدوام .

فلا زالت ذكريات الاستعمار الأجنبى المباشر فى أرجاء المنطقة حية وجارحة، بل وتبعث للحياة باستمرار عبر العقود الأربعة الماضية على يد الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية وقطاع غزة . ويقدم الاعتداء الأمريكى على أفغانستان كجريمة حرب هائلة من الدرجة الأولى لا يفوقها إلا الغزو غير الشرعى واللا أخلاقى للعراق وتشيت شعبه، نسخة جديدة من تلك الفضائع اليومية من التشريد والسلب فى البقية المحاصرة من فلسطين التاريخية .

وترى عين المواطن العادى فى العالم العربى أمورا كتلك كحقائق الحياة اليومية المستقاة من النسخة الأمريكية من كتاب «هدية الأجنبى» (عجمى ٢٠٠٦) .

ويقوم خطاب الإمبراطورية الأمريكية على إعادة تشكيل المنطقة كجزء من الحرب العالمية ضد الإرهاب . ويترجم هذا الخطاب على الأرض إلى استعمار وفصل عنصري وعقاب جماعى وحروب مفتوحة دوريا ضد السكان المدنيين فى الأراضى التى تحتلها إسرائيل، هجوم شامل أمريكى

إسرائيلى على لبنان، مساندة أمريكية للديكتاتوريات فى كل مكان، موت وخراب على نحو مذهل فى أفغانستان والعراق . وتمتد ثورة المعلومات البيوت العربية يوميا بمشاهد تلك الآلام بالصوت والصورة .

ويصعب تحديد إن كانت أحدث مشاهد العنف التى تبثها الفضائيات العربية تصور الأمريكيين فى العراق أم الإسرائيليين فى الضفة الغربية .

وليس المقصود من كل هذا تقديم الغطاء لتبرئة حركات المقاومة الإسلامية . فكما يتعرض الضحايا لوحشية تلك الظروف، كثيرا ما يورطون أنفسهم للأسف فى أعمال وحشية .



ومن الواضح طبعاً ارتكاب حماس وحزب الله لتجاوزات تصل فى بعض الأحيان لحد التجاوزات الإجرامية . وإذا بدت لنا ردود الفعل الإنسانية تلك على أى درجة من الشذوذ، فى المقابل زيارة أى مدينة أمريكية . هل سنندهش عندئذ من ملاحظة عودة الناس للتمسك بإيمانهم فى مواجهة اصطدام أحلامهم بالعنف واليأس ؟

فعودة الإيمان الدينى هو اتجاه عالمى وليس معبرا عن ظاهرة إسلامية محضة . فحين يضيع كل شئ يرتد البشر العاديون لتقاليدهم الدينية وقياداتهم ومؤسساتهم للحصول على شئ من الراحة فى مواجهة الظروف القاهرة، وغير المحتملة، كما ذكرنا مسيرات الرهبان البوذيين فى ميانمار بزيهم الأحمر وأقدامهم الحافية، بالقس جيسى جاكسون فى أمريكا، وبايشوب ديزموند توتو فى جنوب أفريقيا، آية الله الخومينى فى إيران، حزب الله فى الجنوب اللبنانى، حماس فى الأراضى المحتلة من قبل إسرائيل . تحمل كل تلك



ساعدتني نظرتي

اليسارية النقدية نوعاً ما على
فتح مجال أوسع للتفكير . وان كنت فشلت
فى تدوين ملاحظات جادة حول
«الصحوۃ الإسلامية»



الحركات مشتركات أكثر مما نحن فى الغرب مستعدين لإدراكه .

ولا تسعى أى من تلك الحركات لخلق مجتمعات دينية باستثناء الثورة الإسلامية الإيرانية . بل تسعى فى معظم الأمر كما هو الحال اليوم فى ميانمار لخلق مجتمعات ودول مدنية أكثر عدالة . فى حين لا يلتفت أى منا فى الغرب للأحداث المثيلة فى العالم العربى والإسلامى، فنحن على العكس تحتلنا أفكار مسبقة حول النسخة الأحدث من التهديد الإسلامى .

هذا التجاهل للنضال من أجل حياة طبيعية فى ظل ظروف غير طبيعية والعودة للإسلام طلباً للحماية، كلفنا حصيلة هائلة من الفرص الضائعة وعدم الفهم . كما أن حقيقة فشل التطرف غير العقلانى والإجرامى فى السيطرة على الغالبية العظمى من الناس العاديين تمثل أمراً غاية فى الأهمية .

فأمر كهذا يكشف عن احتمال أن يؤدى الدعم الأمريكى المخزى للسجن الجماعى للمدنيين فى غزة واندفاعنا فى القتل فى العراق لنتائج أقل تدميراً لسمعتنا ومكانتنا الدولية مما هو شائع فى حال أدركنا حجم فشلنا الأخلاقى والسياسى وعدلنا من ثم سياساتنا وتفكيرنا .

العرب والمسلمون العاديون يمنحونا حقيقة قدراً من التحرك بحرية وأمان لا نستحقه . فأنا أتحرك بحرية كمواطن أمريكى فى طول العالم الإسلامى وعرضه بما فيه مناطق كدمشق مثلاً بالرغم من تصاعد العداء لأمريكا الذى لا ينعكس أبداً على صعيد شخص .

فالناس العاديون فى العالم العربى أذكاء وفطنون إلى حقيقة الاختلاف بين المواطنين والحكومات . ويعنى ذلك أن لدينا شركاء محتملين فى العالم العربى الإسلامى لا سيما فى ظل التزاماتنا نحو الديمقراطية .

والمدهش ربما، أن تلك الاحتمالية تمتد إلى الإسلاميين المعتدلين الذين يلعبون دوراً هاماً فى المعارك المحتملة من أجل الديمقراطية .

ومع ذلك، فقد جاء التركيز بعد عدد من أحداث الفضل التى واجهتنا على نقص القوات والجهود الاستخباراتية فى سياق من الحماقة والاندفاع الأيدلوجى للقيادة السياسية . ولم يكن ذلك إلا مجرد بداية . إلا أن ما يؤسفنى بشدة هو ذاك الاهتمام الضئيل للفشل الفكرى الهائل الكامن وراء كل ما سواه: فشلنا الدائم فى إدراك الشركاء المحتملين للنقاد الأمريكيين للإمبراطورية والمدافعين عن

وحين تبخرت الخطط الخادعة المبالغ فيها لإعادة تشكيل المنطقة في خضم الموت والدمار، تحمل الإسلام نفسه اللائمة.

ويقول عجمي إن الأحلام النبيلة بإعادة تشكيل الشرق الأوسط من جديد على نحو يتماشى مع الخط الديمقراطي تعثرت، حين فشل البشر أنفسهم في العراق بالذات في الرقي إلى توقعات الإمبريالية وفي تحمل مسؤولية كتلك، بينما بلاد «الصدمة والترويع» تتدهور على طريق الفوضى (الصدمة والترويع مصطلح عسكري يقصد به استخدام قوة عسكرية لا محدودة في وقت قصير لترويع العدو وكسر إرادته - المترجم)، وعانت بعدها «التجربة النبيلة» فشلا لا تلام عليه (عجمي ٢٠٠٦).

ومنع تواطؤ المؤسسة الليبرالية التاريخي مع المشروع الإمبريالي بزوغ أي بديل ليبرالي حقيقي ومنح الحرب على الإرهاب راية ديمقراطية تخاض تحتها وصولا إلى الحرب الأمريكية على العراق. وثبت بالتالي استحالة إنتاج الليبراليين لسياسة حقيقية لتعطيل ركب الحرب إلى بغداد. بل أدى الليبراليون دورا قياديا في صياغة تلك الثنائيات المتعارضة: الخير والشر، الحرية والاستبداد.

وكانوا قد ساهموا طبعاً بجدية في التلاعب المعيب في تعريف الرموز الديمقراطية خدمة للمصالح الإمبريالية في أرجاء العالم الثالث.

وفي ذات السياق، تبناوا بالكامل نفس الفكرة الاستشراقية حول الإسلام والعالم الإسلامي التي دعمت أطروحة «الاستثنائية» لوصف فشل الديمقراطية في العالم الإسلامي.

في حين لم يذهب اليسار السياسي والثقافي المشتبك مع قضايا الإسلام والديمقراطية أبعد من انتقاد الأفكار الاستشراقية وفضح الأساليب التي اتبعتها تلك الأفكار ومؤسساتها في تقديم الإسلام والحركات الإسلامية بصورة خادعة و«تغطيته».

كما لعب اليسار دورا قياديا هاما في تعبئة المعارضة الداخلية ضد الخراب الذي جرت به سياسات بوش. على أن رفع الغطاء الأيدلوجي الذي يحتمى به المشروع الإمبريالي للحصول على مبرر وجوده وشرعيته مهمة لا بد من إنجازها بالكامل.

وتقف تلك النظرة نحو الإسلام كطرف رافض لقيم الحداثة عاجزة، لدى اليسار والليبراليين على السواء.

ولم تبدل أي جهود على الإطلاق تقريبا لتقييم أي

ما وأهلها دون أن يضع في الاعتبار الضغوط الأجنبية، الغزوات، والاعتداءات الصريحة التي تطيح بأى احتمال لمستقبل من صنع أهل تلك المنطقة أنفسهم.

كيف يمكن للمرء أن يفهم منطقة ما وأهلها دون أن يضع في اعتباره ضمن القوى المحلية الرئيسية فيها المعتدلين الإسلاميين بالذات الذين يمثلون المقاومة الأكثر فاعلية في وجه هذا النهب.

ما يلفت الانتباه حقا في الصوحة الإسلامية ليس المجموعات المتطرفة العنيفة الهامشية بتكتيكاتهم واستراتيجياتهم القائمة على جذب الانتباه. بل إن ما يلفت الانتباه حقا هو إصرار التيار الإسلامي الذي يخوض

نقطة البداية هي فهم السياق الذي يعيش فيه مواطنو العالم العربي العاديون حياتهم. وأول درس في تلك الخطوة هو الوعي بدور الغرب وحليفته إسرائيل في الخداع حول طبيعة هذا السياق.

والثاني لا يقل أهمية، وهو مسئولية الأنظمة المحلية هي الأخرى عن جعل الحياة اللائقة أبعد منالا بالنسبة للمواطنين العاديين.

ولا يعنى هذا بحال نفي حقيقة مفادها أن أمريكا كإمبراطورية مصالحها الإمبريالية في المنطقة لا المصالح الإمبريالية للإمبراطورية في المنطقة وأنها ليست مجرد قوة عظمى. ولا يقلل من أهمية دور الشريك الإسرائيلي لأمريكا. فإسرائيل بكل



نضالا ضد الأعداء الأجانب، إلا أنه لا يخوض فقط حربا من أجل الحرية في مواجهة التدخلات الأجنبية، بل يخوض كذلك كفاحا من أجل ديموقراطية على خلفية إسلامية.



وتظل قضية الإسلام والديمقراطية في قلب الجدل بين المدرسة الإمبريالية ونقادها. وبذلك فرض عجز العالم الإسلامي عن خلق الديمقراطية - بحسب ما تذهب إليه مقولات المحافظين الجدد - إلى فرض إستراتيجية استخدام القوة العسكرية المفرطة الساحقة لإعداد الأرض الإسلامية الراضية للديمقراطية لإنباتها فيها مستوردة من الخارج.

تلك الخصائص بدت واضحة منذ سنوات في مقولات الأكاديميين الذين اعتمد عليهم أنشط منظري ومفكرى النظام ولا سيما برنارد لويس وفؤاد عجمي.

صراحة هي القوة الإقليمية المهيمنة، ذات إستراتيجيات توسعية، وترسانة نووية وقوة عسكرية معتبرة دوليا لدعم طموحاتها.

ويؤكد أداء إسرائيل نيتها احتلال أكبر جزء ممكن من الضفة الغربية بينما تمتد من ناحية أخرى بقية حدودها ولا سيما حدودها مع لبنان وسوريا، كلما سحنت الفرصة.

وتبدو النظرة الأمريكية لإسرائيل كدولة حبيسة، و«حليف محاصر» كمحض خيال أمريكي، خيال ساهم بفاعلية في نسجه أستاذي الراحل في جامعة هارفارد ناداف صافران (١٩٧٨).

إنه لمن السخافة حقا الكتابة عن المنطقة كما لو أن الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين التاريخية لا يسير على قدم وساق، وكما لو أن أمريكا لم تفتتح عهدا جديدا من العلاقة مع العالم الإسلامي بالحرب الإجرامية على أفغانستان والعراق.

كيف يمكن للمرء أن يفهم منطقة

الديمقراطية في العالم الإسلامي بما في ذلك تيار الحركات الإسلامية.

أمريكا أكبر من أى حكومة، وبالتأكيد هي أكثر اتساعا ومسألة من تلك الحكومة الحالية. وضعنا الحال كامة هو أننا ذوو وجود هائل في عالم إسلامي لا نعلم عنه شيئا ولا نعلم فيه الصديق من العدو حتى يطلق علينا الرصاص.

حان الوقت لتحرك الحركات الاجتماعية الأمريكية التي تحرك المجتمع المدني. أولئك الذين حققوا أهم الانتصارات الديمقراطية في تاريخ أمريكا. إنه لمن الحتمي إذن أن يبدل أولئك جهدا فكريا وأخلاقيا وسياسيا بحثا فيما وراء شواطئنا ووراء مخاوفنا عن شركاء كالتيار الإسلامي الذين يشاركوننا أفضل أحلامنا.

من المحتم على الإمبراطوريات أن تختلق نسخة ما من قصيدة «مسئولية الرجل الأبيض» (قصيدة ترجع لأواخر القرن التاسع عشر للشاعر البريطاني روديارد كيبلينج فسرهما منظرو الإمبريالية كتعبير عن المهمة التاريخية للرجل الأبيض - المترجم)، كما تتجه دائما إلى استحضار تهديد ما مريع صادر عن «السكان الأصليين».

وعادة ما تثير تلك المخاوف فزع مواطني الإمبراطورية ومن ثم تبرر العنف المروع الموجه غالبا ضد المدنيين في أماكن بعيدة، إلا أن الإمبراطوريات حتما ما تولد نقادا لها خاصة مع ارتفاع الخسائر المادية والبشرية.

وتظهر المعارضة للإمبراطوريات في البداية في هذا الإطار الوطني الضيق مع تلك النظرة لتجاوزاتها كتهديد للمصالح الوطنية. لكن الأمر لا يخلو من أقلية تنتمي لنفس الإمبراطورية لكنها أبعد نظرا لتدرك بذلك المصلحة الإنسانية المشتركة في مقاومة المشاريع الاستعمارية والعنف الذي تجره وراءها. أولئك الأفراد والجماعات الذين يحيون في مركز الإمبريالية ذاته، منفتحون على الأقل نظريا على أفكار التعاون في مقاومة الإمبراطورية وفي بناء عالم أفضل، وأكثر ديمقراطية وعدالة، أو ما أسماه إدوارد سعيد «المعرفة الجدلية»، أى توفير القاعدة المعرفية للجهود المتضافرة من أجل المصلحة الإنسانية (سعيد ١٩٧٨).

وهناك بالفعل بدايات لإطلاق دراسات من هذا النوع، لكن سجل إنجازاتها إلى الآن لا زال دون المطلوب.

فمعظم تلك الجهود بذلت في اتجاه تفكيك نقدي للعقلية الغربية. وبالكاد بدأ العمل الإيجابي في الدراسة الإنسانية المقارنة للعالم العربي.

احتمالات لوجود طاقات تحريرية لدى الإسلاميين المعتدلين، بما فى ذلك إسهامهم فى الديمقراطية كنظرية وممارسة وفى مقاومة الإمبريالية.

جاءت استمرارية المقولات الرئيسية للمحافظين الجدد والليبراليين عن الإسلام، مع تجاهل اليسار للمقاومة والنضالات الديمقراطية لتسفر عن جسم هائل من الدراسات الغربية المختلفة عن الإسلام والديمقراطية والتي تحمل اتساقا مدهشا فيما بينها.

وفى الغالب الأعم من الدراسات السابقة عن الاتحاد السوفيتى ثم لاحقا عن الإسلام الآن تتخذ اتجاهها ينظر لثقافة بعينها حتى وإن كانت شريرة أو فاشلة كوحدة مصممة بحيث يمكن فهم جزء منها بإرجاعه لمكوناته. ووفقا لهذا التصنيف المغلوط فالإسلام باعتباره «حضارة فاشلة» هو كذلك كيان ثقافى متماسك شفاف تماما ومفهوم بناء على فحص أى من أجزائه.

ووفقا لهذا المفهوم فالإسلام وحدة يسهل فك شفرتها، بالضبط كالنظام السوفيتى التوتليتارى. (التوليتارية اصطلاح يشير للنظم السياسية السلطوية التى تعتمد على إدارة الدولة عبر مؤسسة واحدة فى صورة حزب سياسى مثلا أو حتى طبقة، وتستخدم سلطتها على نحو مضطرب لتنظيم الحياة العامة - المترجم).

وبذلك تكون الحركات الإسلامية المتعددة بالضبط كنظيرتها الشيوعية فى السابق طيعة تماما للتصنيف لكونها مجرد فروع ظليلة بعض الشيء من وحدة يسهل النفاذ إليها. كما أن هذا «الإسلام المتاح، يظل ثابتا فى صفاته الأساسية، بالرغم من الاختلافات الظاهرية، التى تسايرها جين كيركباتريك فى أطروحتها التبريرية حول الاختلاف بين النظم اليمينية السلطوية القابلة للتقلب لكن غير المتغيرة فى جوهرها التوتاليتارى، والأنظمة الشيوعية (كيركباتريك ١٩٧٩).

واليوم تمثل أطروحة ثبات الإسلام المفترض تلك نعمة لصناع السياسة المنهمكين فى المهام اللانهاية لتنظيم أمور الإمبراطورية العالمية وخاصة فى قواعدها الأكثر أهمية وحساسية فى العالم الإسلامى.

وتحمل تلك الفرضية عبء علم اللغات ودراسة الثقافات عن المحللين الأمنيين والعسكريين المهيمنين على الجدل المصاحب للحرب ضد الإرهاب. فلا حاجة إذن لأن يهتم المرء بالتفاصيل المضجرة لتاريخ الشعوب الأخرى ولا

التفاصيل المتشعبة الغربية لظروفهم. فالإسلامى شخصية ثابتة.

وتتلاشى بذلك تماما كل التفاصيل النافهة المزججة عن التجارب الحية فى مجتمعات متغيرة فى مقابل النظرة للإسلام بتجريد شديد، ككيان طيع للفهم لتعيد صورة التهديد الشيوعى الوحيد إبان الحرب الباردة. ويشترك الباحثون الليبراليون والمحافظون على السواء فى تلك النظرة للثقافة الإسلامية باعتبارها كيانا لا يتجزأ، وهى النظرة التى تخدم مقاصد الإمبراطورية سواء عن وعى من عدمه.

وغنى عن القول إن إسلاما بهذه الصورة المتخيلة لا يملك أى فرصة فى خلق الديمقراطية أو العمل كشريك بناء مع المجتمع المدنى فى العالم فى المشاريع الديمقراطية.

لا يمكن للديمقراطية إذن أن تمد جذورها فى تلك التربة الثقافية الفقيرة فى العالم الإسلامى. ويحتاج العالم الإسلامى لإعادة تشكيله وهى مهمة تتطلب استخدام قوة هائلة. فالتطور الديمقراطى فى داخل العالم الإسلامى تقاومه طبيعة الإسلام نفسه. والأمل الوحيد للعالم الإسلامى هو أن تأتية الديمقراطية من الخارج. وتحتاج المشروعات الإمبريالية الكبيرة فى عصر العولمة لمسوغات أكبر ربما. فلن يفيد كثيرا الحديث فى هذا الصدد عن البترول والسيطرة على منابعه على المدى البعيد. أما رفع لواء الديمقراطية فيمنح الإمبراطورية الأمريكية أهدافا معلنة أرقى وأكثر استحقاقا.

فما إن تصبح فرضية نبذ الإسلام للديمقراطية مقبولة، بحيث تصير تعريفا لخصائص تلك الحضارة، حتى يبدو الطريق ممهدا لاستخدام القوة الغاشمة لإنقاذ المسلمين من بربريتهم.

أما مجموعات العنف الإجرامية فى العالم الإسلامى والتى تشكل أقلية على

كل حال فقد أصبحت حليفا لا غنى عنه يبرر الأجندة الإمبريالية ويضفى عليها نوعا من المصداقية.

فى حين كان للتيار الأوسع من الإسلاميين قول آخر تماما. فقد أطلقوا كما سنرى، تقييما جوهريا للتراث، كاشفين عن مصادر إسلامية مهمة بشأن السوابق الديمقراطية، وإمكانيات تحسين الممارسة الديمقراطية بالتماشى مع العصر. بل ونشطوا على نحو فريد فى المشاركة فى المجالات المتاحة أمام الممارسة الديمقراطية، والتزموا بشروط اللعبة وحققوا بالفعل بعض النجاحات اللافتة كما هو الحال فى الأردن وتركيا ومصر.



يمكن للباحثين المرور مرور الكرام على هذا السجل، كما يمكنهم تجاهله تماما. هناك دائما طرق لتفريغ تلك التجارب الديمقراطية للتيار الإسلامى من وزنها الحقيقى وأهميتها. فلا يذكر الباحثون الليبراليون فى الغرب الإسلاميين المعتدلين فى أدبياتهم وتحليلاتهم إلا كدوبلير لتعويض غياب الليبراليين المرتبطين بالغرب، الذين يمثلون ضالة دائمة لأولئك الباحثين على أمل العثور عليها (حمزاوى ٢٠٠٥). فى حين أن المعتدلين الإسلاميين فى نظر الباحثين اليساريين إن لاحظوهم أصلا، ليسوا إلا قوائم فارغة معدة فقط لإدراج النسخة اليسارية من القيم الغربية عن العدالة وحقوق الإنسان.

فالحركات الإسلامية لا يمكن التعويل عليها فى المساهمة الحقيقية فى التطور الديمقراطى فى نظر اليسار والليبراليين على السواء (زونز ٢٠٠٣).

لا يمكن خوض الجدل حول غياب النشطاء الديمقراطيين فى الإسلام بسهولة حتى فى حال توفر للباحثين والصحفيين اطلاع سطحي على كتابات



الولايات المتحدة تنفرد القوى الإسلامية الرئيسية بفعل سياساتها وتحولهم من شركاء محتملين الى أعداء مرجحين



وتطبيقات أى من كبار المفكرين الإسلاميين المعتدلين. كما أن أمرا كهذا لا يحدث غالبا من الأساس. ويسخر المحافظون الجدد بالطبع من مجرد فكرة إيجاد مركز إسلامى.

بينما ينظر الباحثون من التيار الليبرالى للمعتدلين الإسلاميين بشك مبالغ فيه، بينما اليسار غالبا إما معاد للإسلاميين أو ببساطة متجاهلا لهم. وبذلك تتدفق حصيلة الجدل الاستشراقى بمنتهى الثقة: الإسلام إيمان معيب والحضارة الإسلامية حضارة فاشلة لا أمل لها فى التطور الديمقراطى.

فحتى أكثر الكتابات الموجهة للجمهور الغربى إثارة للاهتمام فى هذا الصدد لدى الليبراليين واليساريين، قصرت فى أى تناول جاد للمعتدلين الإسلاميين حتى باعتبارهم ذوى حق لا لبس فيه فى مستقبل مجتمعاتهم.

فمثل هذا التجاهل المقصود مطلوب للإبقاء على ذات الأوضاع القائمة. فلننظر مثلا فى إنتاج «المدرسة العقلية» للإسلاميين المجددين التى نشطت منذ سبعينيات القرن الماضى. أنتج أولئك المعتدلون المصريون أعمالا متعددة فى غاية النضج تتناول أهم القضايا التى تواجه العالم الإسلامى، بداية من حقوق المرأة والأقليات وصولا لنماذج مقاومة الإمبريالية الغربية والأمريكية بصورة خاصة. ومن عباءة تلك المدرسة برز بعض أهم المفكرين المعتدلين كالأرحل محمد الغزالى ويوسف القرضاوى، ويمكن القول إنهما أكثر المفكرين الإسلاميين تأثيرا فى عصرنا (بيكر ٢٠٠٤).

وألهمت أعمالهم حركات إسلامية معتدلة فى كل أرجاء العالم الإسلامى. فجهل الولايات المتحدة المتعمد بالتيار الإسلامى راجع إلى الموقف المناهض للإمبريالية الذى يتخذه هذا التيار.

فالتزامات هذا التيار نحو الديمقراطية ومعارك العدالة الاجتماعية لا تنفصل عن مقاومته القوية للتدخلات الأجنبية بما فيها الأمريكية.

تلك المواقف المناهضة للإمبريالية تجعل من الإسلاميين تيارا غير مقبول فى نظر الحكومة الأمريكية ودوائر صنع القرار. صحيح أن الأمر لا يطرح علنا بهذا القدر من الفجاجة، إلا أنه لا يستدعى مهارات تحليلية عظيمة لإدراك أساس هذه الكراهية الأمريكية للتيار الإسلامى.

فالسائد ببساطة هو التعامل كما لو

أنه ما من شركاء محتملين بين الإسلاميين (برنارد ٢٠٠٣).

لكن علينا بالطبع معرفة المزيد عن الأمر. ففى واقع الأمر هناك تاريخ طويل من الاتصالات المكشوفة بين الإسلام وأمريكا، وإن كانت قد جرت لأسباب بعيدة تماما عن قضية التطور الديمقراطي.

ومع ذلك فسجل الاتصالات هذا ربما يشير إلى دروس أخرى. أولا يدحض تماما مقولات «صراع الحضارات» الشهيرة بين الإسلام والغرب، التى روجها صامويل هنتنجتون (هنتنجتون ١٩٩٣). يعلم الباحثون فى شئون المنطقة جيدا عن تاريخ العلاقات المتشابكة بين الإسلام والإمبراطورية الأمريكية.

ويقدم إدوارد سعيد نقطة بداية مفيدة لتحليل تلك الصلات المعقدة بين الطرفين بمقولاته الشهيرة من أن عصرنا هو عصر «عدة إسلامات». بينما هو من ناحية أخرى عصر الإمبراطورية الأمريكية المتفردة - أو عصر القطب الوحيد كما يطلق عليه المحافظون الجدد - وللإسلام والإمبراطورية تاريخ من التشابك.

فقد حافظت أمريكا على علاقات متناغمة ومتوافقة مع الإسلام لتدعيم وضعها كقوة إمبريالية، وهو ما يندر الاعتراف به حاليا، إلا أن أمرا كهذا على الأقل يساوى فى أهميته فى فهم العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى، سجل المعارضة للهيمنة الأمريكية التى ألهمها الإسلام من الناحية الأخرى.

داومت أمريكا على الاستخدام النشط لإسلامات متعددة، خدمة لأغراضها. إلا أن تداعيات هذا التلاعب بـ «الإسلامات المحبذة» لم تكن على الدوام كما خطط لها، إلا على المدى البعيد.

فقد جر وراءه غالبا العنف الذى ارتد فى نهاية المطاف ضد عملاء أمريكا إلى أن وصل لأمريكا نفسها. ومع ذلك فقد كان هذا النمط من الإسلام المحبذ المدعوم من الولايات المتحدة استثنائيا فى أهميته لمشاريع الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وفقط عبر فهم هذا التاريخ يمكننا فهم توجه الإدارة الأمريكية فى العالم الإسلامى وعواقبه المحتملة.

فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقع الرئيس روزفلت اتفاقا تاريخيا مع بيت آل سعود فى المملكة العربية السعودية. وبمقتضاه ضمنت الولايات المتحدة بقاء العائلة المالكة فى الحكم معلنة أن الدفاع عن المملكة جزء حيوى من المصالح الأمريكية، مقابل شروط تفضيلية لحصول أمريكا على البترول. وتعود أصول النظام السعودى الحاكم

إلى القرن الـ ١٨ الذى شهد تحالفا ناجحا بين محمد بن سعود أحد القيادات القبلية وابن عبد الوهاب القطب الإسلامى المتزمت.

وأتاح الدعم المادى الأمريكى للأنظمة القمعية، للعائلة المالكة السعودية فرض نفسها على «شعبها»، بالرغم من كراهية الإسلام عميقة الجذور للملكية. كما أتاح للإسلام الوهابى السيطرة بقوة على المملكة السعودية، وأتاح للسعودية عبر عائدات النفط التصرف على المستوى الدولى كقوة تقليدية رجعية. كما عينت نفسها حارسا على أقدس المواقع الإسلامية، مكة والمدينة، لتحصل بذلك على الغطاء الأيدلوجى المطلوب لنظامها القمعى المدعوم أمريكيا.



وأكدت تلك العلاقات مع السعودية انتصار الولايات المتحدة على منافسيها الأوربيين على بترول الشرق الأوسط. كما تسببت لاحقا فى ثورة الابن المتمرّد لآل بن لادن، إحدى أغنى وأقوى العائلات السعودية.

ولعب تواطؤ الإسلام السعودى دورا موازيا فى المنافسة الجيوبوليتيكية اللاحقة مع الاتحاد السوفيتى فى الخمسينيات والستينيات. إذ استخدمت الولايات المتحدة كما هو معروف الأيدلوجية الإسلامية الوهابية الرجعية للسعوديين فى إحداث التوازن مع القوميين العرب التقدميين. إذ كان أولئك القوميين قد أبدوا انفتاحا على السوفييت فى مقابل مساندتهم لمشروعات التنمية الوطنية المستقلة. ما كان يعنى تهديدا للهيمنة الأمريكية على الشرق الأوسط وحقوق بتروله الثمينة.

هدد القوميون العرب الراديكاليون فى شخص الرئيس المصرى جمال عبد الناصر، بالسير فى طريق التنمية

المستقلة التى تمثل فى جوهرها لعنة حقيقية لأى قوة استعمارية.

ثم أنهت رياح خارجية متزامنة مع مؤامرات داخلية على تلك الطموحات القومية بنهاية الستينيات.

ولم تجد الولايات المتحدة بعدها غضاضة فى الغطاء الأيدلوجى الذى منحه الإسلام التابع للدولة للنظام العسكرى الجديد المهادن لها بعدما فرغ من أى مضامين وطنية، فقد كان التهديد الحقيقى لأنظمة كتلك قادمة من اليسار بما يجره من ذكريات الجماهير المساندة للتقدم المادى تحت الشعارات القومية العربية الراديكالية.

لم يكن النظام الجديد أقل قمعية فى سبيله لأهدافه الرجعية من النظام

السابق فى استهدافه للتنمية المستقلة والرفاهية الاجتماعية للشعب.

ومن جديد طرحت مصر نموذج أنور السادات باعتباره «الرئيس المؤمن» الذى طرد السوفييت الملاحدين، وفتح البلاد أمام الاختراق الأمريكى، ورحب بعودة الإسلاميين الملتزمين للحياة العامة فى مواجهة اليسار.



احتضن الأمريكيون السادات والإسلام المدجن على السواء. إلا أن تلاعب السادات بالرموز الإسلامية كغطاء لتحالفه مع أمريكا وإذعائه لإسرائيل بصدد القضية الفلسطينية أثار غضب الإسلاميين المتطرفين الذين اغتالوه فى نهاية المطاف.

وحين تخبط الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان عام ١٩٧٩، لجأت الولايات المتحدة لنمط مختلف من الإسلام السياسى للتعجيل بهزيمة الاتحاد

السوفيتى. ودبرت المخابرات الأمريكية مع نظرائها فى المنطقة بكفاءة استقدام المسلحين الإسلاميين من كل أرجاء العالم الإسلامى بمن فيهم أسامة بن لادن، للاستفادة من ضعف وضع الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان المحتلة.

ولم تذهب تلك الجهود هباء فى تأثيرها على القوى الدولية. إذ عجلت هزيمة السوفييت فى أفغانستان بزوال الاتحاد السوفيتى.

ولم تذهب تلك الجهود هباء بمعايير القوى الدولية. إذ ساهمت الهزيمة السوفيتية فى أفغانستان فى التعجيل بزوال الاتحاد السوفيتى.

ولم تكن تلك المرة الأخيرة ولا الأهم التى تدعم فيها شبكات العنف الإسلامية الهيمنة الأمريكية المطلقة التى مولتها ودربتها على العمل فى أفغانستان.

فنتيجة للانتصار فى حرب العصابات المدعومة من أمريكا ضد الاتحاد السوفيتى تضاعفت أعداد المجموعات الجهادية فى العالم كله ناشرة الخراب فى كل مكان إلى أن وصلت إلى نيويورك فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

أعتبر نفسى ممن يرون بناء على المعلومات المتاحة أن تلك الأحداث المروعة ليست إلا انتقاما من السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط ودعمها فى البداية للقتلة حتى وصل بها الأمر إلى تدريبهم فى بعض الأحيان.

وفى حين كان فتح قضية كتلك فى الإعلام بعد ١١ سبتمبر ضربا من المستحيل فى ظل صحوة الجنون الوطنى الذى جرى التلاعب به وقتذاك، صدرت عدة كتب جادة لاحقا فى هذا الصدد أصبحت توفر التوازن المطلوب، مثل «الخطرسة الإمبريالية» و«عمل شيطانى».

من الأهمية بمكان الآن أن يتحمل الشعب المؤمن بالديمقراطية مسئولية أفعال حكومته. وهو أمر لن يتحقق مادام الجدل ليس حرا حول تداعيات دعمنا لأنظمة النفط، بل والأهم للتوسع الإسرائيلى، وطالما جر هذا الجدل التشكيك فى الوطنية والاتهامات بالعداء للسامية.

ويبدو الأمر من قبيل نكران الجميل حين نسمح لهذا الوعيد بالاستمرار، بما فى ذلك التشهير برئيس سابق لتجروؤه على وصف نظام الفصل العنصرى فى الأراضى المحتلة بأنه نظام للفصل العنصرى.

ويجدر بأولئك المتشككين زيارة الضفة الغربية بصحبة فلسطينى يقيم هناك. ويغض النظر عن التفاصيل الدقيقة



للمؤامرة، فقد جرت جريمة ١١ سبتمبر بحق الإنسانية تداعيات غير مقصودة ساعدت على إنعاش الخطط التوسعية للمحافظين الجدد الذين هيمنوا على إدارة بوش.

واستحضر الإرهابيون الإسلاميون على نحو قابل للتصديق أمام أمريكا الفزعة، في صورة «المهددين للحضارة» التي تسعى إليها كل قوة طموحة لتبرير القسوة التي تمارسها لحماية مصالحها الاقتصادية والسياسية التوسعية.

واختلقت آنذاك خرافة الإسلاميين والمبالغة في وصف التهديد الذي يشكله عنف المتطرفين لخدمة النسخة التي أرادها المحافظون الجدد للإمبراطورية. واستخدمت الإدارة في غمرة الانفعال السائد كل التدابير للسيطرة على الإعلام للحيلولة دون أي ربط بين الجريمة وسياسات الولايات المتحدة غير العادلة تجاه الشرق الأوسط بآلياتها الدموية التي اندفعت في انتهاجها.

كانت خطط الإطاحة بطالبان واحتلال العراق، وبالنسبة للإسرائيليين «حل» القضية الفلسطينية بالقوة حاضرة قبل ١١ سبتمبر. وفي ظل صحوحة الوحشية، استفزت الإدارة أمريكا الجريحة البريئة، ضحية الهجوم بسبب حرياتها وازدهارها، كما صورت الأمر.

وبلا ذرة من حياء، صاغت تلك الإدارة لدورها في الشرق الأوسط صورة بطل الديمقراطية والحصن المنيع في وجه المنايع الإسلامية للتعصب الذي أنتج ظاهريا الإرهاب العالمي.

كان المسرح معدا لإطلاق النموذج الإسلامي الخيالي، ولم تكن استراتيجية جديدة. بل من المهم أن نعرف عن التجربة الأمريكية في استخدام الإسلام لأغراض الإمبريالية، بما في ذلك النسخة المتخلفة منه والعنيفة على السواء.

وفي تلك المرة ترك المفكرون الاستراتيجيون في إدارة بوش النماذج المعدة سلفا.

في كل اللحظات الحرجة كان الأمريكيون يعثرون على الإسلام القابل للتشكل لخدمة احتياجاتهم. فالعلاقة مع السعودية منحتهم إسلاما ملكيا، رجعيا وقمعيًا تعاونت معه أمريكا دون شكوى حتى الآن. في حين كان الجهاد المدعوم أمريكيا ضد السوفييت في أفغانستان على العكس داعيا للمضي قدما في العنف بدلا من مجرد الإسلام القمعي، وسانده الأمريكيون بحماس وجمعت، ومولت، ودربت دعائه من كل الجنسيات.

وفي الوقت ذاته، احتاج النظام

المصري التابع الجديد وقتئذ إسلاما مدجنا و«أليفا» لتأييد الحكومة اليمينية السلطوية التي تعتمد سياسات تخفض من معدلات التصنيع في مصر وتسهل فرض تسوية قاسية على الفلسطينيين. فرحبنا نحن الأمريكيين بجهود السادات المدفوعة بالمصلحة الشخصية لتغطية سياساته الموالية للأمريكان بأى شرعية يمكن أن يضيفها هذا الإسلام المدجن.

في كل مرة إذن، كان الإسلام يتكيف مع مشاريع القوة الأمريكية، بحيث كان دوما إسلاما مختلفا من البداية ليتناسب مع احتياجات اللاعبين المحليين.

وكان له جذوره المستقلة في تربة العالم الإسلامي وخدم أهدافا معروفة لأنظمة قائمة أو لحركات.

سعت إدارة بوش من جانبها لريادة بديل مختلف يندرج تحت نفس النموذج، على نحو سيوضح الأبعاد الثقافية والفكرية لممارستها لقوتها العالمية.



وكان للعراق أن يكون مسرحا للنموذج الجديد.

وتبدو صورة الإسلام الذي حبذته إدارة بوش هذا كأوضح ما يكون وعلى نحو رسمي في دراسة مؤسسة راند الهامة بعنوان «الإسلام الديمقراطي المدني: شركاء، موارد، واستراتيجيات» لشيريل بيانارد (بيانارد ٢٠٠٣)، والصادر برعاية وحدة البحوث الوطنية الأمنية في المؤسسة.

وتتخذ بيانارد من التهديد الإسلامي مدخلا لجدلها واسع الصدى والتأثير. وتفتتح تحليلها بمقدمة حول مآزق العالم العربي والإسلامي الذي أوقع

نفسه فيه وصنعه بأيديه. وتقول إن الغضب المتولد من تلك القائمة دون حل يهدد بالتمدد ويشكل خطرا على بقية العالم. فكل الجراح ألحقها العالم الإسلامي بنفسه.

وتستبعد بيانارد في تحليلها هذا أى ذكر للاستعمار الغربي للعالم الإسلامي أو ما لحقه من دمار باق إلى الآن. وما من إشارة لديها إلى الوجود الإمبريالي في العالم الإسلامي عبر شبكة القواعد العسكرية التي تنمو بسرعة مدهشة، والأنظمة العميلة ولا إلى كيف يقيد هذا الوجود التنمية المستقلة.

وما من ذكر حتى إلى حقائق التدخلات السياسية والاقتصادية التي تعتمد غالبا العنف للسيطرة على الاستقلال الاقتصادي والسياسي، ولا كيف شكلت تلك التدخلات الأوضاع في الشرق الأوسط.

وعلى نحو غامض، غابت عن هذا التحليل إسرائيلي، القوة العظمى إقليميا والمسلحة حتى الأسنان بكل أنواع أسلحة الدمار الشامل.

حجب الشبح الإسلامي إذن تلك الحقائق غير الملائمة. وفقط عبر حذف كل ما سبق أمكن لبيانارد التسليم بالخلفية غير العقلانية للتهديد الإسلامي. ولواجهة هذا التهديد تطرح ضرورة تحويل صناع الاستراتيجية الأمريكية الإسلام نفسه إلى إحدى الأدوات.

باختصار هي تدخل إلى حقل الاستخدام الاستراتيجي للإسلام لخدمة الأغراض السياسية والاقتصادية الأمريكية.

تستحضر بيانارد إسلاما طيعا يمكن تحويله لأداة لمواجهة إسلام المقاومة، وخدمة الأهداف الأمريكية طائعا. الجديد في طرح بيانارد هو استبعادها للاستراتيجية القديمة بالاعتماد على الإسلام «المصطنع» في خدمة الأهداف



المجال مفتوحا أمام مؤسسات المجتمع المدني الغربية لخلق توازنا ما مع التداعيات المدمرة للسياسات الأميركية ولخلق مجالات للتعاون مع التيار الإسلامي



الأمريكية. فبدلا من إسلام يمكن إعادة تشكيله، تنصح بيانارد بصناعة الإمبريالية الأمريكية للإسلام الجديد الذي تريده.

ويطلق كتاب جديد شاركت في تأليفه بيانارد جدلا شبيها حول ضرورة مساعدة أمريكا في صناعة ما أسماه المؤلفون شبكات المسلمين المعتدلين لإحداث التوازن مع الجهاديين. فالحاجة إذن هي وفقا لما تطرح هي إسلام يصنع في أمريكا ثم يصدر للعالم الإسلامي. لغة فجة وسوقية تلك التي يوصف بها إعادة صناعة أحد أعظم التقاليد الدينية والثقافية للإنسانية: «ليس سهلا تغيير ديانة عالمية كبرى، فإذا كان بناء أمة أمرا عسيرا فإن بناء ديانة أخطر وأعقد على نحو لا يقبل القياس أصلا» كما كتبت بيانارد (بيانارد ٢٠٠٣).

وفي سياق مشروع كهذا، بهذا القدر غير المحتمل من الغرور والازدراء للثقافة، تعترف بيانارد بأن المصادر الفكرية لإعادة التشكيل تلك يجب استيرادها من الغرب. وتوضح دراسة بيانارد أن الإسلام الذي تحتاجه الإمبراطورية الأمريكية الآن لن يكون فقط إسلاما مصنوعا لخدمة الأغراض الأمريكية. بل إسلاما مصنوعا في أمريكا. فجوهر الأمر يقوم على التوجه إلى الباحثين المسلمين المهاجرين الذين تركوا العالم الإسلامي للإقامة في الغرب. سيطلق أولئك تفسيرات أهدأ للإسلام تقيده في المجال الشخصي، وتحترم الإيمان من أى قدرة على تحفيز المسلمين على مقاومة التدخلات الغربية في الأراضي الإسلامية.

لن يلبث إعادة التاريخ المنسى لاستخدام الولايات المتحدة للنظم والحركات الإسلامية لصالح مشروع القوة الأمريكية، أن ينعش منابع الأصولية العنيفة التي توتر العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب.

ويغطى خطاب الإمبراطورية على تلك القضايا، بالرغم من أن التاريخ يوضح أن تأثير تلك القضايا حاسم وثابت.

أقل علم بالتاريخ كان ليوضح أن جهود إدارة بوش لإعادة تشكيل العالم العربي والإسلامي لخدمة المصالح الأمريكية والإسرائيلية، باستخدام الإسلام نفسه، سيؤدي حتما في النهاية إلى إثارة المشاعر وتأجيج ربما عنف أكبر. وللأسف تشير الأحداث في العراق إلى تلك النتيجة بدقة.

فيما تأتي أعمال الليبراليين واليساريين مثلهم كمثمل محلى المحافظين الجدد كبيانارد، ينطلقون من

طرح قد يذكر بتشكك أو بصراحة يفترض أن سياق الثقافة الإسلامية تستبعد التطور الديمقراطي. بينما تدل الحقائق أن الديمقراطية الإسلامية هي احتمال قائم بقوة.

فالديموقراطية هي في حقيقة الأمر مطروحة على أجندة الإسلاميين المعتدلين في كل أرجاء العالم الإسلامي. في الوقت نفسه، قدم كبار الباحثين الإسلاميين الوسطيين إسهامات ضخمة للتنظير للديموقراطية على أرض إسلامية. ويعالج تيار الوسطية الإسلامي القضية عبر ثلاثة أسئلة مميزة: هل تحتاج الأمة للديموقراطية لتزدهر في العصر الحديث؟ أى المصادر الفكرية والتطبيقية تستطيع الحركات الإسلامية في التيار المعتدل الاستناد إليها لفهم الديمقراطية؟ ما مدى احتمالية نجاح الإسلاميين المعتدلين في المعارك الدائرة من أجل الديمقراطية في بقاع في العالم الإسلامي؟

سلاحظ الجمهور البقظ المطلع على أعمال أهم الباحثين الإسلاميين المعاصرين أنى قد وضعت تلك الأسئلة في إطار يعكس التعامل مع قضية الإسلام والديموقراطية من قبل الاتجاه السائد بين الإسلاميين أنفسهم الذين يقومون بدور قيادي في هذه المعركة في نقاط منتشرة في أرجاء العالم الإسلامي.

ولنستشهد بأكثر النماذج إثارة للتفاؤل، وهم الإسلاميون المجددون في مصر الذين أطلقوا تفسيرات جديدة بالغة التطور والعمق للإسلام من كل جوانبه، مع اهتمام ملحوظ منهم بقضية الإسلام والديموقراطية.

صحيح أنه لم يتسن أبدا مدرسة الإسلاميين المجددين في مصر إنشاء حزب سياسى، إلا أنهم نشطوا مع ذلك في المجتمع المدنى المصرى وآثروا على نحو حاسم في الجيل الأصغر من النشطاء الإسلاميين المعتدلين، وخاصة أولئك الذين التقوا حول حزب الوسط منذ عام ١٩٩٦.

وأحدثت الحركات المعتدلة عدة تطورات موازية في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، كما هو الحال في نموذج حزب النهضة في تونس، حزب الإصلاح في الجزائر، اتحاد العمل الإسلامي في الأردن، حزب الأمة في الكويت، الحزب الإصلاحي اليمني.

من الممكن الحديث عن شبكة غير رسمية للمعتدلين الإسلاميين تكونت خلال العقدين الماضيين تحتفظ فيها مصر بموقع محوري، وتجمع بين نظرة إسلامية حضارية للعالم مع التزام نحو

الديموقراطية وسياسة خارجية ملتزمة بالمقاومة ضد الاعتداءات الغربية وخاصة الأمريكية على العالم الإسلامي. ومع ذلك لم تلفت تلك الجماعات المعتدلة نظر منافسيهم من المتشددین المتسمين بالعنف، بالرغم من أن وزنهم في مجتمعاتهم أثقل بمراحل.

ويبدو تعامل المعتدلين الإسلاميين مع الديمقراطية وفقا للأسئلة الثلاثة الإطارية لطرحى هنا، بعيدا عن التناول المعتاد للأمر في الغرب. فقضية المنافسة بين الإسلام والديموقراطية برمتها المهيمنة على النقاشات الغربية تتراجع للخلفية. فالإسلام وفقا لمفهوم التيار السائد بين الإسلاميين قادر على خلق بدائل متعددة من النظم السياسية بما فيها النظم الديمقراطية. إلا أن

الديموقراطية، لا في مصر فقط بل وعلى صعيد جهود كل المؤمنين بالديموقراطية من المسلمين في كل مكان كذلك.

يحمل الإسلاميون الجدد في أذهانهم فهما راقيا لدور العقل وفقا لمدرسة العقل.

وصار الأمر لديهم من المسلمات في كل أبحاثهم. فقد سعوا إجمالاً وعن وعى لاستخدام مبادئ العقل لفهم الأوضاع العالمية الجديدة التي أنتجت أغلبها قوى غربية لكنها مؤثرة على المجتمعات الإسلامية دون استثناء.

سعوا لفهم، التغيرات المعاصرة التي هيمنت على التحولات في العالم خلال الربع الأخير من القرن العشرين. ويهدفون للعيش متوافقين مع الأهداف



الأسمى للإسلام في هذا العالم الجديد.

والثقافة بالنسبة لهم ليست أمرا منفصلا بعيدا بقايا من عصور ماضية يجب تحنيطها، بل أداة حية للتعامل مع التحديات الفريدة والشاقة لهذا العصر. ولهذه الأسباب يحتل العقل على الصعيدين الفكرى والعملى مكانة مركزية ومعقدة عند الإسلاميين المجددين.



وينظرون للعقل كأداة دقيقة لتحقيق الأهداف والتأثيرات، قادر على تقييم الأهداف والتأثيرات التنافسية، قادر على التأسيس لأطر الأخلاقية المنظمة للأهداف المتعددة والمتضاربة كذلك غالبا، وإنتاج نماذج يستحيل التنبؤ بأشكالها.

ينظر الإسلاميون الجدد للمسلمين باعتبارهم ورثة حضارة اعترفت

بالإنجازات العلمية للإغريق، الهنود، والصينيين والتقطتها منهم. لم تحفظ الحضارة الإسلامية هذا الكنز الإنسانى فقط بل ساهمت فيه مساهمات مذهشة في الصيدلة والحساب والفلك بل والأهم ربما في فهم النظريات ومقاصد العلوم المختبرية والإمبريقية.

اختار يوسف القرضاوى المركزية المطلقة للعقلية العلمية والعملية وفقا للمدرسة الوسطية، موضوعا للمحاضرة الافتتاحية في مركز أقيم عام ١٩٩٦ تخليدا لاسم المفكر الإسلامى المجدد العظيم محمد الغزالي الذي رحل قبلها بعامين.

ذكر القرضاوى مستعنيه بأن الوحي نفسه طالب المسلمين باستخدام عقولهم: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم» (الآيات ١ إلى ٥ من سورة العلق - المترجم).

يرى المسلمون أن الآية الافتتاحية تشير إلى أن الله أراد بدء عصر العقل، والتعليم، والعلوم وكان يطالب المسلمين بأن يلعبوا دورا قياديا في تحقيق هذا.

تحدث يوسف القرضاوى عام ١٩٩٦ عن الانتصارات التاريخية للحضارة الإسلامية المميزة والمتوازنة التي أطلقت التنوير في العالم كله من مراكزها الدراسية العظيمة في القاهرة، بغداد، وقرطبة. وقال القرضاوى إن معظم العلوم المتقدمة وجدت تعبيراً عنها في اللغة العربية كلغة عالمية متميزة.

ونقل القرضاوى عن الغزالي حزنه العميق من تخلف وجهل المجتمع الإسلامى الذى كان نورا هاديا للعلوم والتعليم لألف سنة.

لكن أكثر ما كان يغضب الغزالي كان إلقاء اللوم على الإسلام نفسه في هذا التخلف. وتساءل الغزالي مستنكرا عن كيفية أن يستقيم ادعاء كهذا بينما كان الإسلام قد أثبت نفسه كقاطرة جرت للعالم العلم والتنوير. فلم يتضمن الإسلام أى تضارب بين العلم والإيمان. وهو ما يعبر عنه القرضاوى قائلا: «بالنسبة لنا... العلم دين والدين علم».

ويقول القرضاوى إن القرآن أمر الإنسان أن يكون مستقلا في التفكير وأن يعتمد على العقل في تحسين الأوضاع الإنسانية.

فبالنسبة للمسلمين «تفكر ساعة خير من عبادة سنة». وفي سياق إشارته لأسباب اقتصادية وسياسية كانت وراء تراجع الحضارة الإسلامية العظيمة، أوضح أن أول الأسباب هو

فشل النظام التعليمى، الذى

لم يشجع التفكير الإبداعي والمستقل (القرضاوى ١٩٩٦).

هذا التشديد على دور العقل والفهم لمبادئه ظهرت من سياق ثقافى متميز شكله الإسلام قبل أى شئ. سيكون من المفيد أن نتوقف قليلا ونستعرض بأقصى وضوح ممكن هذا السياق الثقافى وفقا لنظرية الوسطية وخبراتها العملية. يتضمن مفهوم الثقافة كجزء من الإنتاج الفكرى والاجتماعى لتيار الوسطية المصرى فكرة الشعور المشترك بالثقافة، بالإضافة إلى عادات العقل والشعور التى تمثل ملكية مشتركة للمجتمعات الإنسانية المختلفة التى يضمها العالم الإسلامى.

يتضمن مفهوم الثقافة كذلك الشعور بإنجازات وإنتاج الجهد الإنسانى الذى يستحق الاهتمام والاحترام لما يتضمنه من جمال يؤثر فى البيئة الإنسانية بالمقارنة مع العالم الطبيعى المحض.

ليس من بين الإسلاميين الجدد من يميل إطلاقا للحط من دور الفنون، أو العلوم الطبيعية والإسلامية وكل أشكال الإبداع الأعلى المعترف بها كنتائج قيم لصور من الجهد الإنسانى الأرقى، والتى منحت المجتمعات الإسلامية فى أقصى درجات ازدهارها جمالا ثريا محفزا على النهضة وجديراً بالإجلال.

دافع الإسلاميون المجددون عن الفن والفنانين بشجاعة عظيمة ضد ما اعتبروه قراءة مغلوطة جاهلة متطرفة للإسلام نبذت الموسيقى والرقص والتعبير الفنى عموما عن المجتمع الإسلامى (أبو المجد ١٩٩٢).

ويشجب فهمى هويدى التزايد المستمر لعادة «التمتم» العالى المتفاخر والمزيف بالقرآن فى أماكن عامة غير ملائمة كمسرى الانفاق المزدحم أو الحافلات، إذ كتب فى هذا الصدد بازدراء شديد: «بعضهم لا يتوقف عن التتمتم بالآيات بصوت عال... بالرغم من أنهم لا يمانعون فى إهانة الناس أو أكل أموالهم بالباطل» (هويدى ١٩٩٩).

وفى إحدى أدبياتهم حول الإبداع، يقف الإسلاميون المجددون ضد نمط التحفيظ عن ظهر قلب كاللبغاء، وضد الانفصال بين التعليم والحياة، ليس فقط فى الدراسات الدينية بل فى كل مجالات التعليم.

مفهوم الثقافة عند أتباع مدرسة الوسطية مفتوح وشامل لمعان جامعة تساعد على التفاعل مع عالم متشعب وأكبر.

ثقافة بريئة من جرعة التوتاليتارية التى تجدها فى كل الأصوليات، سواء بين

جماعات المتطرفين المختلفة أو بين أصولى السوق الحر فى الغرب.

فالإسلام كما يفسره التيار السائد بين الإسلاميين، لم يأت للعالم ليحمله متجانسا بالكامل، بغض النظر عن قيمة إسهاماته فى المشروع الإنسانى لبناء العالم.

ويصر المجددون الإسلاميون على منح الاهتمام للحقائق على الأرض كالسياق الذى تخاض فيه صراعات يعينها ومن ثم للأشكال الفريدة التى تتخذها حتما تلك الصراعات.



وهم على وعى تام، مثلا، بأن الإسلام فى مصر تشكل بطرق معينة عبر تفاعل استغرق قرونا مع عدد ضخم من المسيحيين المصريين. بينما تتفاخر سياقات أخرى بتأثيرات مختلفة. فلا يمكن لحركة واحدة أو رؤية واحدة للثقافة أن تكون صحيحة فى كل الأزمنة والأماكن.

ووحدها المقاصد الأعلى للإسلام التى دعى إلى اعتناقها كل الجنس البشرى، تمتلك هذه العالمية. أما التفاصيل، بما فيها تفاصيل استخدام العقل ودور الثقافة، فمتروكة لتعامل المسلمين معها فى ظل ظروفهم المتشعبة.

كما ظلت هناك دوما مساحة تركها التيار الإسلامى لتقييم التقاليد الأخرى، ولأبعاد فى الثقافة الإسلامية ترجع صدى أفضل للإنجازات الثقافية للثقافات الأخرى.

واختتم الإسلاميون المجددون إعلانا رسميا صدر عن مدرستهم العقلية أوائل الثمانينيات باستحضار القيم المشتركة التى تشكلت على نحو متميز فى مختلف الثقافات.

وقدموا فى تلك الخاتمة فكرهم باعتبارهم فكريا مشتقا من المبادئ

الإسلامية، ورسالتهم كرسالة موجهة فى المقام الأول لشعب مصر ثم إلى العالم الإسلامى الأكبر.

إلا أنهم يسعون كذلك لتفسير وتنظيم قراءاتهم للموروث الإسلامى على نحو يستجيب لعصر جديد فى التاريخ الإنسانى، عندما «تسقط الحواجز بين الشعوب وتتقلص المسافات». يسعون فى أعمالهم إلى جعل التجديد الإسلامى جزءا من هذا العهد الجديد «عندما تبحث الدول، الشعوب والثقافات حول العالم عن أرضية فكرية ومصالح مشتركة وتسعى لعلاقات بين الحضارات وتعاون ثقافى من أجل قيم كالعدل، والسلام، والحرية، واحترام حقوق الإنسان» (أبو المجد ١٩٩١: ١٣).

وطور الإسلاميون المجددون على هذا النحو وبوعى كامل، إحساسا واضحا بوجود إنجازات متوازنة ومتناسقة فى الثقافات الأخرى حتى فى أكثر الأبعاد العزيزة عليهم فى ثقافتهم الإسلامية.

وتتضمن ذاكرتهم التاريخية حول التطور فى الثقافة الإسلامية التى ينتمون لها لقاءات منتجة مع الفلسفة اليونانية، الأدب الإيرانى، العلوم التطبيقية الصينية والهندية التى تطلعنا على ما يمكن أن يسمى الإنجازات الإنسانية العالمية.

ولا يمانع أولئك الإسلاميون على الإطلاق فى هذا العصر فى الاعتراف ببعض إنجازات النبوغ فى العلوم السياسية فى التجربة الأمريكية ذات الأهمية العالمية، بما فى ذلك علاقتها بالعالم الإسلامى. هذا التقدير من جانبهم للإنجازات العابرة للثقافات لا يعنى بالطبع أن ثقافتهم ليس لديها ما تساهم به فى كل جوانب الخارطة الإنسانية. ولا يعنى ذلك ضمنا القبول بكل تجاوزات محصلة الثقافات المختلفة.

وعلى سبيل المثال لا يمنعهم التقدير للفكر والتجربة الأمريكيتين على طريق



كان انفتاح ابن بطوطة، الرحالة العربى الشهير فى القرن الرابع عشر، على النقيض من الانغلاق البادى فى أداء المتخصصين الغربيين فى الشؤون الإسلامية



البحث عن الديمقراطية من قبيل فكرة تقييد السلطة التنفيذية، من أعنف النقد للسياسات غير الديمقراطية التى تتابع تطبيقها الولايات المتحدة وغيرها من القوى الغربية الديمقراطية فى دول الجنوب.

هذا التميز فى مصادر العقل والثقافة الذى يظهره الإسلاميون المجددون بوضوح يمكنه نقله عن الإسلام لأغراض التطور الديمقراطى.

أسهم إسلام الوسطية على مستوى العالم على نحو ملحوظ فى نمو الأدبيات الإسلامية وسجلها من الإنجازات المموسة على طريق البحث عن الديمقراطية كما أجمعنا آنفا.

ساند الإسلاميون المجددون منذ السبعينيات الحركات العاملة على تقييد السلطة المطلقة للرئيس فى مصر ولتحويل مصر إلى دولة قانون، مستندين فى ذلك إلى قراءة للموروث تؤكد على إمكانيات التطور على النهج الديمقراطى.

وشجعوا الممارسة الديمقراطية ما إن بدأت من خلال المجتمع المدنى، وبصورة خاصة فى النقابات المهنية.

والأهم، ما عمل عليه المعتدلون من شق طرق للمشاركة الشعبية فى العمل الاجتماعى والاقتصادى الذى يخدم المصلحة العامة، غالبا فى وجه العقبات البيروقراطية والسياسية. إلا أن جانبا صغيرا جدا من هذا السجل معروف فى الغرب (بيكر ٢٠٠٤).

إلا أن المؤسف حقا هو تحول الجهل خاصة فى السنوات القليلة الماضية لخدمة الإمبراطورية. فالإمبراطورية الأمريكية تحتاج إلى فكرة أن الديمقراطية لا يمكن أن تنبع من مصادر محلية للعقل والثقافة، على عكس ما يشدد عليه المجددون الإسلاميون.

ولا يكفى هنا تجاهل الأدلة. بل إن ثمة مواظبة على إنتاج الأعمال الفكرية رديئة المستوى مطلوبة من منظرى الإمبراطورية. فلا بد من إعادة إنتاج نظرية الاستثنائية الإسلامية مرة تلو المرة للتعويض بالترديد المستمر عن افتقارها إلى قوة الإقناع اللازمة فى الجدل، لا على الصعيد الفكرى فقط بل السياسى كذلك.

بينما ينتهز الإسلاميون الفرص للرقى بالممارسة الديمقراطية فى ظل ظروفهم المتشعبة، بغض النظر عن القيود المحيطة. ويطرحون فى سياق الحديث حول ما إن كان يتعين على الحركات الإسلامية أن تتسم بالديموقراطية من عدمه، أسئلة أعمق



عندما يتحدث أردوجان

(١)

فى المياه الدولية فى عرض البحر المتوسط، وفى فجر الحادى والثلاثين من مايو هاجمت البحرية الاسرائيلية قافلة «أسطول الحرية» المتجهة سفنه الى غزة تحمل نشطاء من أكثر من أربعين دولة، بصحبتهم أدوية ومعونات لسكان غزة المحاصرة. وكانت نتيجة الهجوم الاسرائيلى أن سقط عدد من الضحايا بينهم تسعة من الأتراك. لم يكن رجب طيب أردوجان، رئيس الوزراء التركى فى بلاده يومها، ولكنه عاد على الفور ليلقى خطابا أمام البرلمان التركى، ذكر الكثيرون بموقفه فى منتدى دافوس (مارس ٢٠٠٩) عندما انسحب من جلسة شارك فيها شيمون بيريز محتجا على تبريره لقصف غزة، قائلا له: «أعلم سبب رفعكم صوتكم، وذلك بسبب شعورككم بالندم» مضيفا: «عندما يتعلق الأمر بالقتل، فإنكم أكثر من تفهمونه.. أعلم كيف تضربون وتقتلون الأطفال على الشواطئ».

وهنا فقرات من نص الخطاب الذى ألقاه رئيس الوزراء التركى أردوغان أمام البرلمان التركى فى الأول من يونيو/حزيران ٢٠١٠. «أصدقائى النواب الكرام.. الضيوف الكرام.. إلى كل من يشاهدنا عبر شاشات التلفزيون. لن أخاطب اليوم شعبى العزيز فحسب بل سأخاطب كذلك الإنسانية جمعاء، أود أن أخاطب ضمير الإنسانية وعقلها، أريد أن أشارككم عواطفى بشكل صريح. يوم أمس وفى ساعات الصباح الأولى قامت عناصر مسلحة من الجيش الاسرائيلى بهجوم غير قانونى فى المياه الدولية على أسطول الحرية الذى كان يحمل المساعدات الإنسانية إلى شعب غزة، والذى كان على متنه ٦٠٠ شخص من ٣٢ دولة، وأراقوا دماء الأبرياء».

كذلك تم احتجاز سفن المساعدات الإنسانية خلال هذا الهجوم الذى ترك عديدا من القتلى والجرحى". لقد قطع الطريق على السفن التى ترسخت من ضمير الإنسانية، بالسلاح والجبروت ولم تستطع السفن التى كانت تحمل الرحمة والشفقة أن تصل إلى مبتغاها وتلطخت بالدماء. لقد تلقى ضمير الإنسانية فى مياه المتوسط واحدا من أشد الجروح على مر العصور.

ومع ذلك، فحدود الممارك الديمقراطية فى العالم الإسلامى تستحق الاهتمام فعلا. فقد استغلت الجماعات المتطرفة كالقاعدة العنف على نحو مذهل وربطته بلا جدال برؤى سياسية غير ديمقراطية.

فى حين اعتمدت طالبان تفسيرات متطرفة للإسلام لبناء ديكتاتورية وحشية زادت من سوء المعاناة الأسطورية للشعب الأفغانى.

هل لنا أن نندهش من النجاح المحدود لتلك النضالات، فى ظل دور القوى الدولية غير القابل للإنكار فى مساندة النظم السلطوية المنتشرة فى العالم الإسلامى؟ هل من المنطق تعميم وإرجاع محدودية النجاح تلك إلى حاجز ما ثابت بين الإسلام والديمقراطية؟ جاء الوقت لننقل اهتمامنا بالعالم الإسلامى من الجوهر الخادع المتسلط إلى التاريخ الواقعى لمعارك تخاض من أجل الحرية.

حان الوقت على الأقل لوقف إعاقة تلك النضالات. فبدون تقييم دعوى سياساتنا سنحول شركاءنا المحتملين لأعداء مرجحين. وليس من قبيل الانعزالية اقتراح اتباع رأى جون ديوى هذه الشخصية الوطنية الأمريكية العظيمة بصدد الديمقراطية (جون ديوى عالم أمريكى راحل تخصص فى أصول التربية وعلم النفس- المترجم). فالرسالة الأساسية لأعمال جون ديوى النظرية والعملية كانت إيمانه الراسخ بأن أعظم ما يمكن أن تمنحه أمريكا للعالم هو تجربتها الديمقراطية (ديوى ١٩٢٧).

فاحتمالات تطبيق الديمقراطية فى بقية العالم اليوم ستصبح أقوى بكثير فى حال منحه أقوى وأغنى ديمقراطية فيه نموذجا جذابا، إذا كان أداؤها تجاه الآخرين نموذجا يستحق الإجلال، إذا كانت سياساتها أكثر استحقاقا للاحترام. على أنه من غير المحتمل إحداث أى من تلك التغييرات قريبا على يد الحكومة الأمريكية، سواء إن كانت تنتمى لليبراليين من الحزب الديمقراطى أو المحافظين الجدد من الحزب الجمهورى. لكن على الأقل، يتوجب على قوى المجتمع المدنى استهداف بذل جهد أكبر فى معاركنا الديمقراطية داخل وطننا.

وفى غضون ذلك لا بد أن تمارس ضغطا على الحكومة لتقليل حجم الأذى على معارك الديمقراطية الحقيقية التى يخوضها الآخرون، بمن فيهم المعتدلون الإسلاميون فى العالم العربى والإسلامى. ■

حول الصورة الدقيقة التى تتخذها الديمقراطية فى كل نظمها. ويفتشون فى التراث لتحديد كيفية تفسيره بحيث يدعم أشكال الديمقراطية المطلوبة.

وينشرون فيما بينهم تبصرة مستقاة من الخبرة العملية من الصراعات من أجل الديمقراطية فى سياقات بعينها، يلعب فيها المعتدلون المصريون دورا هاما لنشر الخبرات.

إن خير دحض لفكرة تولد الديمقراطية فقط من استخدام الإمبراطورية لها كأداة كما فعلنا فى العراق، هو تاريخنا نفسه وتاريخ الشعوب الأخرى كذلك. فتاريخنا وتاريخهم يوضح كيف أن الديمقراطية تبنى ببطء على مدى عقود وربما قرون.

فالتجارب الحية لتقليص حدود السلطة الاستبدادية، وخلق قواعد عادلة تحكم الحياة العامة، وإنتاج فرص أوسع فأوسع أمام الناس أنفسهم للمشاركة فى صياغة المستقبل، كلها تشكل صفات وقواعد أساسية فى معركة الديمقراطية فى كل مكان.

وفى ضوء ما سبق، فالمعركة أبعد ما تكون عن النصر فى أمريكا، حيث القوى البلوتوقراطية المتغطرسة، والتحالف العسكرى الصناعى شبه المستحيل تحديه، والسياسة الخارجية الإمبريالية يهددون المكتسبات الديمقراطية التى فزنا بها بصعوبة (نظام الحكم البلوتوقراطى اصطلاح يشير إجمالا إلى حكم الثروة - المترجم).

وفى ضوء ما سبق بالكامل، من السهل إذن أن ننبد تلك الأطروحة المزيفة الرائجة حول الاستثنائية الإسلامية التى تنفى أى إمكانية لاشتباك العالم الإسلامى مع معارك الديمقراطية.

تلك المعارك تشكل جزءا من تاريخ الحركات التى هيمن عليها العلمانيون فى أهم الدول الإسلامية فى المنطقة، ولاسيما تركيا، إيران، ومصر. إلا أن تلك المعارك تخاض اليوم وينتظر أن تخاض مصطبغة بصيغة إسلامية فى دول فى العالم العربى والإسلامى كالمغرب، الأردن، مصر، اليمن والكويت.

على أن ما تعرض له الإسلاميون فى دول أخرى ولاسيما فى تونس والجزائر كان قاسيا للغاية. وعندما نضع فى اعتبارنا ضعف الجهود التى يمكن بذلها فى ظروف بهذه الصعوبة التى تصل غالبا إلى مستويات غير محتملة من العنف، ربما يمكننا حينئذ تقييم جهودنا. فقد هبت على ديمقراطيتنا عواصف عاتية فى السنوات الأخيرة على نحو كان ليقلق الآباء المؤسسين.

الاستشراق الأمريكي

قصة العلاقات المضطربة بين أمريكا والشرق الأوسط منذ عام ١٩٤٥

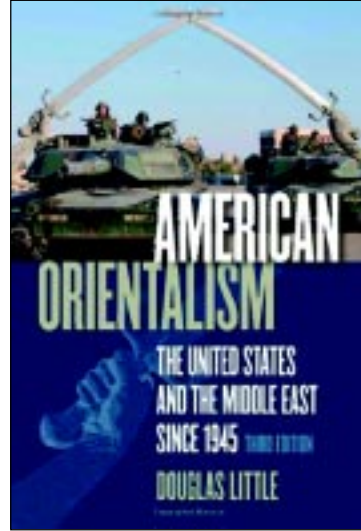
بالثورة المصرية وقائدها عبد الناصر ودعوته للمقومية العربية وحق تقرير المصير ومساعدته في تحرير كثير من الدول المحتلة. وكان من المحتم محاولة جذبها بالإغراءات، لكنه تأبى ومن ثم كان لابد من ملاحقته حتى يتم التخلص منه، وفي الوقت ذاته فقد تحول عبد الناصر إلى كابوس لأنه لا يمثل نفسه فقط من وجهة النظر الأمريكية بل يمثل بوابة ضخمة يمكن أن ينفذ من خلالها الاتحاد السوفيتي إلى المنطقة العربية، وعندئذ تتعذر تماما مهمة احتواء الشرق الأوسط بل سقوطه خارج حسابات أمريكا مضافا إلى حسابات الشيوعية الدولية ويصبح الخطر خطرين.

وعندما أعلن الشقيري إنشاء «جيش فلسطين» عام ١٩٦٤ أيقن الدبلوماسيون الأمريكيون أن ذلك لم يكن يعني أكثر من أن عبد الناصر سيصدر شارات جديدة للواء فلسطيني موجود في سيناء ليلوح بفكرة الجهاد العربي لاستعادة الأرض المغتصبة، وسرعان ما شعرت الإدارة الأمريكية بالانزعاج لأن الرئيس المصري أعلن في خطاب له أن الجيش الفلسطيني سوف يتلقى أعلى التدريبات والأسلحة كي يحرر أرضه، وظلت الأمور تبدو للأمريكيين على أنها مجرد شعارات وخطب للاستهلاك المحلي حتى قام ناصر باصطحاب عرفات معه إلى موسكو وتقديمه للقادة السوفييت بوصفه قائد الجيش الفلسطيني الذي يتعين دعمه من أجل تحرير بلده، وتزايد الشعور لدى الأمريكيين بخطورة ما يحدث.

يقول دوجلاس: وبينما كانت نذر الحرب تلوح في الأفق، كانت واشنطن تنحو باللائمة على العرب بسبب تعنتهم الذي جعل التسوية مستحيلة، وبعد زيارة قام بها هارولاند سوندرز خبير الشرق الأوسط بالبيت الأبيض للمنطقة قال: لا توجد أي بادرة تدل على أن الفلسطينيين روضوا أنفسهم على فقدان بيوتهم التي تركوها في إسرائيل، وبعد أن عاشوا قرابة العقدين في بيوت الصفيح والخيام القذرة أصبح كرههم للصهيونية بلا حدود، وكرر سوندرز ما سبق أن صرح به: «حاول ألا تقع في خطأ الاعتقاد أن الزمن كفيل بحل مشكلة اللاجئين، وذكر رؤساءه في ١٦ مايو ١٩٦٧ بأن جماعة فتح الإرهابية ترسل مخربيها إلى إسرائيل وتختارهم من بين الأكثر مرارة وحقدًا من هؤلاء اللاجئين».

ويقول دوجلاس ليتل في كتابه وهو أحد هؤلاء المستشرقين الذين لم يستطيعوا برغم الدرس العلمي أن يتخلصوا تماما من الرؤية الأمريكية الاستعمارية: كان من الخطأ أن تعتقد فتح ومن معها أن هناك أملا في استعادة وطنهم المفقود عن طريق القتال.

أسرع الأمريكيان يصممون الخطط لاقتناص الديك الرومي كما كانوا يسمون الرئيس المصري وقد أمكن ذلك في عام



American Orientalism: The United States and the Middle East since 1945
Douglas Little
The University of North Carolina Press
2008

على أنها بلاد الاستبداد الشرقي والفساد الاقتصادي والحقاقة الفكرية.

على أن أمريكا وهى بنت أوروبا النجبية التى رضعت الفكر الاستعماري من أساتذته وأنضجته على نار الطموحات غير المحدودة التى غذتها القوة الاقتصادية والعسكرية رأت أن من حق الإمبراطورية الأمريكية الجديدة التى يعيش العالم عصرها أن تضع يدها على كل الدنيا، وقد أدركت مع بداية القرن العشرين أن العرب ليسوا بالساذجة التى تصورها مارك توين وغيره، لأنهم كما يثيرون الدهشة يمكن أن يثيروا الرعب وهم لذلك يمثلون العائق الحقيقى ضد إحكام قبضتها على العالم. لم يتوقف الأمريكيون عن تأمل الكيان والشخصية العربية وسرعان ما عثروا على المفتاح / المدخل وهو البترول، وكان قد سبقهم الإنجليز إلى بترول إيران.. تقدم الأمريكان من بترول السعودية وثبتوا جيدا أعمدتهم، ولما اندلعت الحرب الثانية وانتهت بعلو كعبها وطول ذراعها وضعت خططها العملية لإخراج الاستعمار البريطاني والفرنسي من المنطقة ووضعها تحت حمايتها تمهيدا لابتلاعها، وما إن أعلن اليهود دولتهم حتى أسرع أمريكا باعترافها بالدولة الجديدة، فقد أيقنت من سنوات بأن إسرائيل يمكنها أن تكون عاملا مهما في السيطرة على هذا الحوت مترامى الأطراف.

ويقدر ابتهاج قادة أمريكا بهذا القرش الصغير الذى يمكن أن يلكز الحوت في جنبه كلما دعت الحاجة فقد فوجئت



الاستشراق الأمريكي
دوجلاس ليتل
ترجمة: طلعت الشايب
المركز القومي للترجمة بالقاهرة الترجمة - القاهرة

توين الذى جاء فى كتابه «السذج خارج الوطن» ١٨٦٩:

«أن ترى قافلة من الجمال تحمل طيب الجزيرة العربية ومنسوجات فارس النادرة تتهاذى عبر مجازات السوق الضيقة.. فذلك أحد تجليات الشرق الأصيلة. الصورة لا ينقصها أى شيء فهى تعيدك على الفور إلى طفولتك المنسية لتعيش مرة أخرى أحلام ألف ليلة، ومرة أخرى يكون الأمراء رفاقك، وأميرك «هارون الرشيد» وخدمك مرده وجان، يأتون وسط الدخان والرعد والبرق ويختفون كما تختفى العاصفة».

لكن الأمر بالنسبة للأمريكيين لم يمتز على هذا النحو إلى ما لنهاية، فقد أصبحوا يستشعرون أن الشرق الأوسط يمثل هاجسا مقلقا لهم، والشرق الأوسط عندهم ومنذ البداية ليس الدول العربية وحدها بل هو الممتد من المغرب حتى أفغانستان مرورًا بتركيا وإيران وبالطبع بعد ذلك إسرائيل، وكان من السهل على مفكرهم السياسيين اعتبار المنطقة برمتها إسلامية، وهكذا يشير الشرق الأوسط في العادة إلى الإسلام وخاصة لو تركز الحديث على الإرهاب. ومن المؤسف حقا أن يترسخ في العقلية والثقافة الشعبية الأمريكية أن الإسلام هو تلك العقيدة البربرية الشريرة التى حملها النبي محمد من الصحراء العربية إلى الشمال الأفريقي لتضع شعوب الأرض المقهورة أمام خيار التحول إلى الإسلام أو الموت. وانطبعت أيضا صورة البلاد العربية

■ الاستشراق مصطلح أنهكه الدارسون تعريفا وتحديدا وتحليلا، وأشهرهم بالطبع المفكر العربى الكبير إدوارد سعيد، ورغم ذلك فالمصطلح لا يخرج فى غالب صورته عن فكرة انشغال الغرب بشئون الشرق، وكان فى معظم الحالات صفة لفرء أو مؤسسة يعنى أو تعنى بدراس أحوال متباينة لبلد أو بلاد شرقية، أما الاستشراق الذى يؤرق كل صفحات هذا الكتاب فهو يركز على جانب كبير من فكر دولة هى الكبرى فى العالم دون شك، تتابع بكل زعمائها وساستها ومفكرها وموظفيها بمنتهى الدقة والاهتمام عبر آليات غير محددة كل ما يجرى فى الشرق الأوسط حتى ليعرفون ما لا يعرفه أهله أنفسهم عنه، ودافعهم دائما كان ولا يزال هو الاستحواذ والسيطرة وليس فقط من أجل مجرد المعرفة، وهو ذاته الهم الكولونيالى- مع فروق قليلة - الذى أرق الغربيين منذ عصر النهضة.

وقد صدرت مؤخرا عن المركز القومى للترجمة بالقاهرة الترجمة العربية لكتاب «الاستشراق الأمريكى» للمؤرخ دوجلاس ليتل المتخصص فى تاريخ الدبلوماسية الأمريكية والمحاضر فى علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، والمعروف باهتمامه الخاص بالإسلام الراديكالى، وقد قام بالترجمة مترجم بارز هو المصرى طلعت الشايب الذى قدم للمكتبة العربية أكثر من ثلاثين كتابا مترجمة عن الإنجليزية، من أهمها «صدام الحضارات» و«الحرب الباردة الثقافية». فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى. «الفنون والآداب تحت ضغط العولمة». «غياب السلام». غير عدد كبير من الإبداعات الأدبية.

توفرت لدوجلاس ليتل أستاذ التاريخ بجامعة كلارك تلال من المعلومات حول العلاقات الملتبسة أحيانا والساخرة على الأشواك والقنابل أحيانا أخرى بين أمريكا والعرب فى كتابه «الاستشراق الأمريكى» الذى يتجاوز عدد صفحاته سبعمائة صفحة، وعبر فصوله التسعة، وقد بدا مرتكزا فى تحليله للابسات هذه العلاقات على الأحداث وأقوال الزعماء ورصده الدقيق لمجريات المصالح، وشتى تجليات الحراك الدولى خاصة منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، وإن لم يمنعه هذا الإطار الزمنى القصير من تأصيل بعض المقولات والخلفيات والمنطلقات التى أفضت إلى مواقف ذات أثر فاعل فى مسار العلاقات وحرارتها، بردها إلى أسبابها ومنابعها التاريخية.

لا بد أن «ألف ليلة وليلة» هى التى أشاعت لدى الأوروبيين صورة ذهنية للشرق الأوسط الغارق فى السحر والملاذات واللهو والسذاجة والصناعات التقليدية المدهشة والطقوس والعادات الغريبة، وعبرت تلك الملامح المحيط الأطلنطى إلى أمريكا عبر سطور العديد من الرحالة، لعل من أبرزهم الكاتب الأمريكى الشهير مارك

فؤاد قنديل

١٩٦٧، إذ لم ينهزم عبد الناصر فقط في الحرب ولكنه رحل أيضا عام ١٩٧٠، وتنفس الأمريكيون الصعداء وتجدد الأمل في معاودة العمل من أجل الاستيلاء على هذه المنطقة المستعصية، ليأتي من بعده من ينتهج نهجا مضادا تماما لاتجاه سلفه، ويعلن بوضوح استعداده لتوطيد العلاقات مع أمريكا وأن يطور في سياساته لتتسق مع الرأسمالية الغربية وينهى كل ما له علاقة بالرومانسية الثورية والقومية العربية.

لم تمر سنوات قليلة على التخلص من الثوري المصري وعودة مصر إلى الحظيرة الأمريكية حتى استولى زعيم الثورة الإسلامية الإمام الخميني على سدة الحكم في إيران عام ١٩٧٩ وطرد الشاه، وبدأ الأفق ملتهبا وملتهبا على نحو من الأنحاء، لكن القادة الأمريكيين انشغلوا بتأمل التجربة وعندما أوشكوا على استكمال التصور الفعلي لما تم، ظهر الاتحاد السوفيتي في أفغانستان مفتشا عن البترول بقواته العسكرية.

قال جيمي كارتر بعبارة حاسمة لم تتردد على لسانه كثيرا:

«المنطقة التي تهددها القوات السوفيتية الآن في أفغانستان ذات أهمية إستراتيجية، فهي تحتوي على أكثر من ثلثي النفط المصدر للعالم، فليكن موقفنا واضحا تماما إذ إن أي محاولة من أي قوة أجنبية للسيطرة على الخليج الفارسي سوف تعتبر اعتداء على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية، وسوف يتم التصدي لهذا الاعتداء بكل الوسائل الممكنة بما في ذلك القوة العسكرية».

لم تحارب أمريكا مباشرة لإخراج السوفييت من أفغانستان، لأنها في العادة تدفع بغيرها ليقوم بمبادرات مفتوحة ومتعددة المجالات، لتعطى نفسها فرصة تأمل الخريطة وحالة الأطراف ذات الصلة وفي الوقت ذاته تتواصل جهود رجالها لبحث الخيارات المتعددة لوقف الاعتداءات بأقل خسائر ممكنة، وقد أعزت بذلك لكثير من المجاهدين العرب الذين عرف عنهم مقتهم المتعاضم للشيوعية، وتكفى لإطلاق شرارة اللهب في مساحات حماسهم الشاسعة أن تتم الإشارة عبر وسائل الإعلام أو قنوات دبلوماسية متأخرة أو غير معنية تماما إلى نية الشيوعيين في الاستيلاء على بلد إسلامي، وهذا ما حدث طوال الثمانينيات حيث تنادى المجاهدون العرب والمسلمون من الأقطار العربية المختلفة، واندفعوا إلى أفغانستان وقاتلوا بشراسة نادرة جحافل الجيش السوفيتي حتى اندحر. وكان طبيعيا أن تتسع الابتسامة على وجه تمثال الحرية وتمتد من نيويورك حتى واشنطن.

لكن الابتسامة سرعان ما تبدلت بحالة من التوجس، واستيقظ العرب والعالم صباح الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠ على حدث صادم مزق الأمة العربية

بلا رحمة، إذ اقتحم صدام الكويت في سلوك همجي أحقق لا مبرر له وغير مسبوق وتمادى فهدد بالاستيلاء على ما جاورها، وليس أهم من أفغانستان إلا الخليج، لذلك أسرعت القوات الأمريكية مدعومة بقوات بعض الدول لإخراج المعتدى وتكسير عظمه إذا أمكن حتى لا يكرر التجربة التعسة .

على أن الإدارة الأمريكية في فترة حكم الرئيس كلينتون كانت تتابع ما يجري في العراق وترصد بدقة الوضع السياسي والعسكري، كما كانت تنصت جيدا للأحوال في السودان، وأقدمت القوات الأمريكية على توجيه ضربة عسكرية محدودة للجماهيرية الليبية بحجة أنها وراء ارتكاب عدد من حوادث اختطاف الطائرات، وسعت لاستصدار قرار من الأمم المتحدة بتوقيع عقوبات على ليبيا وفرض حصار على حركة الطيران منها وإليها، وهكذا ظلت العلاقات الملتبسة تتواصل هنا وهناك وتزداد خيوط كرة الصوف تشابكا وتعقيدا دون أن تلمس الجماهير العربية بادرة أمل في حل مشكلة الشرق الأوسط الأولى وهي احتلال إسرائيل لفلسطين، واستمرار التربص الأمريكي بدول عديدة في المنطقة بصورة دعت لأن يتشكل الكثير من المتابعين في النوايا الأمريكية التي لم تختلف مطلقا رغم تغير الرؤساء .

وبعد سنوات قليلة ضربت طائرتان برجي مركز التجارة العالمي الشهير بمدينة نيويورك، وأسرع الإعلام الأمريكي يتهم العرب، وتعالى الأصوات التي لا ترى في الإسلام غير أنه عقيدة إرهابية، والعرب ليسوا إلا سفاحين وقتلة.. ومن ثم عادت إلى فضاء الشرق الأوسط كرة البنج بونج الملتبسة التي كان حتما أن تتقاذفها كل الأطراف في المنطقة، وتصور الأمريكيون في عهد بوش الابن أن الأمور لن تكون تحت السيطرة إلا بعمل عنيف سرعان ما تجلى في احتلال أفغانستان والعراق.

هذا بالفعل كتاب مهم، ولا تكمن أهميته في عرضه تفاصيل العلاقات الأمريكية الشرق أوسطية، أو الأمريكية الإسلامية على وجه التحديد، ولكن لأنه يكشف الكثير مما جرى في الكواليس السياسية من مخاوف أحيانا وشكوك، وما كان يحدث في رؤوس الأمريكيين بشكل شبه دائم من أفكار ونوايا وصراعات وترتيبات إزاء هذه المنطقة المرغوبة والمغمومة في آن، وربما لا تزال كذلك برغم حراك جزرها نحو البحار الأمريكية، ولابد من الاعتراف الذي لا يقره مؤلف الكتاب بأن العلاقات الأمريكية الإسلامية كانت وستظل هي التي يمكن أن تكون راسخة وقوية لأسباب كثيرة أعمق مما يتصور البعض لولا الدعم الأمريكي لإسرائيل، وعدم استعدادها للاستغناء عنها لأنها ترى أن مصالحها مع العرب ليست كافية لإقامة علاقة مأمونة ولابد من إبقاء هذه القنبلة على باب المنطقة. ■

عندما يتحدث أردوجان

(٢)

«مرة أخرى نعلن بشدة هذا الهجوم الذي استهدف السفن التي كانت تقل ركابا كلهم من المدنيين من نساء وأطفال ورجال دين وغيرهم كافة أشكال اللعن».

إن الهجوم الذي قامت به إسرائيل على السفن التي كانت تحمل المساعدات الإنسانية إلى غزة والمجزرة التي ارتكبتها قد استحقا كافة أشكال اللعن.

إن هذا الهجوم هو هجوم سافر على القانون الدولي وعلى الضمير الإنساني وعلى السلام العالمي.

أقول الضمير الإنساني لأن السفن كانت تقل ركابا من كل الجنسيات والأديان ينقلون فقط مساعدات إنسانية إلى غزة المحاصرة والمقاطعة.

كانت السفن قد أعلنت إلى العالم كله قبل مغادرتها عن حملتها ونيتها.

و كان ٦٠ صحفيا من تركيا والعالم قد استقلوا كشهود على الحدث متن سفن الأسطول الذي يحمل مساعدات إنسانية فقط. إن هذا العدوان الذي حصل على السفن الست وركابها الستمائة الذين كانوا ينقلون المساعدات إلى الناس المظلومين والمحتاجين، إلى الفلسطينيين الذين هدمت منازلهم والمتروكين لرحمة الجوع هو عدوان صارخ على الفلسفة التي قامت عليها الأمم المتحدة.

لقد انطلقت السفن من تركيا ومن الدول الأخرى ناقلة المساعدات الإنسانية فقط، وقد فتشت من قبل السلطات المختصة وفق القواعد الدولية للملاحة والسفر.

في نفس الوقت لم يكن على متن السفن هذه من الركاب سوى المدنيين ومتطوعي الإغاثة. تم رفع العلم الأبيض على صواري السفن.

ورغم توافر كل هذه الشروط فلقد تعرضت السفن للهجوم المسلح.

يجب أن لا تنهز إسرائيل التي عرقلت المجتمع الدولي من الوصول إلى الأخبار منذ اللحظة الأولى للحدث من تأمين المعلومات الصحيحة للرأي العام العالمي والتعاون مع المجتمع الدولي.

مرة أخرى وبهذه المناسبة نقول: يجب على إسرائيل أن ترفع فورا الحصار اللانساني على غزة. يجب أن لا تكون عائقا يمنع وصول المساعدات الإنسانية المرسلة إلى الشعب الفلسطيني إلى هدفها.

هل اسمى هناك؟

أكبر سجل "سرى جدا" فى التاريخ

جيمس بامفورد
James Bamford

فى المراقبة الداخلية بدون إذن قضائى فى سياق «الحرب على الإرهاب»، وحرره ذلك التشريع إلى حد كبير أيضا من محكمة مراقبة الاستخبارات الأجنبية العقيمة. وفى خطوة أخرى ذات مغزى، عين مؤخرا كرئيس لقيادة خاصة فى وزارة الدفاع الأمريكية لمقاومة الانتهاكات التى تتم لشبكة الإنترنت، مما يجعله فى موقع المسئولية عن قوة متنامية من محاربى العالم الافتراضى.

ولم تضع الوكالة وقتا، وشرعت فى تحقيق طفرة بنائية ومضاعفة حجم مقرها الرئيسى وتوسيع نطاق مواقع التنصت التابعة لها، كما شيدت معامل ضخمة لتخزين البيانات. جاءت إحدى الأفكار التى تشير إلى أن الغرض المحتمل هو إنشاء مراكز ضخمة على قدر كبير من السرية من المقر الرئيسى للاتصالات الحكومية التابع للمخابرات البريطانية الشريكة. وفى العام الماضى اقترحت الحكومة البريطانية إنشاء قاعدة بيانات مركزية ضخمة تديرها الحكومة لاحتواء كل التفاصيل الخاصة بالمكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني والبحث فى شبكة الإنترنت فى المملكة المتحدة.. حيث يتم إيداع أى نقرة على مفتاح «أرسل» أو الضغط على مفتاح «الرد» وأى من تفاصيل الاتصالات فى المستودع الإلكتروني - وربما لأجل غير معلوم - فى المخزن الحكومى لإخضاعها للفحص والتحليل.

لكن عندما كشفت حكومة المملكة المتحدة عن خططها تلك، واجهت احتجاجات فورية ومعارضة ضخمة من الجمهور والصحافة، الأمر الذى حدا بها إلى تفكيك المشروع الذى أطلق عليه «قاعدة بيانات الأخ الأكبر». لكنها طرحت خطة جديدة. وبدلاً من إنشاء قاعدة بيانات ضخمة ومركزية، سيطلب من شركات الاتصالات ومقدمى خدمة

فى هذه المكتبات اللانهائية تقريباً، سيجرى تحليلها بواسطة أدوات معلوماتية قوية، وحاسبات آلية عملاقة تستخدم برامج حسابية معقدة لتحديد من منا يمكن أن يكون إرهابياً أو يحتمل أن يكون كذلك يوماً ما. وفى عالم مراقبة كل جسيم نشط الذى يعمل بطريقة آلية تلقائية لوكالة الأمن القومى الأمريكى، فإن كل مقدار ضئيل له تاريخ وكل ضغطة على لوحة المفاتيح تكشف عن قصة.. على مدى عشر سنوات تقريباً منذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر، تعرضت منظومة المخابرات الأمريكية^(١) لتغيير مزلل، فقد أطاح بمدير وكالة المخابرات المركزية من قمة الهيكل التنظيمى وحل محله مدير وكالة الأمن القومى الأمريكى الجديد، وهو ضابط مخابرات يساعد عدد كبير من العاملين ولكن لا شئ أكثر من ذلك. ولم ينج مدير وكالة الأمن القومى من الزلزال وحسب وإنما أصبح أقوى رئيس لوكالة تجسس عرفه العالم. وأصبح مسئولاً عن منظمة يبلغ حجمها ثلاثة أمثال وكالة المخابرات المركزية. ومنحه الكونجرس الأمريكى تفويضاً غير مسبوق فى عام ٢٠٠٨ للمراقبة والتنصت على الأمريكيين على الرغم من الانتقادات العامة لإدارة بوش لاستخدامها للوكالة

والمفكرات والبيانات الشخصية» الرقمية. ونظراً لعدم وجود مساحة وطاقة كافيتين فى مقر وكالة الأمن القومى فى فورت ميد بولاية ماريلاند والذى تعادل مساحته مساحة مدينة، كانت الوكالة تعمل أيضاً لاستكمال العمل فى بناء أرشيف آخر للبيانات فى سان انتونيو بولاية تكساس سيكون تقريباً فى مساحة منشأة ألامو دوم.

ويعطى التقرير الذى أعدته مؤسسة ميسر أحد مراكز التفكير التابعة للبناتجون فكرة عن حجم المعلومات التى سيتم تخزينها فى محافل تكنولوجيا المعلومات الهائلة التى تبني بلا نوافذ. ويقول التقرير مشيراً إلى مجموعة مختلفة من الأساليب الفنية لجمع البيانات مع التحسن الذى طرأ على أجهزة الاستشعار (المجسات) المرتبطة بمهام الاستطلاع المختلفة يتزايد حجم المعلومات وهناك احتمالية أن يصل حجم هذه البيانات، بحلول عام ٢٠١٥، إلى مستوى يوتا بايت^(٢) بما يقارب سبتيليون (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) الذى يحوى عدداً من صفحات النصية والرقمية التى يتجاوز حجمها اليوتابايت ولم يتم ابتكار مسمى عددى لها حتى يومنا هذا. وبمجرد تفريغ تلك البيانات وتخزينها

■ فى الطرف النائى للصحراء القاحلة الجافة فى ولاية يوتا الأمريكية، حيث درجة الحرارة كثيراً ما تتخطى المائة، ثمة عمال بناء بقبعات صلبة، يستعدون فى سرية تامة لبناء ما قد يصبح المعادل الأمريكى لمكتبة بابل التى ابتكرها المؤلف الأرجنتى خورخى لويس بورخيس؛ مكان يضم كمّاً من المعلومات مخيفاً وهائلاً فى آن واحد، تختزن فيه معرفة العالم بأسره، لكن دون أن يفهم أحد أى كلمة منها. البناء الهائل، الذى يمتد على مساحة مليون متر مربع وتبلغ تكلفته مليارى دولار، سيكون حجمه أكبر من الكونجرس الأمريكى بما يزيد على الثلث، ويستهلك قدراً من الطاقة يعادل مجموع ما تستهلكه جميع المنازل فى مدينة سولت ليك سیتی مجتمعة.

وخلافاً لما أورده بورخيس فى عمله «متاهة من الحروف» فإن المكتبة سوف تتوقع عدداً قليلاً من الزوار. وقد شيد ذلك البناء من قبل مؤسسة تتمتع بدرجة عالية من السرية هى وكالة الأمن القومى الأمريكى. وهى المسئول الأول عن «إشارات المخابرات» وكذلك جمع وتحليل أشكال مختلفة من الاتصالات - التى قد تتخطى تريليونات المكالمات الهاتفية، ورسائل البريد الإلكتروني، البيانات المنتشرة، وعمليات البحث على الشبكة المعلوماتية وإيصالات ساحات انتظار السيارات، وعدد زائرى مكتبات بيع الكتب،

هذا مكان يضم
كم من المعلومات مخيف
وهائل فى آن واحد، تختزن فيه معرفة العالم
بأسره، لكن دون أن يفهم
أحد أى كلمة منها

The Secret Sentry: The Untold History of the National Security Agency
by Matthew M. Aid
Bloomsbury, 423 pp., \$30.00

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: بيسان عدوان



أفشى رونالد بيلتون مرة أخرى الأسرار الأمريكية. ومنذ ذلك الحين، أصبح يروج لصانعي الشفريات ليس فقط فيما يتعلق بالشفريات الروسية رفيعة المستوى، ولكن أيضا في بلدان رئيسة أخرى مثل الصين وكوريا الشمالية.

ومن جهة أخرى، أحرزت وكالة الأمن القومي الأمريكي تقدما ملحوظاً ضد البلدان الأقل تقدماً في صناعة الشفريات، الأمر الذي أكسبها رؤية ثاقبة في فهم نوايا وخطط تلك البلاد التي تثير قلقاً أكبر لدى الولايات المتحدة. وهكذا، فعندما ناقش دبلوماسي صيني في الأمم المتحدة مشروعا جديدا في أفريقيا مع نظيره السوداني، كان المنتصتون في وكالة الأمن القومي الأمريكي مصابين بالصمم فيما يبدو بما يتعلق بشبكات الاتصالات الصينية ولكنهم ربما تمكنوا من الحصول على المعلومات نفسها باستغلال نقاط الضعف في نظم الاتصالات والتشفير السودانية عندما أرسل الدبلوماسي السوداني تقريراً عن الاجتماع إلى الخرطوم - وإن يكن - حتى في العالم الثالث يمكن أن يحتاج نظام الشفرة المستخدم إلى جهود شاقة لاختراقه.

كتب إيد أنه خلال الحرب الأمريكية على فيتنام، لم تتمكن وكالة الأمن القومي الأمريكي قط من اختراق أنظمة التشفير رفيعة المستوى لكل من فيتنام الشمالية أو الفيتكونج. وكانت هذه مفاجأة دفعته إلى استنتاج أن «كل شيء كنا نعتقد أننا نعرفه عن دور وكالة الأمن القومي الأمريكي في الحرب الفيتنامية في حاجة إلى إعادة النظر». ونظراً لأن الكتاب مرتب ترتيباً زمنياً، كان من الصعب إلى حد ما تفكيك شفرة السجل الكامل للوكالة. ولكن يمكن رؤية اتجاهات مثيرة للقلق، منها نقاط الضعف المتكررة. فعلى ما يبدو فإن الوكالة التي أنشئت

السري الأمريكي حتى وصل إلى ٧٥٠٠ رجل وامرأة..

وعلى الرغم من تسريح أعداد كبيرة، تفوق العدد الصغير من خبراء فك الشفريات الأمريكيين والبريطانيين على «العدو الجديد»، والذي بات معروفاً أنه روسيا. فقد استطاع المجهود الأمريكي البريطاني المشترك من فك آلاف الرسائل من الجيش والبحرية الروسيين المشفرة في الفترة من منتصف الأربعينيات حتى نهايته. ولكن الحفل انتهى في ٢٩ أكتوبر ١٩٤٨ عندما كان الرئيس الأمريكي الأسبق ترومان على وشك أن يلقي خطاب حملة في نيويورك. فيما عرف داخل العالم السري بيوم «الجمعة الأسود»، قلبت الحكومة والجيش الروسيان الأمور رأساً على عقب، وانتقلا على الفور إلى نظم تشفير جديدة وغير قابلة للتفكيك وتم استبدال الإشارات اللاسلكية التي يسهل اختراقها إلى الكابلات المدفونة تحت الأرض.

وفي الحرب بين الجواسيس والآلات، تكون الغلبة للجواسيس. فقد نجح السوفييت في تجنيد ويليام ويسباند، وهو خبير في اللغة الروسية عمره ٤٠ عاماً يعمل مع الجيش الأمريكي، الذي قدم للروس معلومات أساسية عن نقاط الضعف في نظام الشفرة الأمريكي والتي جرى استغلالها بنجاح. وكانت ضربة لم يشف منها قط خبراء فك الشفريات. ووصف مؤرخو وكالة الأمن القومي الأمريكي تلك الضربة بأنها «قد تكون إحدى الخسائر الأكثر فداحة التي منيت بها المخابرات في تاريخ الولايات المتحدة».

عندما أحرزت واشنطن بعض المكاسب المتواضعة في اختراق النظام الروسي في السبعينيات، كرر التاريخ نفسه وتعرض الأمريكيون لضربة أخرى، وفي هذه المرة

بالسجن وأدين بارتكاب سلوك مشين وأعطى من الخدمة لانتحاله صفة ضابط والاستيلاء على وثائق مختومة بخاتم سري للغاية لوكالة الأمن القومي. ويفضل حالياً الحصول على أسرار وكالة الأمن القومي بطريقة قانونية من خلال الأرشفة (الوطنى) القومي، وكانت ثمرة ذلك كتابه «الحارس السري: تاريخ وكالة الأمن القومي الأمريكي المسكوت عنه»، وهو سرد للتاريخ متقل بالهوامش من خلال تقارير للوكالة رفعت عنها السرية ولكن جرى تنقيحها بعناية، والتي كانت تتقاطر ببطء خارج الوكالة على مر الأعوام. وكانت هذه التقارير أكثر غنى بالمعلومات في فترة الحرب العالمية الثانية ولكن سرعان ما اضمحل مضمونها أثناء الحرب الباردة.

وبدا إيد دراسته قبيل بيرل هاربر حيث كان العملاء السريون الأمريكيون مقبلين على مسرح للعمليات صغير ونصف فارغ، ووصل عددهم عندما وضعت الحرب أوزارها إلى ٣٧ ألف ضابط ما بين عسكري ومدنى، الأمر الذي يتطلب وضعهم في منشأة مساحتها تعادل مساحة ملعب لكرة القدم. وبحلول يوم ١٤ أغسطس ١٩٤٥، وبينما لم يجف بعد الحبر الذي كتبت به وثائق استسلام اليابان، لم يكن اللغويون وخبراء فك الشفريات الأمريكيون الذين يديرون ٣٧ مركزاً للتنصت حول العالم تمكنوا من قراءة ما يزيد على ثلاثمائة من الأكواد الدبلوماسية وأنظمة شفرية تخص ٦٠ دولة.

ويشير إيد إلى أن «إمبراطورية إشارات المخابرات الأمريكية في قمة سلطتها ومكانتها». ولكن خلال أيام، وضع اللغويون والمحللون أقلامهم المشحودة بدقة جانباً وانتزع خبراء التنصت سماعات الأذن. وبحلول نهاية ديسمبر ١٩٤٥، تقلص حجم عالم العمل

الإنترنت الاحتفاظ بسجلات بكل التفاصيل المتعلقة بالمحادثات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني وعادات تصفح مواقع الإنترنت الخاصة بكل فرد في بريطانيا لمدة عام. وأثار ذلك سخط الشعب مرة أخرى بجانب رفض مجموعة لندن لمعاملات الإنترنت التي تضم أكثر من ٣٣٠ شركة للاتصالات السلكية واللاسلكية وفي بيان للمجموعة في أغسطس الماضى أشارت إلى «نرى أن... حجم البيانات التي تقترح الحكومة الآن (علينا) جمعها والاحتفاظ بها ستكون غير مسبوقة، وكذلك المستوى الكلى للتدخل في خصوصية المواطنين»^(٣).

وخلافاً للحكومة البريطانية التي سمحت بإقامة بنك للمعلومات، وهو أمر جدير بقدر كبير من الثناء، حظيت وكالة الأمن القومي الأمريكية بالتعاون كامل من شركات الاتصالات الأمريكية وبأقصى قدر من السرية بعد هجمات الحادى عشر من سبتمبر. فعلى سبيل المثال، فقد قامت الوكالة ببناء غرف سرية في مراكز المحولات الكبرى لشركة (إيه تى أند تى) (AT&T)^(٤) حيث جرى تحويل نسخ مطابقة لكل البيانات وعرضها بحثاً عن أسماء وكلمات دالة باستخدام أجهزة الكمبيوتر ثم إرسالها إلى وكالة الأمن القومي لتحليلها. وهكذا فمن المحتمل أن تصبح هذه المراكز في يوتا وتكساس - ربما في أماكن أخرى - مخازن مركزية لبيانات التي تجمعها وكالة الأمن القومي الأمريكي في النسخة الأمريكية لمشروع «قاعدة بيانات الأخ الأكبر» البريطاني.

وتعقب ماثيو م. إيد أسرار وكالة الأمن القومي الأمريكي لفترة طويلة جداً. وعندما كان رقيباً متخصصاً في اللغة الروسية بفرع القوات الجوية التابع لوكالة الأمن القومي، ألقى القبض عليه وأدانته محكمة عسكرية، وحكم عليه



يتمدد على مساحة مليون متر مربع، وتبلغ تكلفته مليارى دولار، وحجمه أكبر بكثير من الكونجرس



فى أعقاب الحرب العالمية الثانية لمنع أى هجوم آخر مباغت، كانت هى نفسها معرضة لكثير من الهجمات المباغتة والتهديدات الخطيرة. ففى الخمسينيات، عندما تدفق أكثر من ١٠٠ ألف جندي من كوريا الشمالية مدججين بالسلاح عبر خط عرض ٣٨ متوغلين فى كوريا الجنوبية، كان محللو الشفرات من بين آخر من علموا بالهجوم.

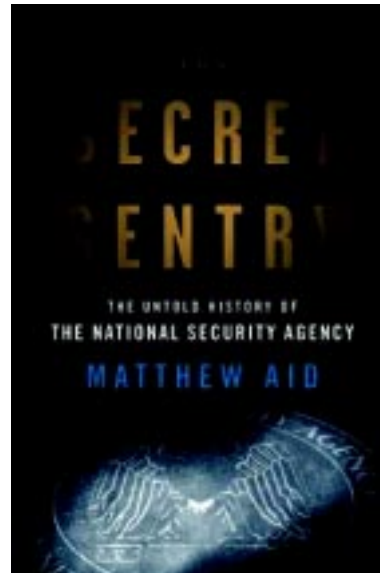
وجاء فى تقرير لوكالة الأمن القومى الأمريكى رفعت عنه السرية وأورده إيد فى كتابه «لم يجر الالتفات إلى غرض كوريا الشمالية». وصرح ضابط مخابرات «ضاعت كوريا الشمالية فى خلط الأوراق، ولم يقل لنا أحد إنهم لم يكونوا مهتمين بما يجرى شمال خط العرض ٣٨». ومما يثير الدهشة فى ذلك الوقت، أنه لم يكن لدى وكالة الأمن التابعة للقوات المسلحة، وهى الوكالة السابقة على وكالة الأمن القومى الأمريكى، قاموس للغة الكورية. ولسوء حظ الجنرال دوجلاس ماك آرثر، فإن محللى الشفرات كانوا قادرين على فك وتحليل الاتصالات الدائرة بين السفير الأسباني فى طوكيو ودبلوماسيين آخرين، ولاحظوا أنهم خلال مناقشاتهم مع الجنرال أماغاوا اللثام عن تطلعه سرا إلى حرب شاملة مع الصين وروسيا، وقد تستخدم فيها أسلحة نووية إذا لزم الأمر. فمن النادر أن تلعب المعلومات السرية التى تحصل عليها وكالة الأمن القومى وتقاريرها دورا هاما فى السياسة الأمريكية، وبمجرد عرض تلك الرسائل على الرئيس ترومان، انتهى مستقبل آرثر على نحو مفاجئ.

كانت إحدى المفاجآت الكبيرة فى الستينيات عندما استطاع الاتحاد السوفيتى نقل أعداد كبيرة من الأفراد وكميات كبيرة من العتاد، والصواريخ الباليستية إلى كوبا دون أن تنتبه وكالة الأمن القومى. حيث لم تكن قادرة آنذاك على فك رموز التشفير السوفيتية ذات المستوى الرفيع، ولم تعلم الوكالة أنه تم حشد فرقة الصواريخ الحادية والخمسين وتم إنزالها فى كوبا. كما لم تكتشف الوكالة نقل خمسة أفواج أخرى كاملة من الصواريخ متوسطة المدى من قواعدها فى روسيا إلى كوبا. ولم يكن لديها أى معلومات بأن الصواريخ الباليستية الروسية فى الأراضى الكوبية يجرى تركيبها فى قاذفات للصواريخ. ويشير مؤرخ فى وكالة الأمن القومى إلى أن «أمن الاتصالات السوفيتية كان متقنا بشكل كامل تقريبا».

ولاحث أولى المؤشرات بأن ثمة أمرا غير عادى يحدث، فى منتصف يوليو ١٩٦٢، حيث ازداد عدد سفن الشحن والركاب الروسية المتجهة إلى كوبا. ودفع تحليل بيانات الشحنات غير السرية المحللين فى وكالة الأمن القومى الأمريكى إلى الاشتباه فى أن السفن كانت تنقل أسلحة، ولكن لم يكتشف أنها كانت تنقل صواريخ باليستية مزودة برعوس حربية نووية إلا فى منتصف تشرين الأول/أكتوبر، أى بعد شهر من وصولها. وكانت وكالة المخابرات الأمريكية، بناء على معلومات من مصادرها فى كوبا وفلوريدا، هى التى أمرت بإرسال طائرات الاستطلاع يو - ٢ التى التقطت صورا فوتوغرافية لها فى مواقع إطلاقها على الجزيرة.

وخلص إيد إلى أن «الكارثة فى الحقيقة هى أى شيء عدا أن يعد ذلك نجاحا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية». وهذا ما رآته الوكالة -أيضا- فى أحد التقارير الداخلية التى تؤرخ للوكالة بصراحة. حيث ذكرت أن الأحداث المتلاحقة «أشارت إلى الفشل الأكثر وضوحا فى تحليل إشارات المخابرات التى من شأنها تحذير القادة منذ الحرب العالمية الثانية».

ومؤخرا جدا، لم تكن وكالة الأمن القومى الأمريكى على دراية بالتفجير النووى الوشيك الذى أجرته الهند فى عام ١٩٩٨، والهجوم على مركز التجارة العالمى فى عام ١٩٩٣، أو تعرض السفارتين الأمريكيتين فى أفريقيا للهجوم فى العام نفسه، وكذلك الهجوم على المدمرة «كول» فى اليمن عام ٢٠٠٠. وتنبئنا كل تلك الأحداث بأن شراء جهاز تلفاز ب ٣٠٠ دولار



لمتابعة قناة ال«سى إن إن» خيرا من بلايين الدولارات التى تنفق دون جدوى على الأقمار الاصطناعية للتنصت ومراقبة تنظيم القاعدة.

كان تجاهل الإشارات الصحيحة نموذجاً آخر فى تقصير وكالة الأمن القومى وفشلها، فخلال الحرب الكورية، التقطت الرابطة الأمريكية للخدمات الخارجية إشارات تشير إلى أن الصينيين يقومون بشحن الآلاف من الجنود والأسلحة إلى منشوريا عن طريق السكك الحديدية. ولكن المسئولين فى الاستخبارات العسكرية قد رفضوا تصديق تلك المعلومات التى تشير بوضوح إلى استعداد بكين للحرب - لأنها - ببساطة - لم تكن تتوافق مع خططهم!

كما أن الرسائل الدبلوماسية بين السفير الهندى فى الصين ووزارة الخارجية الهندية أكدت أنه فى حالة اجتياز قوات الأمم المتحدة لخط عرض ٣٨ من كوريا الشمالية، فإن الصين ستعلن الحرب عليها. ويرى إيد أنه -للمرة الثانية- «تم تجاهل تلك المعلومات أو إهمالها فى واشنطن». ورغم قيام الصين بعبور نهر يالو باتجاه كوريا الشمالية ظل الذهول وعدم التصديق مسيطرين على واشنطن وسول حتى تفاجأوا بهجوم القوات الصينية على كوريا الجنوبية وقوات الأمم المتحدة.

الأمر نفسه تكرر فى فيتنام، حيث حذر أحد التقارير التى صدرت فى ٢٥ كانون الثانى/يناير ١٩٦٨ بأن هجوماً وشيكاً على مناطق مختلفة فى جنوب فيتنام من قبل قوى عظمى، ولكن لم يصدق البيت الأبيض ولا وكالة المخابرات الأمريكية، وكذلك الجنرال وليام ويستمورلاند قائد الجيش الأمريكى آنذاك حتى تفاجأوا بهجوم ١٠٠ ألف مقاتل من الفيتناميين والفيتكونج بعد خمسة أيام من التحذير.

لم تتمكن وكالة الأمن القومى الأمريكى من استبعاد تلك الواقعة من مخيلتها، كما لم تتمكن من محو المأسى التى خلفتها الحرب، وأوردها إيد فى كتابه، تلك التى تحكى تخلى الوكالة عن عملائها الفيتناميين فى نهاية الحرب. وفى تقريرها بهذا الشأن كتب «أنهم بلا شك قد قتلوا» مشيرة بأنها «لم تعرف بعد قصة هؤلاء العملاء».

وفى السياق نفسه، حذرت وكالة الأمن القومى من استعداد مصر وسوريا وتخطيطهما لشن هجوم ضار ضد إسرائيل عام ١٩٧٣، ووفقا للوثائق

الرسمية ذكر إيد «رفضت وكالة المخابرات الأمريكية تصديق ذلك - بحجة أن العرب ليسوا أغبياء للحد الذى يجعلهم يقدمون على ذلك- لكن بالفعل قد هاجموا وانتصروا».

فى بداية الغزو السوفيتى على أفغانستان ذهبت الأمور إلى ما تنبأت به وكالة الأمن القومى بأن الاتحاد السوفيتى على وشك القيام بغزو أفغانستان قبيل أيام من عبور أول فوج سوفيتى للحدود فى ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩ وقد كان. ويذكر إيد أن «من المحتمل أن يكون الغزو السوفيتى على أفغانستان أكثر العلامات بروزاً فى تاريخ وكالة الأمن القومى الأمريكى».

أعادت إدارة الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريغان وقائع سقوط طائرة الركاب الكورية رحلة رقم ٧٠٠ فى عام ١٩٨٣، بحيث تبدو أن الطيار الروسى كان على علم بهويتها، ورغم أن وكالة الأمن القومى الأمريكى كانت على دراية بأن الروس كانوا ينوون استهداف الطيران العسكرى الأمريكى، وما جرى كان خطأ غير مقصود. وبهذا الشأن ذكر إيد فى كتابه أن «تعامل البيت الأبيض مع التقارير الواردة من وكالة الأمن كان انتقائياً، ذلك من أكثر الأمور التى تؤخذ على إدارة ريغان».

لم تمثل تلك النماذج إزعاجاً بالقدر الذى مثلته حادثة تدمير الأسطولين الأمريكيتين فى شمال فيتنام، حيث استخدمت الواقعة مبرراً للتصعيد الأمريكى فى الحرب الفيتنامية عام ١٩٦٤. إن أكثر الأمور المزعجة -حقاً- فى تاريخ الوكالة هو زجها بالولايات المتحدة فى العديد من الحروب، بسبب عجزها عن أداء مهامها الوظيفية، إما بجهلها بالإشارات المخبرية وعدم مقدرتها على فك الشفرات بطريقة صحيحة، أو تجاهلها أو بالأحرى إهمالها للإشارات، كما باستخدامها الانتقائى للمعلومات. فقد ذكرت التقارير السرية أن الأسطولين تعرضا لهجومين من قبل الطوربيدات الفيتنامية أثناء قيامهما بمهام استطلاعية لصالح وكالة الأمن.

من خلال الوثائق التى أعيد فتحها لاستكمال التحقيقات فى عام ٢٠٠٠، تبين أن الهجوم الثانى على هاتين المدمرتين لم يحدث مطلقاً، واستشهد إيد بالوثائق نفسها قائلاً «إن المسئولين فى الوكالة آنذاك قد استبدلوا عمداً ٩٠٪ من الوقائع والمعلومات ليسمعوا البيت الأبيض -فحسب- ما أراد سماعه، والذى يدعم تلك المزاعم التى أشارت إلى أن



كل المعلومات هنا، حتى بيانات الاتصالات الانتظار في ساحات السيارات



الشيوعيين هم من قاموا بالهجوم على المدمرتين، وهذا ما تم إبلاغه للمسؤولين.

كما في فيتنام، أبلغت وكالة الأمن القومي الأمريكي للبيت الأبيض ما أراد سماعه عن العراق، فرغم غموض البراهين والمعلومات عن حقيقة امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، كان عمل وكالة الأمن خلال تغطيتها كارثياً بكل المقاييس. ففى أواخر عام ١٩٩٠ بدأت بغداد استخدام نظام الألياف البصرية للاتصالات العسكرية بدلاً من نظام اللاسلكى (الراديو)، فى الوقت نفسه الذى حظر صدام حسين استخدام الهواتف المحمولة مما أبقى مستوى الاتصالات منخفضاً للغاية. وطبقاً لتقارير لاحقة، كتب إيد «لم تتمكن الوكالة من الحصول على أى رسائل أو إشارات استخباراتية يستدل بها على ما كانت تراه واشنطن هدفاً مرجوا وذريعة للحرب على العراق، وعلى العكس تماماً، فإن الإشارات الواردة من المناطق المحيطة استبعدت امتلاكها لأى من أسلحة الدمار الشامل»، وذكر أحد المسؤولين بالوكالة قائلاً «بحثنا طويلاً وبشدة، فلم نجد حتى مدخنة تشير إلى أن حسين يحاول بناء مفاعل نووى أو أى شيء آخر». ورغم ذلك، لم يمنع ذلك الجنرال مايكل ف هايدن مدير وكالة الأمن القومي الأمريكى آنذاك من الإشارة بالموافقة على التقارير التخمينية بشأن الخطر العراقى وهو ما مهد الطريق للحرب التدميرية فى ٢٠٠٣.

فيما حاول إيد الإلمام بكافة الوقائع والمعلومات فى الحرب الأمريكية على العراق وأفغانستان، فإن أكثر الأجزاء المستترة كان فى التزاوج بين قدرات وكالة الأمن القومي الأمريكى الاستراتيجية ذات التقنيات العالية وقدراتها الفعلية المرحلية. فقبل الحادى عشر من سبتمبر لم يكن عمل وكالة الأمن القومي الأمريكى فى أفغانستان أفضل حالاً منه فى العراق. ولم يكن لديها خبير لغوى واحد يجيد اللغة الباشتية والدارية، ورغم ترشح العديد من الأفغان المقيمين فى فيرمونت بولاية كاليفورنيا للعمل كمتترجمين فى وكالة الأمن القومي لكن الهواجس الأمنية حالت دون ذلك. كما لم تستغل الوكالة نظام الاتصالات اللاسلكية المعمول به لدى حركة طالبان الذى يسهل اختراقه عبر الأقمار الاصطناعية للتجسس عليها. كانت الحرب فى أفغانستان نوعاً

جديداً لم يتم الاستعداد لها، وأوضح إيد أنه بالرغم من تعاون العملاء فى أفغانستان مع وحدات القوات الخاصة الأمريكية المتواجدة فى جبال تورا بورا، استطاع كل من أسامة بن لادن والملا عمر زعيم حركة طالبان - بسهولة - النفاذ إلى الشبكات الإلكترونية دون أن تتمكن الوكالة من القبض عليهم، وعلى مدار ثماني سنوات ورغم بلايين الدولارات التى أنفقت على تسجيل رسائل بن لادن الصوتية التى كان يبثها، فإن الوكالة لم تكن على مقربة من الإمساك بهما كما كانت فى تورا بورا عام ٢٠٠١.

ومما يدعو للإحباط، أن أضعف قسم فى الكتاب، هو ذلك القسم الذى يحوى أجزاء مختصرة عن التنصت والمراقبة على المجتمع الأمريكى الداخلى بعد ١١ سبتمبر. فلم يرفق إيد أى مناقشات أو مشتبّه بهم لقاعدة البيانات العملاقة التى تبنى فى ولاية يوتا بولاية تكساس، أو إلى أى مدى اقترن قانون مراقبة الاستخبارات الخارجية مع مشروع قانون التنصت والمراقبة الداخلية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ما يدعونا للتساؤل حقاً، فإذا كانت وكالة الأمن القومي الأمريكى لديها القدرة على النفاذ واستخدام البيانات والمعلومات فى المستودعات الرقمية للشركة الأمريكية للاتصال^(١) فى سان فرانسيسكو، وأن تتفحص كل البريد الإلكتروني - والتنصت على كل المكالمات الهاتفية بإذن قضائى أو بدونه، فما حاجتها لبناء مشروع ضخّم مركزى لقاعدة البيانات ذات تكلفة فائقة، وفقاً لتقرير وزارة العدل الذى صدر حديثاً فى ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨، فإن جداول المراقبة للقوائم الإرهابية احتوت على أكثر من ١,١ مليون شخص معروف أو مشتبّه بهم^(٢).

فى الوقت الحالى، أصبح التاريخ الذى كتبه إيد أكثر قرباً من الحقيقة، كما تقلصت المستندات الأرشيفية الناقصة، خاصة أنه لم يكن أول شخص يجرى جوانب أخرى هامة فى تاريخ وكالة الأمن القومي دون معالجة بما فى ذلك السنوات المضطربة من التجسس غير القانونى فى منتصف السبعينيات والذى تم التحقيق بها من قبل مجلس الشيوخ. وعلى مدار عقد كامل، فشلت الوكالة باعتبارها رائداً فى التحديث رغم الأهمية المتزايدة للمنافسة الإلكترونية أو لصراع الشبكات الإلكترونية وتطبيقاتها فيما يعرف باسم الحروب الافتراضية المستقبلية.

ما يطرح علينا تساؤلاً آخر، إلى أن يقودنا ذلك، خلص إيد إلى أن أكبر مشكلة تواجه الوكالة ليس فى خطط التحديث المضطربة التى تستدعى إصلاح الكثير من المشكلات المستعصية التى تعد «غيبس من فيض»، ويرى أنه بدلاً من الاستغراق فى خطة تحديث والشروع فى تنفيذها على الوكالة فى بادئ الأمر تحديد أغلب احتياجاتها الفعلية كتحديث محطات الكهرباء لتوليد الطاقة اللازمة لها وإصلاح شبكات الاتصالات بدلاً من سن قوانين وتشريعات تزيد من سلطتها.

يعد النقص الحاد فى الطاقة الكهربائية واحدة من أكثر المشاكل الملحة التى تواجه وكالة الأمن القومي الأمريكى، فيذكر إيد «أن مقدار ما تستهلكه الوكالة من كهرباء يقدر بحوالى ٧٠ مليون دولار سنوياً لمقرها فقط، فما مقدار ما تحتاجه لقاعدة البيانات الرقمية العملاقة التى تبنيها فى ولاية يوتا». مشيراً إلى رفض الكونجرس الأمريكى لطلباتها بشأن زيادة التمويل الحكومى.

إنه لأمر محرج للغاية فى أن تكون الطاقة الكهربائية مرادفاً للسلطة السياسية لدى وكالة الأمن القومي الأمريكى، فالعملة المعمول بها فى أعلى مراتب العالم السرى هى الكيلووات. ولضمان فاعلية أعلى لمراكز البيانات يستوجب ذلك مزيداً من الطاقة الكهربائية الأمر الذى يولد الحاجة المستمرة لمزيد من الرقابة الإلكترونية على المكالمات الهاتفية والبريد الإلكتروني. والعكس، فمن أجل الحصول على مزيد من البيانات يستدعى ذلك تدفق مزيد من التقارير الأمر الذى يعنى مزيداً من السلطة السياسية لوكالة الأمن القومي الأمريكى.

ويقترح إيد سائلاً قطع التيار الكهربائى أو سحب أحد مكونات القابس الكهربائى عن وكالة الأمن القومي الأمريكى بدلاً من استجداؤها لتمويل حاجتها من الطاقة الكهربائية. وعلى مدار عقود لم تتمكن الوكالة من الاستفادة مما حصلت عليه من مزايا وتمويلات، مقتبسا تصريحاً لهربرت ليفن أحد مسؤولى وزارة الخارجية السابق «سواء أنفقت الوكالة الملايين أو لا، يظل سؤال يدور بخلدنا ماذا يمكن أن تفعله؟».

استناداً إلى تاريخ وكالة الأمن القومي فإن كثيراً ما ترتكب الأخطاء فجأة أو عمداً لتوريط البلاد فى الحروب

التي تعد تكلفة الخروج منها أمراً كارثياً. وخير مثال على ذلك هى هجمات ١١ سبتمبر، حيث قامت وكالة الأمن القومي الأمريكى بالتنصت على اثنين من مدبرى الاعتداءات لمدة عام ونصف العام دون أن تقوم بدورها فى القبض عليهما، بجانب درايتها بأنهم أرسلوا من قبل بن لادن ويقومون بالإعداد للهجمات، كما أنهم اختاروا مركزاً للقيادة ببنديق لوريل بولاية ميرلاند، ورغم ذلك لم تسع الوكالة للحصول على مذكرة قضائية لتحديد مواقعهم أو التنصت عليهم، أو أن تبلغ وكالة الاستخبارات الأمريكية أو مكتب التحقيقات الفيدرالية بوجودهم. على ما يبدو أن يتم سحب التيار الكهربائى أو السماح باستخدام الأضواء الخافتة ليس وارداً نظراً لسياسات الرئيس أوباما المتشددة حيال أفغانستان، ومع ذلك، فى حال قيام حرب يمكن التنبؤ بها - لن يجد الرئيس أوباما وقتها حلاً إلا أن يقترب أكثر من النفق المعتم للعالم السرى الأكثر فخامة، ومن المحتمل أن يلتقى أولئك بمكتبة بابل وهم فى حالة عصبية، وكما قال أحدهم إنها «رحلة عظيمة طالما هى مستمرة».

(1) The MITRE Corporation, "Data i Analysis Challenges" (December 2008), p١٣

(٢) يوجد خمسة عشر جهازاً استخباراتياً فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى مجموعة مترابطة من الوكالات والمنظمات التابعة للسلطة التنفيذية والتى تعمل معاً أو كل على حده، ستبقى على حالها، أى كما تم إنشاؤها بموجب قانون الأمن القومي للعام ١٩٤٧ للقيام بالنشاطات الاستخباراتية (المترجم).

(3) David Leppard, "Internet Firms Resist Ministers' Plan to Spy on Every E-mail," The Sunday Times, August 2, 2009.

(٤) إحدى أكبر شركات الاتصالات فى الولايات المتحدة مقرها الرئيسى فى دالاس بولاية تكساس يديرها راندال ل. ستيفنسون مدير مجلس الإدارة (المترجم).

(٥) ويذكر أن نحو ٤٠ دعوى قضائية رفعت فعليا ضد عدد من شركات الاتصالات الأمريكية بسبب اشتراكها مع الإدارة فى التجسس على الأمريكيين دون وجود إذن قضائى مسبق، من بينها AT&T, Verizon and Sprint Nextel Corp، وتتهم هذه الشركات بانتهاك حرية الأمريكيين فى ظل برنامج التجسس السرى الذى أقرته إدارة بوش منذ عام ٢٠٠٢ (المترجم).

(6) The Federal Bureau of Investigation's Terrorist Watchlist Nomination Practices," US Department of Justice, Office of the Inspector General, Audit Division, Audit Report 09-25, May 2009.

كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!

لبنى الريدى

Paul Krugman



■ ■ إن كتاب «عودة اقتصاديات الكساد وأزمة ٢٠٠٨» لعالم الاقتصاد بول كروجمان، الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد لعام ٢٠٠٨، لا يتناول ماذا حدث بقدر ما يتناول لماذا حدث، فهو يؤكد أن الأهم فيما يجب فهمه هو كيف أصبحت هذه الكارثة ممكنة؟

إذا كنت ممن يؤمنون بأن الأسواق عادة ما تتدبر أمرها لكي يتوازن العرض مع الطلب، فإن الركود يكون أمرا غريبا حقا. ويكون السؤال المنطقي هو لماذا تعاني إذن اقتصاديات السوق من فترات ركود؟ ففي أثناء الركود الاقتصادى يبدو العرض موجودا في كل مكان ولا يوجد طلب في أى مكان. ويكون هناك عمال مستعدون للعمل لكن لا توجد وظائف كافية، ومصانع جيدة تماما غير أنه لا توجد طلبات كافية، ومحلات مفتوحة لكن لا يوجد زبائن. إن المشكلة ليست في القدرة على الإنتاج، لكنها ببساطة في النقص في الطلب الفعلى. لكن كيف يمكن أن يكون هناك طلب ضئيل جدا على السلع بشكل عام؟ أليس على الناس أن ينفقوا نقودهم على شيء ما؟ وهنا يبرز سؤالان حاسمان: كيف يمكن أن تحدث حالات الركود؟ وكيف التعامل معها؟

لكن قبل الإجابة عن هذه الأسئلة يستعرض الكاتب الأزمات المتتالية التي عصفت باقتصاد أمريكا اللاتينية والدول الآسيوية خلال العقد الأخير من القرن العشرين. ويقول كروجمان إنه كتب الطبعة الأولى من هذا الكتاب كرد فعل على الأزمة الآسيوية. فبينما رأى البعض الأزمة كظاهرة آسيوية بشكل خاص، رآها كروجمان كنذير مثير للقلق بالنسبة لنا جميعا، وتحذير بأن مشكلات اقتصاديات الكساد لم تختف في العالم الحديث. ومن المحزن القول، إنه كان على حق في قلقه، حيث يتصارع حاليا أغلب العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة، مع أزمة مالية واقتصادية تحمل أوجه تشابه بالكساد الكبير أكبر حتى من الأزمة الآسيوية لعقد التسعينيات من القرن العشرين.

The Return of Depression
Economics and the Crisis of 2008
Paul Krugman
W. W. Norton & Company;
Reprint edition 2009
224 pages

لقد اعتقد الاقتصاديون أن جميع الأمور تحت السيطرة، وأن «المشكلة المركزية المتعلقة بالحيلولة دون حدوث الكساد قد جرى حلها». إن روبرت لوكاس الأستاذ في جامعة شيكاغو والحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد لعام ١٩٩٥ أكد «أن المشكلة المركزية الخاصة بالوقاية من الكساد قد حلت، وذلك لكل الأغراض العملية». لم يدع لوكاس أن الدورة الاقتصادية، أى التناوب غير المنتظم للكساد والازدهار الذى استمر لقرن ونصف على أقل تقدير، قد انتهت، لكنه ادعى أن الدورة قد روضت، لدرجة أن فوائد أى مزيد من الترويض تعد تافهة: إن التخلص من التذبذبات في النمو الاقتصادي لن يحقق، على حد قوله، سوى مكاسب تافهة بالنسبة للرفاهة العامة. لم يكن لوكاس الوحيد الذى ادعى أن الوقاية من الكساد أصبحت مشكلة محلولة. فبعد ذلك بعام، في عام ٢٠٠٤، ألقى بن برنانكى، الأستاذ السابق في جامعة برينستون ورئيس مجلس إدارة بنك الاحتياطي الفيدرالى حاليا، خطابا متفائلا بشكل لافت للنظر أكد فيه، كما فعل لوكاس تقريبا، أن سياسة الاقتصاد الجمعى الحديثة حلت مشكلة الدورة الاقتصادية، أو - بدقة أكبر - قللت المشكلة بحيث أصبحت شيئا مزعجا أكثر منها قضية ذات أولوية أولى.

تبدو هذه التصريحات المتفائلة معتدة بنفسها بشكل لا يصدق نظرا لحقيقة أن التسعينيات من القرن العشرين شهدت مشكلات اقتصادية تذكر بالكساد الكبير في عدد من البلدان. بما في ذلك اليابان، ثانى أكبر اقتصاد في العالم. لكن في السنوات الأولى من العقد الحالى، لم تكن المشكلات التي تحمل سمات الكساد قد ضربت الولايات المتحدة بعد.

ويعود بنا الكاتب إلى السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات من القرن العشرين، ليعيد بناقوس خطر تجاهله كل من السياسيين والاقتصاديين على حد سواء. ففي تلك الفترة بدا أن أمريكا اللاتينية قد تعلمت أخيرا درسها، حيث قامت بالإصلاح وبدأت تطبيق ما يسمى باتفاق واشنطن: أى خصخصة الشركات المملوكة للدولة، ورفع القيود على الواردات وتحرير التجارة، وتحرير الأسواق من اللوائح المنظمة، والسيطرة على عجز الموازنة. وأصبحت السيطرة على التضخم هى الأولوية. كما تم

كتاب بول كروجمان، الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد لعام ٢٠٠٨، لا يتناول ماذا حدث بقدر ما يتناول لماذا حدث



الأموال إلى أمريكا اللاتينية، خاصة المكسيك، لكن بعد ١٩٩٤، توجهت رؤوس الأموال إلى اقتصادات جنوب شرق آسيا. ومع تدفق القروض من الخارج على بلدان جنوب شرق آسيا، نتج توسع مكثف فى الائتمان، وهو ما مول موجة من الاستثمارات الجديدة. بعض هذه الأموال وجهت للبناء، مساكن ومكاتب، لكن الجزء الأكبر استخدم فى المضاربة الصرفة، فى مجال العقارات بشكل رئيسى، لكن فى الأسهم أيضا. فى بداية عام ١٩٩٦ بدأت اقتصادات جنوب شرق آسيا تشبه بدرجة كبيرة «اقتصاد الفقاعة» الذى عانت منه اليابان فى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين. حيث أدت زيادة الاستثمار، مع موجة الإنفاق المتزايد من قبل المستهلكين الجدد المؤسسين، إلى حدوث موجة من الواردات، أى زيادة الاستيراد، بينما دفع الازدهار الاقتصادى الأجور إلى الارتفاع مما جعل الصادرات أقل تنافسية. وكانت النتيجة هى عجز تجارى ضخيم. وبدلا من أن تغذى القروض الأجنبية النقود والائتمان المحلى، بدأت هذه القروض تخصص للواردات.

لقد ساعدت الضمانات الضمنية التى وفرتها الحكومات، عبر كل المنطقة، تلك الاستثمارات التى لولا هذه الضمانات لكانت محفوفة بمخاطر أكبر وواحدة بدرجة أقل، وهو ما زاد من حمى المضاربة. وعندما تآزمت أحوال عدد متزايد من الاستثمارات المعتمدة على المضاربة والتى مولت، مباشرة أو بشكل غير مباشر، بالقروض الأجنبية الرخيصة؛ أفلس بعض المضاربين، وخرجت بعض الشركات المالية من السوق. وأصبح المقرضون الأجانب غير راغبين فى إقراض أى أموال إضافية.

حتى ذلك الحين لم يكن هناك شئ غير عادى. إنها أزمة عملة تقليدية فى حالة نشاط وتفاقم تام، بما فى ذلك السمات المعتادة للأزمة، من استنزاف الاحتياطيات، وهجمات المضاربين على العملة الضعيفة. وبالتالي لم يتوقع الاقتصاديون حدوث كارثة، أو ركود مدمر. لكنهم كانوا على خطأ.

والسؤال الذى يطرح نفسه، لماذا انتشر الركود عبر آسيا على أثر تخفيض قيمة العملة التايوانية؟ وكيف أدى تخفيض عملة اقتصاد صغير إلى انهيار الاستثمار والإنتاج عبر منطقة شاسعة بهذا القدر؟

آخر: إن النجاح الظاهري لأى اقتصاد، وإعجاب الأسواق ووسائل الإعلام بمن يديرون هذا الاقتصاد، لا يمثل ضمانا لحصانته ضد أزمة مالية مفاجئة.

وبالتالى لم يكن أحد مهيا لظهور أزمة من النوع نفسه فى آسيا بعد ذلك بسنوات قليلة، ولا لعدم فعالية الإنقاذ على الطريقة المكسيكية عندما تقع الأزمة. ومن ثم كنا أقل استعدادا للأزمة العالمية التى انفجرت عام ٢٠٠٧.

ففى أواخر التسعينيات من القرن العشرين تعرضت مجموعة من الاقتصادات الآسيوية. وهى اقتصادات تنتج حوالى ربع إنتاج العالم ويعيش فيها ثلثا مليار نسمة. لركود اقتصادى حمل تشابها مخيفا مع الكساد الكبير. حيث اندفعت الأزمة فى سماء زرقاء صافية، وكان أغلب علماء الاقتصاد يتوقعون استمرار الازدهار الاقتصادى حتى مع تزايد زخم الركود؛ وكما فى الثلاثينيات من القرن العشرين أثبت العلاج الاقتصادى التقليدى عدم جدواه، بل كان فى بعض الأحيان معوقا.



إن الاضطراب الاقتصادى الذى تعرضت له آسيا، والذى نتعرض له جميعا الآن، هو تحديدا نوع الأمور التى اعتقدنا أننا تعلمنا تفاديها. كان هناك شبه إجماع أن شيئا مثل الكساد الكبير لن يتكرر أبدا. غير أن كل شئ انهار فى عام ٢٠٠٨. يرى الكاتب أنه كان علينا أن ندرك منذ عقد مضى أن ثقتنا لم تكن فى محلها، إذ تبدو قصة الأزمة الآسيوية كأنها مأخوذة مباشرة من التاريخ المالى لعقد الثلاثينيات من القرن العشرين، والتى اتضح أنها كانت نوعا من البروفة للأزمة العالمية المتنامية الآن..

فى السنوات الأولى من تسعينيات القرن الماضى كانت أسعار الفائدة فى البلدان المتقدمة منخفضة بشكل استثنائى لأن البنوك المركزية كانت تحاول إخراج اقتصادياتها من حالة ركود متوسط؛ ومن ثم ذهب العديد من المستثمرين إلى الخارج بحثا عن أرباح أعلى. فى عام ١٩٩٠ بلغت تدفقات رأس المال الخاص إلى البلدان النامية ٤٢ مليار دولار، وبحلول عام ١٩٩٧ تضاعفت هذه التدفقات خمسة أضعاف لتصل إلى ٢٥٦ مليار دولار. فى البداية، ذهب أغلب

المهمة تسوء فى المكسيك. ففى ديسمبر ١٩٩٤، قررت السلطات المكسيكية تخفيض قيمة عملتها البيزو لمواجهة الاستنزاف المستمر لاحتياطى المكسيك من العملة الأجنبية. وكانت النتيجة هروبا مكثفا لرؤوس الأموال، حيث اكتشف المستثمرون الأجانب أن المكسيك ليست الدرة التى تخيلوها، وأرادوا الخروج بأى ثمن. وسريعا ما انهارت قيمة البيزو إلى نصف قيمته قبل الأزمة. ومع تدهور قيمة العملة تضاعف حجم الديون الدولارية تضاعفا مذهلا. وانخفض الناتج المحلى الإجمالى الحقيقى خلال ١٩٩٥ بنسبة ٧٪، كما انخفض الإنتاج الصناعى بنسبة ١٥٪، وهو أسوأ بكثير من أى شئ مرت به الولايات المتحدة منذ كساد الثلاثينيات من القرن العشرين. لقد أفلس آلاف رجال الأعمال، وفقد آلاف العمال وظائفهم. وتحديدًا، لماذا كان للأزمة المالية مثل هذا التأثير المدمر على الاقتصاد الحقيقى؟ ولماذا لم تستطع الحكومة المكسيكية منع هذا الانهيار؟ هذا هو السؤال الرئيسى.

امتدت الأزمة إلى بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى، خاصة الأرجنتين. كيف أمكن أن تؤثر أزمة المكسيك على الاقتصاد الأرجنتينى بالرغم من أن المكسيك والأرجنتين يقعان عند الطرفين المتقابلين للقارة، ولا تربطهما سوى علاقات مالية أو تجارية قليلة؟ ربما لأن كل بلدان أمريكا اللاتينية بالنسبة للمستثمرين الأمريكيين متماثلة. لقد بدأت المشكلة بتقييد الإقراض والمطالبة بتسديد القروض، كرد فعل عصبى للأنباء الواردة من المكسيك. وبدأ المودعون يسحبون أرصدهم تحسبا للأسوأ، وهكذا بدأت الدائرة المفرغة لانهيار الائتمان والتزاحم على البنوك لاسترداد الودائع، كل ذلك انطلاقا من لعبة فقد الثقة بالسوق. ومع بداية ١٩٩٥، بدا أن التجارب الإصلاحية فى كل من المكسيك والأرجنتين قد انتهت بانهيار مؤد إلى كارثة.

وبعد بداية أزمة التكيلا بـ ١٤ عاما، يمر جزء كبير من العالم، بما فيه الولايات المتحدة، بأزمة مالية تشبه بشكل واضح أحداث ١٩٩٤. ١٩٩٥، مما يوضح أننا تعلمنا الدرس الخطأ من أمريكا اللاتينية.

كما يجب أن ندرك أيضا أن ما حدث للمكسيك يمكن أن يحدث فى أى مكان

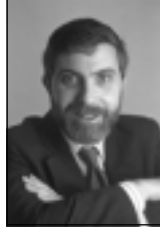
تحرير القواعد التى كانت تحكم ملكية الأجانب. وبحلول ١٩٩٣ كان رأس المال الأجنبى المستثمر فى المكسيك يزيد على ٣٠ مليار دولار. وبدأت وسائل الإعلام الدولية تتحدث عن أمريكا لاتينية «جديدة»، وبشكل خاص عن «المعجزة المكسيكية». وفى سبتمبر ١٩٩٤ نشر التقرير العالمى السنوى للتنافسية رسالة خاصة من بطل الساعة، الرئيس المكسيكى، كارلوس ساليناس.

وبعد ذلك بثلاثة أشهر، غاصت المكسيك فى أسوأ أزمة مالية مرت عليها حتى ذلك الوقت. وتسببت هذه الأزمة التى أطلق عليها اسم أزمة التكيلا فى واحدة من أسوأ حالات الركود التى ضربت بلدا واحدا منذ الثلاثينيات من القرن العشرين. وانتشرت انعكاسات الأزمة عبر أمريكا اللاتينية، مما كاد أن يسبب انهيارا للنظام البنكى الأرجنتينى. وكان لا بد من التعامل مع أزمة التكيلا على أنها إنذار، وتحذير بأن رأى الجيد للأسواق يمكن أن يكون متقلبا، وأن ذلك لا يعزل الاقتصاد فى المستقبل عن أزمة ثقة.

لكن تم تجاهل ذلك التحذير.

هل كانت هناك أية سحب فى أفق أمريكا اللاتينية مع نهاية عام ١٩٩٣؟ لقد كان المستثمرون يشعرون بالغبطة: كان يبدو لهم أن التوجه الجديد للقارة نحو السوق الحرة قد حولها إلى أرض الفرص. إلا أن نتيجة تطبيق اتفاق واشنطن كانت زيادة ضخمة للواردات على الصادرات؛ وبحلول عام ١٩٩٣ بلغ عجز المكسيك ٨٪ من الناتج المحلى الإجمالى وهو رقم نادرا ما تم رصده فى السابق. هل كان ذلك دليلا على وجود خلل ما؟ وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك سمة مقلقة لأداء المكسيك: مع كل الإصلاحات، وكل رأس المال المتدفق على البلاد، أين كان النمو؟ ففى الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٤، سنوات «المعجزة المكسيكية»، بلغ النمو الاقتصادى السنوى ٨,٢٪. وهو ما كان أقل بكثير عن مستوى ١٩٨١. أين كانت المعجزة. أين مردود كل تلك الإصلاحات، وكل ذلك الاستثمار الأجنبى؟ إنه لأمر محير أن تحقق تدفقات رأس المال الضخمة مثل تلك النتيجة الضئيلة. أين الخطأ؟ خلال عام ١٩٩٤، بدأت بعض الأمور

كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!



إذا كنت ممن يؤمنون بأن الأسواق عادة ما تتدبر أمرها لكى يتوازن العرض مع الطلب، فإن الركود يكون أمرا غريبا حقا



للسندوق، إن ذلك كان الشيء الأكثر ضررا وخطأ الذى يمكن أن يقوم به. وشاركه هذا الرأي عالم الاقتصاد الحائز على جائزة نوبل جوزيف ستيجلتز الذى يعتقد أن الصندوق ووزارة الخزانة الأمريكية قد أسهما فى تفاقم الأزمة الآسيوية.

الخلاصة أن قواعد النظام المالى الدولى لا تمنح على ما يبدو العديد من البلدان مخرجا.

ومن ناحية أخرى، يوضح الكتاب أن دور البنوك المركزية: الاحتياطي الفيدرالى الأمريكى، والبنك الأوروبى المركزى، وبنك اليابان... إلخ، هو الحفاظ على الاقتصاد فى حالة توازن بإضافة النقد أو طرحه تبعا لما يحتاجه الاقتصاد، وذلك عن طريق إدارة أسعار الفائدة، وتزويد البنوك عند الضرورة بالنقود السائلة. لقد استخدم الاحتياطي الفيدرالى هذه الأدوات بشكل مكثف منذ بداية الأزمة. وكانت هذه التحركات كفيلة، فى الأوقات العادية، بأن تجعل الائتمان أيسر بكثير، وذلك بخفض أسعار الفائدة عبر المنظومة كلها. الائتمان التجارى، وإقراض الشركات، وفوائد الرهن. تاريخيا، كان إقراض البنوك كافيا لتخفيف أى عجز فى السيولة فى النظام المالى، لكننا لا نعيش فى ظل أوقات طبيعية، وبالتالي لا تنطبق السوابق التاريخية. لقد فقد الاحتياطي الفيدرالى قدرته على أن يكون قوة قاطرة للاقتصاد. فأسعار الفائدة الائتمان قصير الأجل زادت عما كانت عليه قبل الأزمة رغم خفض الاحتياطي الفيدرالى لها أكثر من ٤٪، كما أن أسعار الفائدة التى تعد مهمة فى اتخاذ قرارات الإنفاق والاستثمار قد ارتفعت أو على الأقل فشلت فى أن تنخفض، على الرغم من محاولة الاحتياطي الفيدرالى دفعها نحو الهبوط.

لماذا أخفق بنك الاحتياطي الفيدرالى هذه المرة فى إخراج الاقتصاد من الأزمة؟ ففى عام ١٩٨٧، مثلا، انهار سوق الأسهم فى الولايات المتحدة. كان اليوم الأول من الانهيار شبيها باليوم الأول من انهيار عام ١٩٢٩. لكن الاحتياطي الفيدرالى ضح نقدا إلى النظام، ولم يتباطأ الاقتصاد الحقيقي، واستعادت البورصة عافيتها.

ماذا عن كل القروض التى قدمها الاحتياطي الفيدرالى للبنوك؟ على الأرجح أنها ساعدت، لكن ليس كما كان

العلاج الذى قدمته واشنطن، ويجب أنها لم تقدم شيئا.

إن صندوق النقد الدولى هو «مقرض الملاذ الأخير» بالنسبة للحكومات. ومنذ بداية الأزمة الآسيوية كان هناك العديد من الشكاوى من الدور الذى لعبه الصندوق. إذ يعتقد البعض أن الصندوق ووزارة الخزانة الأمريكية التى تملئ فى الواقع سياسات الصندوق قد تسببا فى الأزمة، أو أنهما أساءا إدارة الأزمة بشكل جعلها أسوأ مما كان يحتاج الأمر. هل هم على حق؟

يجيب الكاتب أن هناك أمرين فعلهما الصندوق بشكل خاطئ: أولا، عندما تم استدعاء الصندوق إلى تايلاند، واندونيسيا، وكوريا، سرعان ما طالب بتقشف مالى أى زيادة الضرائب وخفض الإنفاق من أجل تفادى حدوث عجز كبير فى الموازنة. لكن من الصعب فهم هذا الجزء من البرنامج، لأن فى آسيا لم يكن عجز الموازنة مشكلة كبيرة. وأدت محاولة تنفيذ هذا البرنامج إلى تفاقم الركود نظرا لخفض الطلب.

ثانيا، طالب الصندوق بإصلاحات «هيكلية» كشرط لمنح قروض للاقتصادات التى تعاني الأزمة. وإذا سألت مسئولى الصندوق فى ذلك الوقت عن الهدف من كل تلك المطالب، سيقولون إن ذلك كله جزء من عملية إعادة بناء ثقة السوق. لقد اتضح أن نظرية الصندوق كانت خاطئة.

أما بالنسبة لقضايا أسعار الفائدة وأسعار الصرف فقد طالب الصندوق الدول الآسيوية برفع أسعار الفائدة، إلى مستويات مرتفعة جدا، فى محاولة لإقناع المستثمرين بالاحتفاظ بأموالهم فى مكانها. وقال جيفرى ساش Jeffrey Sachs وهو من أشد المنتقدين

تتلخص فيما يلى: تقشف مالى، ورفع أسعار الفائدة إلى مستويات تأديبية، وخفض الإنفاق، وزيادة الضرائب. وهو النقيض تماما لما قامت به الولايات المتحدة فى مواجهة الأزمة المالية. كما أن هذه السياسات التى فرضتها واشنطن على العديد من البلدان التى تمر بأزمة هو النقيض تماما لكل الحلول الكينزية التى أسهمت فى الخروج من الكساد الكبير.

وتكررت الوصفة نفسها مع البرازيل بعد ذلك بعام. لقد تضمن برنامج الإنقاذ لبلد يمر بتباطؤ اقتصادى ولا يعانى من تضخم ما يلى: زيادة الضرائب، خفض الإنفاق الحكومى، والاستمرار فى أسعار فائدة شديدة الارتفاع. لقد رفعت البرازيل أسعار الفائدة بنسبة ٥٠٪ عندما بدأت الأزمة. وهى سياسة ضمنت أن تعاني البلاد من ركود بغض فى ١٩٩٩. كان البرنامج الخاص بالبرازيل متطرفا بشكل غريب: وهو كان بمثابة الصورة الكاريكاتيرية للسياسات التى طبقت فى آسيا فى العام السابق أى عام ١٩٩٨.

والسؤال هو: لماذا أيد هؤلاء الخبراء النابغون الذين يضعون السياسة فى واشنطن، سياسات فاسدة تماما بشأن اقتصادات الأسواق الناشئة؟ الإجابة المختصرة هى «الخوف من المضاربين» والحاجة المتصورة إلى كسب ثقة السوق بأى ثمن. فمن وجهة نظرهم يجب أن يكون الهدف الأسمى للسياسة تهدئة مخاوف السوق وكسب ثقتها، حتى وإن كان ذلك على حساب الاهتمامات الطبيعية للسياسة الاقتصادية. إن وصفة صندوق النقد الدولى وواشنطن: رفع أسعار الفائدة وخفض الإنفاق مع رفع قيمة العملة، هى وصفة تؤدى إلى الركود. وبالتالي يتساءل كروجرمان عن

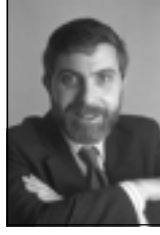
ولماذا لم تمنع الحكومات حدوث الكارثة، أو ربما لم تستطع؟

إن ما حدث حقا، كان حلقة من التغذية الاسترجاعية المدمرة: إن فقدان الثقة يغذى المشكلات المالية للشركات والبنوك والقطاع الأسرى، والتى بدورها يغذيها انخفاض قيمة العملة الوطنية وارتفاع أسعار الفائدة والركود الاقتصادى، وهو ما يغذى فقدان الثقة. إنها الدائرة المفرغة للأزمة المالية. إن ذلك ما حدث تقريبا فى كل الاقتصادات الآسيوية المتأثرة. إن فقدان الثقة يدفع المستثمرين سواء أجنبى أو محليين إلى سحب أموالهم من البلاد. ومن ناحية أخرى يؤدى رفع أسعار الفائدة وانخفاض قيمة العملة إلى خلق مشكلات لكل من المؤسسات المالية والشركات الأخرى. وكل ذلك يزيد من فقد الثقة مما يؤدى فى النهاية إلى الانهيار. وعلى الرغم من أن حلقة التغذية الاسترجاعية معروفة نظريا للجميع (من الثقة، إلى الأسواق المالية، إلى الاقتصاد الحقيقى، وعودة مجددا إلى الثقة)، لكن لم يدرك أحد عمليا قوة عملية التغذية تلك.

وكما حدث فى أمريكا اللاتينية، كانت الطريقة التى ترتبط بها الاقتصادات الآسيوية فى ذهن المستثمرين من أهم عوامل انتشار الأزمة. إن المعجزة الآسيوية فتحت شهية المستثمرين للمنطقة، ومن ثم عندما يتضح أن اقتصاد بلد ما ليس خارقا كما كان متوقعا، فإن ذلك يهز الثقة فى البلدان الأخرى فى المنطقة، بغض النظر عن الارتباط الفعلى بين هذه الاقتصادات. إذ يعتبر المستثمرون أن الاضطراب فى اقتصاد آسيوى إنما هو بمثابة أنباء سيئة عن اقتصاد البلدان الأخرى فى المنطقة.

لماذا عانت آسيا من أزمة اقتصادية رهيبية؟ ولماذا بدأت فى عام ١٩٩٧؟ كانت هناك عيوب حقيقية فى هذه الاقتصادات، لكن نقطة الضعف الرئيسية كانت عدم حصانتها أمام الهلع الذاتى التحقق. ويرجع عدم حصانة هذه الاقتصادات جزئيا إلى أنها فتحت أسواقها المالية، أى لأنها التزمت، فى الواقع، باقتصاديات السوق الحرة بشكل أفضل.

فعندما ضربت الأزمة البلدان الآسيوية وجدت هذه البلدان نفسها وقد فرض صندوق النقد الدولى ووزارة الخزانة الأمريكية عليها سياسات



السؤال المنطقي هو لماذا تعاني اقتصاديات السوق من فترات ركود يبدو فيها العرض موجود في كل مكان ولا يوجد طلب في أي مكان



متوقعا، وذلك لأن البنوك التقليدية ليست في قلب الأزمة.

يشير كروجمان إلى وجود فارق جوهري، ألا وهو وجود نظام بنكي مواز. كان من المفترض أن عصر أزمات البنوك قد انتهى منذ سبعين عاما، حيث إن البنوك محكومة بلوائح منظمة، ومؤمن على ودائعها، وتضمن الدولة ودائع المودعين. ذلك صحيح بالنسبة للبنوك التقليدية، لكنه غير صحيح بالنسبة لجزء كبير من النظام البنكي الموازي القائم فعلا.

لماذا يتجه المودعون والمقترضون إلى النظام البنكي الموازي بدلا من البنوك التقليدية؟ الإجابة هي، لأنه يمنحهم شروطا أفضل، حيث يدفع لهم أسعار فائدة أعلى مما يحصلون عليه من ودائعهم البنكية، بينما بالنسبة للإقراض فإنهم يحصلون على أسعار فائدة أقل مما تقدمه البنوك التقليدية بالنسبة للقروض طويلة الأجل. والسؤال كيف يستطيع النظام المصرفي الموازي أن يقوم بذلك؟ الإجابة تبدو واضحة: البنوك تحكمها لوائح منظمة صارمة؛ فهي مطالبة بالاحتفاظ باحتياطيات سائلة، وبرأس مال ضخم، فضلا عن تكلفة نظام تأمين الودائع. لكن البنوك الموازية تتجنب وتتجاهل هذه اللوائح المنظمة والتكلفة المصاحبة لها. غير أن ذلك يعني أيضا أنها لا تحظى بحماية شبكة الأمان البنكية. ومن ناحية أخرى، تعمل البنوك التقليدية، التي تأخذ الودائع وتكون جزءا من نظام الاحتياطي الفيدرالي، بشكل أو بآخر في ضوء الشمس، مع دفاتر مفتوحة وتحت رقابة فعالة. وعلى النقيض فإن المؤسسات البنكية الموازية أكثر غموضا.

في الواقع، قبل أن تعصف الأزمة، كان القليلون هم من يدركون إلى أي مدى أصبح النظام البنكي الموازي مهما. لقد أصبح هذا النظام ضخما جدا خاصة في أسواق النقد والاستدانة. حيث بلغ إجمالي الموازنات العامة لأهم خمسة بنوك استثمارية في هذا المجال أربعة تريليونات دولار، بينما إجمالي أصول النظام البنكي كله حوالي عشرة تريليونات دولار.

إن هذه المؤسسات ليست بنوكا من وجهة نظر اللوائح المنظمة، لكنها مع ذلك تؤدي الوظائف البنكية. إن حجم الأصول غير القابلة نسبيا للتحويل بسهولة إلى نقد والمحفوظة بالمخاطر على

المدى الطويل والتي تم تمويلها بديون قصيرة الأجل جعلت العديد من المؤسسات في هذا النظام المالي الموازي غير حصينة، حيث لا تحظى بأية حماية مثل التأمين على الإيداع المتوفر لدى النظام البنكي للتقليل من مثل هذه المخاطر. وبالفعل انهار العديد من مؤسسات النظام البنكي الموازي، ولعل أشهرها ليمان برازرز. والسؤال هو: لماذا سمح لهذا النظام أن يصبح غير حصين لهذه الدرجة؟ يرجع البعض السبب في الأزمة إلى غياب اللوائح المنظمة التي كانت موجودة في فترة سابقة، لكن الجزء الأكبر من الأزمة لا يتضمن مشكلات خاصة بالمؤسسات التي ألغيت فيها اللوائح المنظمة وعانت مخاطر جديدة؛ إنما يتضمن المخاطر التي قامت بها مؤسسات لم يتم أصلا وضع لوائح منظمة لها، أي النظام البنكي الموازي.

عندما توسع النظام المصرفي الموازي ليناكس أو حتى يفوق النظام المصرفي التقليدي من حيث الأهمية، كان على السياسيين والمسؤولين الحكوميين أن يدركوا أننا نخلق مجددا عدم حصانة مالية من النوع الذي جعل الكساد الكبير ممكنا؛ وكان عليهم، كرد فعل، أن يمدوا اللوائح المنظمة وشبكة الأمان لتغطي هذه المؤسسات الجديدة. وكان يجب المطالبة بقاعدة بسيطة: أي شيء يقوم بما تقوم به البنوك، وأي شيء يتعين إنقاذه في الأزمات بالطريقة التي يتم إنقاذ البنوك بها، يجب أن يخضع للوائح المنظمة التي يخضع لها البنك.

بالطبع كان هناك الكثيرون الذين يدركون إلى أي مدى يقترب النظام من الانهيار. لكن تم تجاهل هذا التحذير، ولم يكن هناك أي تحرك لفرض اللوائح المنظمة، على النقيض، كانت أيديولوجية

إدارة جورج بوش الابن ضد، وبعمق، فرض لوائح منظمة على القطاع المالي. بل لقد استخدمت إدارة بوش السلطة الفيدرالية لتجميد أية جهود على مستوى الولايات لفرض بعض المراقبة على عمليات الإقراض.

وبالتالي تم تجاهل الأخطار المتنامية لأزمة النظام المالي والاقتصاد ككل أو تم إنكارها. ووقعت الأزمة.. بدأت بالخسائر المرتبطة بقروض الإسكان والرهن، التي قوضت الثقة في النظام البنكي الموازي. فبمجرد أن يسحب المستثمرون في ترتيبات التمويل تلك، رءوس أموالهم من هذه الأسواق، أو يهددون بسحبها، يصبح النظام معرضا لدورة تحويل اضطراري للأصول إلى سيولة نقدية، وهي دورة تعزز نفسها ذاتيا، مما يزيد من تقلب الأسواق ويخفض الأسعار عبر أنواع متعددة من الأصول. وكرد فعل، يتم سحب التمويل تماما من بعض العملاء، أو زيادة متطلبات التأمين المالي. وأدى بيع الأصول في أسواق تعاني من أزمة، إلى تفاقم الوضع نظرا للقيمة المتواضعة للأصول. خاصة الأصول المرتبطة بالرهن. وانتشرت الأزمة عبر النظام. ويساعد ذلك على تفسير كيف تستطيع كمية صغيرة نسبيا من الأصول المحفوظة بالمخاطر أن تقوض ثقة المستثمرين والمشاركين الآخرين في السوق عبر مجال أوسع بكثير من الأصول والأسواق.

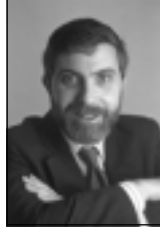
إن ذلك هو المنطق نفسه الذي أدى إلى الأزمة المالية في آسيا عامي ١٩٩٧ و١٩٩٨. في هذه الحالة حدثت الخسائر بسبب انهيار قيمة أصول مالية محفوفة بالمخاطر بدلا من انهيار قيمة العملة المحلية، كما في إندونيسيا والأرجنتين، إلا أن القصة هي أساسا نفسها.

ونتيجة لعملية التعزيز الذاتي تلك، حدث ضغط ضخم على البنوك مما سبب عجز النظام البنكي الموازي، مثل ما حدث للنظام البنكي التقليدي في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين. لقد اختفى، في الواقع، قطاع بنكي يوفر ما قيمته ٣٣٠ مليار دولار من الائتمان. عبر النشاط الاقتصادي كله، خسر بعض رجال الأعمال والأفراد إمكانية الوصول لأي ائتمان، بينما وجد آخرون أنفسهم يدفعون أسعار فائدة أعلى حتى بعد محاولة الاحتياطي الفيدرالي خفض أسعار الفائدة. في الواقع وجد الاحتياطي الفيدرالي نفسه يشرف على فخ سيولة، حيث فقدت السياسة المالية التقليدية أية قوة قطر للاقتصاد الحقيقي.

يعاني الاحتياطي الفيدرالي من أن تدخله يأتي دائما متأخرا. إن الأزمة المالية مستمرة في اتخاذ أبعاد جديدة، لم تتوقعها سوى قلة من الناس فقط، بما في ذلك خبراء الاحتياطي الفيدرالي. وهو ما يصل بنا إلى البعد الدولي للأزمة.

ويشير كروجمان إلى تحول آخر في شخصية النظام المالي، بالإضافة إلى نمو النظام البنكي الموازي، ألا وهو، بروز العولمة المالية. لقد حدث أغلب هذا التحول خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة، خاصة بعد الأزمة الآسيوية. حيث يملك المستثمرون في كل بلد حصصا كبيرة في البلدان الأخرى. ففي عام ١٩٩٦، عشية الأزمة الآسيوية، كانت الولايات المتحدة تملك أصولا فيما وراء البحار تساوي ٥٧ في المائة من الناتج المحلي الإجمالي، وديونا تساوي ٥٧ في المائة من الناتج المحلي الإجمالي. وبحلول ٢٠٠٧، ارتفعت هذه الأرقام إلى ١٢٨ في المائة و١٤٥ في المائة على التوالي. كان من المفترض أن يؤدي هذا التغيير إلى تقليل المخاطرة، لكن جزءا كبيرا من الزيادة في العولمة المالية، أتى في الواقع من استثمارات مؤسسات مالية ذات قوة وسلطة كبيرة، والتي تقوم بمختلف أنواع الرهانات عابرة الحدود التي تتسم بالمخاطرة. وعندما تسوء الأمور في الولايات المتحدة، تقوم هذه الاستثمارات عابرة الحدود بدور «آلية النقل»، مما يسمح لأزمة بدأت في الولايات المتحدة مع سوق الإسكان، أن تدفع دورات من الأزمات فيما وراء البحار. وبحلول خريف





يستعرض الكاتب الأزمات المتتالية التي عصفت باقتصاد أمريكا اللاتينية والدول الآسيوية خلال العقد الأخير من القرن العشرين



مجددا، فإن اقتصاديات الكساد أظهرت عودة مذهلة، وهي نوع المشكلات التي ميزت أغلب الاقتصاد العالمي في ثلاثينيات القرن العشرين لكنها لم تشاهد منذ ذلك الحين. منذ خمسة عشر عاما مضت كان من الصعب أن يفكر أحد في أن الأمم الحديثة قد تجبر على أن تعاني من فترات ركود ساحقة للعظام خوفا من المضاربين على العملة، وأن تجد هذه الأمم الرئيسية المتقدمة نفسها عاجزة بشكل مستمر عن إحداث إنفاق كاف للحفاظ على عمالها ومصانعها في حالة تشغيل. لقد ثبت في النهاية أن الاقتصاد العالمي مكان أكثر خطورة مما كنا نتصور.

كيف أصبح العالم خطرا لهذا الحد؟ الأكثر أهمية، كيف نخرج من الأزمة الحالية، وما الذي نستطيع في المقام الأول أن نفعله لتفادي حدوث مثل هذه الأزمات؟ لقد رويت العديد من الحكايات في هذا الكتاب؛ وحين الوقت الآن لكي أحاول استنتاج بعض المغزى.

ما هي اقتصاديات الكساد؟

ما معنى أن نقول أن اقتصاديات الكساد قد عادت؟ يعني ذلك أساسا أنه لأول مرة خلال جيلين، أصبح قصور جانب الطلب في الاقتصاد. الإنفاق الخاص، غير كاف للاستفادة من القدرة الإنتاجية المتاحة. هو القيد الواضح والحالي على الرخاء الاقتصادي بالنسبة لجزء كبير من العالم.

نحن لم نكن مستعدين لذلك. ولا أعني بصيغة الجمع الاقتصاديين فقط لكن صناع السياسة أيضا والجمهور المثقف بصورة عامة. إن مجموعة الأفكار السخيفة الخاصة باقتصاديات جانب العرض تمثل نظرية غير مستقرة وعرضة للانقلاب، وكان من المفترض ألا يكون لها تأثير لولا أنها تناشد وتروق لتحيز وهوى رؤساء التحرير والأثرياء. لكن على امتداد العقود القليلة الماضية كانت هناك نزعة مطردة في التفكير الاقتصادي تعزز جانب العرض وتبتعد عن جانب الطلب.

ونتجت هذه النزعة جزئيا عن نزاعات نظرية داخل علم الاقتصاد، نزاعات تمت تصفيتها. كما في أغلب الأحيان. عبر شكل ما من الغريزة، إلى

مجددا للقطاع الخاص بعد عملية الإنقاذ المالية الكبيرة التي قامت بها في السنوات الأولى من تسعينيات القرن العشرين. ويؤكد كروجمان: إن الأمر المهم حاليا هو تخفيف القيود على الائتمان بكل الطرق المتاحة، دون أن يتم عرقلة ذلك بعقد أيديولوجية. لا يمكن أن يكون هناك أسوأ من التقيصير في القيام بما هو ضروري بسبب الخوف من أن يكون العمل على إنقاذ النظام المالي «اشتراكيا» بطريقة ما. ويؤكد أن ما يتعين علينا عمله هو إعادة تعلم الدروس التي لقننا الكساد الكبير لأجدادنا.

ويشير إلى نمو النظام البنكي الموازي، دون وجود أي توسع مقابل للوائح والقوانين المنظمة لذلك، مؤكدا أنه يجب أن يكون المبدأ الأساسي واضحا: إن أي شيء يتعين إنقاذه أثناء أزمة مالية، لأنه يلعب دورا جوهريا في الآلية المالية، يجب أن يتم ضبطه وتنظيمه عندما لا تكون هناك أزمة حتى لا تحدث مجازفات مفرطة. ومن ثم يتعين أن تمتد اللوائح المنظمة إلى أجزاء من النظام أوسع بكثير. وخلص كروجمان إلى أنه قد ثبت بوضوح أن العولة المالية أكثر خطورة مما أدركنا.

نقدم فيما يلي ترجمة للفصل الأخير الذي يلخص الحلول المقترحة، ويقدم رؤى وطرق تفكير مختلفة.

عودة اقتصاديات الكساد

إن الاقتصاد العالمي ليس في حالة كساد؛ ومن المرجح ألا يقع في الكساد، بالرغم من ضخامة الأزمة الحالية (وإن كنت أتمنى أن أكون متأكدا تماما بهذا الشأن). لكن بينما لم يعد الكساد ذاته

يثير القلق حقا هو غياب سياسة لقطاع الاقتصاد. لقد كان ركود ١٩٨١-١٩٨٢، الذي دفع البطالة إلى أكثر من ١٠٪ أمرا رهيبا، لكنه كان بدرجة وأخرى اختيارا متعمدا: كان الاحتياطي الفيدرالي ينتهج سياسة نقدية محكمة لقصم ظهر التضخم، وبمجرد أن قرر بول فولكر رئيس الاحتياطي الفيدرالي أن الاقتصاد قد عانى بما فيه الكفاية وفك المحابس، عاد الاقتصاد إلى الازدهار.

لكن هذه المرة، ينهار الاقتصاد رغم الجهود المتكررة لصانعي القرار من أجل دفعه إلى تجاوز الأزمة. يذكر هذا العجز بكساد ١٩٣٠. إن ما نمر به ليس كسادا بعد، لكننا نعيش اقتصاديات كساد.

في الفصل الأخير من الكتاب يلخص كروجمان الحلول المقترحة في ما يلي: العودة إلى الاقتصاد الكينزي الذي يمثل الإطار الأفضل لفهم معاني الركود والكساد. لقد فقدت السياسة النقدية التقليدية أي تأثير لها نظرا لاستمرار الركود وتفاقمه، بالرغم من أن بنك الاحتياطي الفيدرالي خفض معدلات الفائدة إلى صفر٪. وبالتالي يكون الحل الكينزي وهو زيادة الإنفاق الحكومي هو المخرج.

يعتقد الكاتب أن الحل الجلي الواضح هو ضخ المزيد من رأس المال، وأن إعادة الرسملة يجب أن تكون أكبر وأوسع، مؤكدا أنه يتعين أن تكون هناك سيطرة حكومية أكبر: «في الواقع، سيكون الأمر أقرب للتأمين الكلي المؤقت لجزء كبير من النظام المالي. ولكي أكون واضحا تماما، لا يمثل ذلك هدفا طويلا المدى، فالأمر ليس الاستيلاء على قمم قيادة الاقتصاد: يجب إعادة خصخصة المالية بمجرد أن يتوفر الأمان للقيام بذلك، كما فعلت السويد بإعادة النظام البنكي

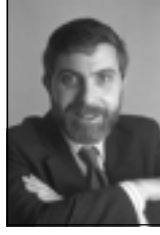
٢٠٠٨، حطمت مشكلات قروض الإسكان في أماكن مثل فلوريدا النظام البنكي في أيسلندا.

أما في حالة الأسواق الناشئة، فكانت هناك نقطة ضعف خاصة، ألا وهي التجارة التي تتلخص في الاقتراض في البلدان ذات أسعار الفائدة المنخفضة، مثل اليابان، والإقراض في البلدان ذات أسعار الفائدة العالية، مثل البرازيل وروسيا. وكانت تجارة مربحة جدا طالما ظلت الأمور ملائمة؛ لكنها لم تعد كذلك.

كان المفجر هو انهيار بنك الاستثمار، ليتمان برازرز، في ١٥ سبتمبر ٢٠٠٨. وكان من المتوقع أن يتدخل الاحتياطي الفيدرالي للإنقاذ، كما فعل في مارس من العام نفسه بالنسبة لبيير ستيرنز، وهو أحد البنوك الاستثمارية الرئيسية الخمسة، لكن وزارة الخزانة قررت أن عواقب إفلاس ليتمان لن تكون خطيرة، وسمحت بأن يغرق. وفي غضون أيام، كان واضحا أنها خطوة كارثية: لقد انهارت الثقة، وتدهورت أسعار الأصول، وجفت قنوات الائتمان القليلة التي كانت لا تزال تعمل. ولم ينجح التأمين الفعال لشركة التأمين العملاقة AIG، بعد ذلك بأيام قليلة في تخفيف حالة الذعر.

ونجت عن ذلك توقف تدفق رموس الأموال من اليابان والبلدان الأخرى ذات أسعار الفائدة المنخفضة، مما أدى إلى ارتفاع قيمة الين ارتفاعا كبيرا؛ ولأن رأس المال لم يعد يتدفق إلى الأسواق الناشئة، انخفضت قيمة عملات تلك الأسواق انخفاضاً ضخماً. وبالتالي خسرت كل من اقتراض بعملة وأقترض بأخرى خسائر ضخمة. ومعنى ذلك أن جهود حكومات الأسواق الناشئة لحماية نفسها من أزمة أخرى قد أفسدها عدم إدراك القطاع الخاص للمخاطر. ولم ينجح أحد، فالبنوك البرازيلية الرئيسية تفادت الاقتراض من الخارج المحفوف بالمخاطر، لكنها مع ذلك وجدت نفسها في مأزق لأن عملاءها المحليين لم يتحلوا بالقدر نفسه من الحرص. وهو ما يشبه كثيرا أزمات العملة السابقة. إندونيسيا ١٩٩٧، والأرجنتين ٢٠٠٢.

إن زيادة حدة أزمة الائتمان بعد إفلاس ليتمان برازرز، والأزمة المفاجئة في الأسواق الناشئة، وانهيار ثقة المستهلك، كل ذلك يشير إلى أسوأ ركود في الولايات المتحدة، وفي العالم ككل، منذ أوائل الثمانينيات من القرن العشرين. لكن ما



يعود بنا الكاتب إلى السنوات الأخيرة من الثمانينيات من القرن العشرين، ليذكرنا بناقوس خطر تجاهله الجميع



التسعينيات من القرن العشرين، تدخلت الحكومة وزودت البنوك برأسمال إضافي يساوي ٤٪ من الناتج المحلي الإجمالي للسويد. المكافئ لحوالي ٦٠٠ مليار دولار بالنسبة للولايات المتحدة في هذه الأيام. مقابل ملكية جزئية. وعندما تحركت اليابان لإنقاذ بنوكها عام ١٩٩٨، قامت بشراء أسهم ذات أفضلية بأكثر من ٥٠٠ مليار دولار، أي ما يكافئ نسبة إلى الناتج المحلي الإجمالي، ضخ رأسمال بحوالي ٢ تريليون دولار في الولايات المتحدة. وفي كل حالة، ساعد توفير رأس المال على إعادة قدرة البنوك على الإقراض، وحرر أسواق الائتمان من التجميد.

هناك عملية إنقاذ مالية طبقا لخطوط مماثلة تجرى حاليا في الولايات المتحدة والاقتصادات المتقدمة الأخرى، غير أن ذلك جاء متأخرا، ويرجع الفضل في ذلك جزئيا إلى الانحياز الأيديولوجي لإدارة بوش. في أول الأمر، بعد انهيار ليمان براذرز، اقترحت وزارة الخزانة أن تشتري من البنوك والمؤسسات المالية الأخرى الأصول التي تعاني من مشكلات بـ ٧٠٠ مليار دولار. غير أنه لم يكن واضحا أبدا كيف يمكن أن يساعد ذلك في تحسين الوضع. (إذا دفعت وزارة الخزانة القيمة السوقية لتلك الأصول، فإن ذلك لن يساعد وضع رأسمال البنوك إلا مساعدة طفيفة، بينما إذا دفعت أعلى من القيمة السوقية فسوف تتهم بإهدار أموال دافعي الضرائب). لا بأس: بعد تردد لمدة ثلاثة أسابيع، اتبعت الولايات المتحدة الطريق الذي سبقتها إليه بريطانيا ثم بعد ذلك بلدان القارة الأوروبية، وحولت الخطة إلى برنامج إعادة رسملة.

إلا أنه بدا من المشكوك فيه أن ذلك سيكون كافيا لكي تسير الأمور إلى تحسن، وذلك لثلاثة أسباب على الأقل. أولا، حتى إذا تم استخدام كل الـ ٧٠٠ مليار دولار لإعادة الرسملة (حتى الآن لم يتم تسليم سوى جزء من هذا المبلغ)، فإن المبلغ يظل صغيرا، نسبة إلى إجمالي الناتج المحلي، مقارنة مع عملية الإنقاذ المالي التي قام بها البنك المركزي الياباني. إن خطورة الأزمة المالية في الولايات المتحدة وأوروبا قابلة للجدل مقارنة بالأزمة المالية اليابانية. ثانيا، ليس واضحا حتى الآن الكم الذي سيصل من حزمة الإنقاذ إلى النظام البنكي الموازي، الذي هو قلب

والموجود. وللقيام بذلك، يحتاج صناع السياسة حول العالم إلى القيام بأمرين: جعل الائتمان يتدفق مجددا ودعم الإنفاق.

إن المهمة الأولى هي الأصعب، لكن لا بد من القيام بها، وعلى وجه السرعة. لا يمر يوم تقريبا دون أنباء عن كارثة أخرى نتجت عن تجميد الائتمان. وبينما أكتب هذه المسودة، على سبيل المثال، وردت التقارير عن انهيار خطابات الضمان، طريقة التمويل الرئيسية للتجارة العالمية. فجأة، لم يعد بإمكان وكلاء المستوردين مواصلة إنجاز صفقاتهم، خاصة في البلدان النامية، وتقف السفن عاطلة عن العمل: فمؤشر البلطيق الجاف Baltic Dry Index، وهو مقياس لتكاليف الشحن مستخدم على نطاق واسع، قد انخفض بنسبة ٨٩٪ هذا العام. إن ما يقف وراء أزمة الائتمان هو تضافر عاملين: انخفاض الثقة في المؤسسات المالية وهلاك جزء كبير من رأسمال هذه المؤسسات. لم يعد الناس والمؤسسات، بما في ذلك المؤسسات المالية، يريدون التعامل مع أي شخص إلا إذا كان لديه رأسمال كبير يدعم ما يعد به، وعلاوة على ذلك، استنفدت الأزمة رأس المال عبر الطاولة.

إن الحل الجلي الواضح هو ضخ المزيد من رأس المال. في الواقع، هذا هو رد الفعل القياسي في الأزمة المالية. في عام ١٩٣٣ استخدمت إدارة الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت روزفلت مؤسسة إعادة البناء المالية Reconstruction Finance Corporation لإعادة رسملة البنوك بشراء الأسهم ذات الأفضلية. أسهم لها الأولوية على الأسهم العادية من منظور استحقاقها للأرباح. وعندما عانت السويد من أزمة مالية في أوائل

الفصل الأول، حاول بصراحة إثبات أن الدورة الاقتصادية لم تعد موضوعا مهما، وأنه يتعين على الاقتصاديين تحويل اهتمامهم إلى التقدم التكنولوجي والنمو طويل المدى. إنها قضايا مهمة، ورائعة، وتمثل على المدى البعيد ما يهم حقا. لكن كما أشار كينز، على المدى الطويل سنكون جميعا موتى.

وفي غضون ذلك، في المدى القصير يترنح العالم من أزمة إلى أخرى، وتتضمن كلها بشكل حاسم مشكلة توليد طلب كاف. لقد عانى بلد وراء الآخر من الركود. اليابان من بداية تسعينيات القرن العشرين حتى الآن، والمكسيك في عام ١٩٩٥، والمكسيك، وتايلاند، وماليزيا، واندونيسيا، وكوريا في عام ١٩٩٧، والأرجنتين في عام ٢٠٠٢، والجميع تقريبا في عام ٢٠٠٨. مما أدى على الأقل مؤقتا إلى تعطيل التقدم الاقتصادي لسنوات، ووجدت هذه البلدان أن السياسة التقليدية لمواجهة هذا الوضع تبدو منعقدة التأثير. ومجددا، أصبح السؤال عن كيفية خلق طلب كاف للاستفادة من طاقة الإنتاج القصوى للاقتصاد سؤالا حاسما. لقد عادت اقتصاديات الكساد.

ما العمل: التعامل مع الحاجة الملحة

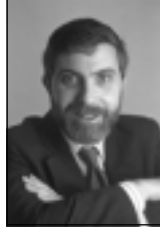
إن ما يحتاجه العالم الآن فورا هو عملية إنقاذ. فنظام الائتمان العالمي في حالة شلل، وبينما أكتب تلك السطور تتجمع قوة دافعة لحدوث تدهور اقتصادي عالمي. إن إصلاح الضعف الذي جعل هذه الأزمة ممكنة هو أمر جوهري، لكنه يستطيع الانتظار قليلا. أولا، نحتاج إلى التعامل مع الخطر الواضح

خطاب أوسع. باختصار، كان مصدر النزاعات النظرية هو الآتي: مبدئيا، النقص في الطلب الإجمالي سيعالج نفسه لو أن الأسعار والأجور انخفضت بسرعة في مواجهة البطالة. لكن الأسعار في الواقع لا تنخفض بسرعة في مواجهة الركود، إلا أن الاقتصاديين عجزوا عن الاتفاق بشكل دقيق حول سبب ذلك. وكانت النتيجة سلسلة من المعارك الأكاديمية المريعة جعلت موضوع حالات الركود برمته وكيف تحدث نوعا من حقل الألغام المهني الذي لا يجرؤ على أن يخطو فيه سوى قلة من الاقتصاديين. ومن المفهوم أن يستنتج الجمهور أن الاقتصاديين إما أنهم لا يفهمون حالات الركود أو أن العلاجات المعتمدة على جانب الطلب لم تعد محل ثقة. الحقيقة أن اقتصاديات الاقتصاد الكلي الجيدة قديمة الطراز، المعتمدة على الطلب لديها الكثير لتقدمه في ورطتنا الحالية. لكن المدافعين عنها يفتقدون تماما القدرة على الإقناع، بينما تملاً منتقديها حدة انفعالية.

المفارقة، أنه إذا كان الضعف النظري للاقتصاديات المعتمدة على جانب الطلب، هو أحد أسباب عدم استعدادنا لعودة نقاط الخلاف والنقاش حول قضايا الكساد، فإن النجاحات العملية لهذه الاقتصاديات أمر آخر. فخلال كل العقود التي تجادل الاقتصاديون في ما بينهم حول ما إذا كان يمكن فعلا استخدام السياسة النقدية لإخراج اقتصاد ما من الركود، كانت البنوك المركزية تنطلق وبشكل متكرر وتستخدم السياسة النقدية لتفعل ذلك تحديدا. وبشكل فعال جدا في الواقع، بحيث أصبحت فكرة الانخفاض في النشاط الاقتصادي لفترة طويلة نتيجة لنقص الطلب، فكرة غير واردة. بالطبع يستطيع الاحتياطي الفيدرالي ونظراؤه في البلدان الأخرى دائما خفض أسعار الفائدة بدرجة كافية للحفاظ على الإنفاق عاليا، إذن، باستثناء ما يحدث على المدى القصير جدا، كان القيد الوحيد على الفعالية الاقتصادية هو قدرة الاقتصاد على الإنتاج. أي، جانب العرض.

حتى الآن، لا يزال العديد من الاقتصاديين يعتقدون أن حالات الركود هي قضية ثانوية، وينظرون إلى دراستها على أنه موضوع يكاد يكون سيئ السمعة. إن روبرت لوكاس Robert Lucas في خطابه الرئاسي، الذي استشهد به في





إن الاضطراب الاقتصادي الذي تعرضت له آسيا، والذي نتعرض له جميعا الآن، هو تحديدا نوع الأمور التي اعتقدنا أننا تعلمنا تفاديها



التوقعات بالانكماش الذي وقعت فيه اليابان بعد سنوات من السياسات التي تفتقر إلى القوة الكافية. كما أن اليابان انتظرت طويلا جدا لكي تعيد رسملة نظامها البنكي، وهي غلطة نرجو ألا نكررها.

إن النقطة الأساسية في كل ذلك هي التعامل مع الأزمة الحالية بعزيمة أننا سنعمل كل ما يمكن لجعل الأمور تدور؛ وإذا كان ما تم حتى الآن غير كاف، فلنقم بالمزيد، ولنقم بشيء مختلف، إلى أن يبدأ الائتمان في التدفق ويبدأ الاقتصاد الحقيقي في استرداد عافيته.

وبمجرد أن يكون جهد الإصلاح المالي جاريا فعلا، سيحين الوقت للتوجه نحو إجراءات وقائية؛ أي إصلاح النظام بحيث لا تتكرر الأزمة مجددا.

إصلاح مالي

قال جون ماينارد كينز في بداية الكساد الكبير، لدينا خلل في المغنيط (**): أغلب المحرك الاقتصادي في حالة جيدة، لكن هناك مكونا حاسما، النظام المالي، لا يعمل. كما قال أيضا ما يلي: «لقد ورطنا أنفسنا في تشوش ذهني ضخم، بوقوعنا في خطأ تحكم فاضح في آلة دقيقة، لا نفهم طريقة عملها». إن المقولتين صحيحتان الآن كما كانتا حينذاك.

كيف نشأ هذا التشوش الذهني الضخم الثاني؟ بعد الآثار السلبية للكساد الكبير، أعدنا تصميم الآلة بحيث أصبحنا نفهمها جيدا بما يكفى، مهما تكن الظروف لتفادي أية كوارث كبرى. لقد وضعت البنوك، ذلك الجزء من النظام الذي كان مقصرا بشكل خطير في ثلاثينيات القرن العشرين، تحت لوائح وقوانين منظمة صارمة ودعمت بشبكة إنقاذ قوية. وفي الوقت نفسه، تم الحد من حركات رأس المال على المستوى الدولي، والتي كان لها دور في انتشار الفوضى في ثلاثينيات القرن العشرين. وأصبح النظام المالي مضجرا قليلا لكنه مأمون أكثر بكثير.

ثم أصبحت الأمور مجددا مثيرة للاهتمام وخطيرة. إن تدفقات رأس المال الدولي المتنامية، قد جهزت المسرح لأزمات عملة مدمرة في تسعينيات القرن العشرين، ولأزمة مالية عالمية في ٢٠٠٨.

تركز الخطة الجديدة على تعزيز وتوسيع الإنفاق الحكومي. تعزيزه بتقديم المساعدة لحكومات الولايات والحكومات المحلية، وتوسيعه بالإنفاق على الطرق، والجسور، والأشكال الأخرى من البنية التحتية.

الاعتراض المعتاد على الإنفاق العام كشكل من أشكال الحافز الاقتصادي هو أنه يستغرق وقتا طويلا قبل أن يحدث فرقا. فعندما تتحقق زيادة الطلب، يكون الانهيار قد تم تجاوزه. غير أن ذلك لم يعد يبدو حاليا مشكلة كبرى؛ إذ من الصعب جدا رؤية أى إصلاح اقتصادي سريع، إلا إذا نشأت بشكل غير متوقع فقاعة ما جديدة لتحل محل الفقاعة العقارية. (عنوان رئيسي في الصحيفة الساخرة ذي أونيون the onion عبر بشكل ممتاز عن المشكلة: «الركود المصابة به الأمة يطالب بفقاعة جديدة للاستثمار فيها».) وإذا ما يتم دفع الإنفاق العام إلى الأمام بسرعة معقولة، فإنه يصل في وفرة من الوقت لتقديم المساعدة. وهو يتميز عن خفض الضرائب بميزتين كبيرتين. من جانب، سيتم بالفعل إنفاق المال؛ ومن جانب آخر، سيتم خلق شيء ذي قيمة (مثلا، جسور لن تنهار).

قد يعترض بعض القراء بأن توفير الحافز المالي من خلال الإنفاق على الأعمال العامة هو ما قامت به اليابان في تسعينيات القرن العشرين. وهو ما حدث. لكن، حتى في اليابان، وفي الإنفاق العام على الأرجح نتج اقتصاد ضعيف من الغوص في كساد فعلى. فضلا عن ذلك، هناك أسباب للاعتقاد بأن الحافز من خلال الإنفاق العام سينجح بشكل أفضل في الولايات المتحدة عما حدث في اليابان، إذا نفذ على وجه السرعة. وذلك لسبب واحد، هو أننا لم نعلق بعد في فخ

النامية جزءا من حل الأزمة. وكما في حالة إعادة الرسملة، أجزاء من ذلك تحدث حاليا بينما أكتب هذه السطور: لقد وفر صندوق النقد الدولي قروضا للبلدان ذات الاقتصادات المضطربة مثل أوكرانيا، مع تقديم دروس أخلاقية أقل ومطالبات أقل بالتقشف عما حدث أثناء الأزمة الآسيوية في تسعينيات القرن العشرين. وفي غضون ذلك، زود الاحتياطي الفيدرالي البنوك المركزية في العديد من الأسواق الناشئة بخطط مقايضة، تمنحها الحق في أن يقترضوا دولارات عندما يكون ذلك ضروريا. وكما هو الحال مع إعادة الرسملة، يبدو أن الجهود تسير حتى الآن في الاتجاه الصحيح لكنها متواضعة جدا، وبالتالي يحتاج الأمر إلى المزيد.

حتى لو أن عملية إنقاذ النظام المالي بدأت تعيد أسواق الائتمان إلى الحياة، فإننا لا نزال نواجه زخما يتجمع مهددا بانهيار عالمي. ما الذي يمكن فعله بهذا الشأن؟ الإجابة، بشكل أكيد تقريبا، هي الحافز المالي الكينزي الجيد القديم. حاليا، جربت الولايات المتحدة حافزا ماليا في بداية عام ٢٠٠٨؛ لقد أعلنت إدارة بوش وأعضاء الكونجرس الديمقراطيون أنها خطة لتحقيق «قفزة البداية» للاقتصاد. غير أن النتائج الفعلية كانت مخيبة للأمل، وذلك لسببين. أولا، كان الحافز ضعيفا جدا، حيث لم يتجاوز ١٪ من الناتج المحلي الإجمالي. ويجب أن يكون الحافز التالي أكبر بكثير، حوالي ٤٪ من الناتج المحلي الإجمالي. ثانيا، أخذت معظم أموال الحزمة الأولى شكل تخفيضات ضريبية، ولقد تم ادخار الكثير منها بدلا من إنفاقه. يجب أن

المشكلة. ثالثا، ليس من الواضح إن كانت البنوك سترغب في إقراض هذه الاعتمادات المالية، أم ستفضل كنزها والجلوس فوقها (وهي المشكلة التي واجهتها سياسة الاتفاق الجديد^(*)). نيوديل. منذ ٧٥ عاما مضت).

أعتقد أن إعادة الرسملة يجب أن تكون أكبر وأوسع، وأنه يتعين أن يكون هناك إصرار أكبر من جانب السيطرة الحكومية. في الواقع، سيكون ذلك أقرب ما يكون للتأميم الكلي المؤقت لجزء كبير من النظام المالي. ولكي أكون واضحا تماما، لا يمثل ذلك هدفا طويلا المدى، فالأمر ليس الاستيلاء على قمم قيادة الاقتصاد: يجب إعادة خصخصة القطاع المالي بمجرد أن يتوفر الأمان للقيام بذلك، كما فعلت السويد بإعادة النظام البنكي مجددا للقطاع الخاص بعد عملية الإنقاذ المالية الكبيرة التي قامت بها في السنوات الأولى من تسعينيات القرن العشرين. لكن الأمر المهم حاليا، هو تخفيف القيود على الائتمان بكل الطرق المتاحة، دون أن يتم عرقلة ذلك بعقد أيديولوجية. لا يمكن أن يكون هناك أسوأ من التقصير في القيام بما هو ضروري بسبب الخوف من أن يكون العمل على إنقاذ النظام المالي «اشتراكية» بطريقة ما.

وينطبق الشيء نفسه على خط آخر لتناول حل أزمة الائتمان: دخول البنوك المركزية مجال عمل الإقراض المباشر للقطاع غير المالي. إن استعداد الاحتياطي الفيدرالي لشراء أوراق تجارية هو خطوة كبرى في ذلك الاتجاه، لكن ربما الأمر يحتاج إلى المزيد.

ويجب تنسيق كل هذه التصرفات مع البلدان المتقدمة الأخرى. والسبب في ذلك هو العولمة المالية، الموصوفة في الفصل التاسع. إن جزءا من مكافأة عمليات إنقاذ النظام المالي التي تقوم بها الولايات المتحدة هو المساعدة على تخفيف القيود على الوصول للائتمان في أوروبا؛ كما أن جزءا من مكافأة جهود الإنقاذ الأوروبية هو التخفيف من القيود على الائتمان في الولايات المتحدة. إذن يجب أن يفعل الجميع الشيء نفسه بدرجة أو أخرى؛ لأننا جميعا في قارب واحد.

وهناك شيء آخر أيضا: إن انتشار الأزمة المالية إلى الأسواق الناشئة، جعل القيام بعملية إنقاذ عالمية للبلدان



كتاب الزاوية



عندما يتحدث أردوجان

(٣)

أصدقائي الأعزاء

كما تعلمون فإننا نعمل في مشروع تحالف الحضارات مع إسبانيا. هدفنا تقوية الفكرة القائلة بإمكانية تعايش الأديان والحضارات والثقافات المختلفة في سلام وبتسامح وكذلك إحلال المحبة بدلا عن الحقد والكراهية.

على أن أقول متأسفا إن الأحداث التي جرت أمس قد شكلت لطلخة سوداء من منظور الحضارة والثقافة الإنسانية، لقد سجلت باعتبارها عيبا كبيرا في تاريخ الإنسانية.

الهجوم المسلح على سفن المساعدة وقتل الناس الأبرياء ومعاملة الناس المدنيين معاملة الإرهابيين يعتبر سقوطا من الناحية الإنسانية وتهورا حقيرا.

نحن نعلم أن للسلم والحرب حقوقهما. لا يُعتدى على الأطفال في الحرب، لا يعتدى على النساء والشيوخ في الحرب، لا يعتدى على المدنيين ورجال الدين في الحرب، لا يعتدى على الذين يرفعون الرايات البيض وموظفي الصحة والإغاثة في الحرب. أما الذين يعتدون على هؤلاء في السلم وليس في الحرب فلا يكونون قد داسوا الحقوق فحسب وإنما يكونون قد داسوا الإنسانية وجعلوها تحت أقدامهم وقد خرجوا من الإنسانية... حتى الطغاة وقطاع الطرق والقراصنة لهم حساسيات معينة وقواعد أخلاقية يعملون بها.

إن وصف من لا يملك أي وازع أخلاقي أو أية حساسية أخرى بهذه الصفات إنما يعتبر مدحا له.

إن اعتداء إسرائيل على سفينة تقل متطوعين من ٣٢ قوما يجعلها كأنها تتحدى العالم. لقد أصيب السلام العالمي بجرح كبير. يجب قطعاً وبكل تأكيد أن تعاقب حكومة إسرائيل على هذا الهجوم الجريء وغير المسؤول والمتهور والمستهتر بالحقوق وبكافة القيم الإنسانية.

يجب على المجتمع الدولي بدلا من أن ينتظر تحقيقا من إدارة اتخذت من الكذب سياسة دولة ولا يجر وجهها خجلا من جريمة اقترفتها، أن يحقق في الحادثة بكل جوانبها وأن يقابلها بالرد الحقوقي. نحن في تركيا لن ندع هذا الموضوع.

إن تركيا ليست دولة بنيت أمس لا جذور لها، وهي قطعاً ليست بالدولة القبلية. يجب أن لا يحاول أحد اختبار صبر تركيا.

وبالقدر الذي تعتبر صداقة تركيا غالية فإن معاداتها قاسية بالقدر نفسه، إن فقدان صداقة تركيا في حد ذاته يعتبر ثمنا باهظا.

قوة الأفكار

كما استنتج القراء، لا أعتقد فقط أننا نعيش في عصر جديد من اقتصاديات الكساد، لكن أيضا أن جون ماينرد كينز. عالم الاقتصاد الذي فهم الكساد الكبير. هو الآن وثيق الصلة بالموضوع أكثر من أي وقت مضى. لقد ختم كنز تحفته، «النظرية العامة في التشغيل والفائدة والنقود»، بمقالة شهيرة عن أهمية الأفكار الاقتصادية: «عاجلا أو آجلا، فإن الأفكار، وليس الفوائد المكتسبة، هي الخطيرة سواء للخير أو للشر».

يمكننا أن نجادل حول ما إذا كان ذلك صحيحا دائما، لكن في أوقات مثل التي نمر بها، هو صحيح تماما. من المفترض أن تكون الجملة الاقتصادية الجوهرية «لا يوجد غداء مجاني»؛ أي أن هناك موارد محدودة، ولكي تحصل على المزيد من شيء ما يجب أن تقبل بفقد أقل من شيء آخر، وأنه لا يوجد مكسب دون ألم. غير أن اقتصاديات الكساد هي دراسة المواقف والأوضاع حيث يوجد غداء مجاني، إذا استطعنا فقط أن نفهم كيف نضع يدنا عليه، لأن هناك موارد غير مستخدمة يمكن استغلالها. وبالتالي، فإن الندرة الحقيقية في عالم كينز. وعالمنا. ليست ندرة موارد، ولا حتى ندرة فضيلة وفعالية، لكنها ندرة فهم وإدراك غير أننا لن نحقق الفهم الذي نحتاجه إلا إذا أردنا أن نفكر بوضوح بشأن مشكلاتنا، وأن نتبع تلك الأفكار حيثما تقودنا. يقول بعض الناس إن مشكلاتنا الاقتصادية بنوية، ولا يوجد لها علاج سريع متاح؛ لكني أعتقد أن العوائق البنيوية الوحيدة ذات الأهمية، التي تقف حائلا ضد الرخاء العالمي هي النظريات الأليّة للزوال التي تزعم بغير نظام عقول البشر. ■

(*) سياسة اقتصادية وضعها الرئيس الأمريكي روزفلت لمعالجة الأوضاع الاقتصادية المتردية في الولايات المتحدة إثر أزمة ١٩٢٩. تعتمد هذه السياسة على تدخل الدولة في إعادة توزيع الثروة وفي توجيه النشاط الاقتصادي. ولا تهدف هذه السياسة إلى إعادة النظر في النظام الرأسمالي بل إلى جعله مقبولا لدى المواطنين بإدخال بعض الإصلاحات الشكلية عليه (المترجم).

(*) جهاز كهربائي لإحداث الشرر في محرك داخلي الاحتراق (المترجم).

إن نمو النظام البنكي الموازي، دون أي توسع مقابل للوائح والقوانين المنظمة لذلك، جهاز المسرح للبنك العصري لكي يقدم عروضه على مستوى ضخم. وتضمنت هذه العروض طقطقات شديدة الاهتياج لفارة أجهزة الحاسوب، بدلا من حشود الجماهير شديدة الاهتياج خارج أبواب البنوك الموصدة، إلا أنها لم تكن أقل تدميرا.

من الواضح أن ما يتعين علينا عمله هو إعادة تعلم الدروس التي لقنها الكساد الكبير لأجدادنا. لا أريد أن أعرض تفاصيل نظام جديد ضابط للنشاط الاقتصادي، لكن يجب أن يكون المبدأ الأساسي واضحا: أي شيء يتعين إنقاذه أثناء أزمة مالية، لأنه يلعب دورا جوهريا في الآلية المالية، يجب أن يتم ضبطه وتنظيمه عندما لا تكون هناك أزمة حتى لا تحدث مجازفات مفرطة. منذ الثلاثينيات من القرن العشرين فرض على البنوك التجارية أن يكون لديها رأسمال كاف، وأن تمتلك احتياطيًا من الأصول السائلة التي يمكن تحويلها فورا إلى نقود، وأن تحد من أنواع الاستثمارات التي تقوم بها، وكل ذلك مقابل ضمانات فيدرالية عندما تسوء الأمور. أما وقد رأينا مجموعة واسعة من المؤسسات غير البنكية تخلق ما يعادل أزمة بنكية، فإنه يتعين أن تمتد لوائح منظمة مماثلة إلى أجزاء من النظام أوسع بكثير.

كما يجب علينا أن نفكر بإمعان في كيفية التعامل مع العولمة المالية. بعد الآثار المدمرة للأزمة الآسيوية، كانت هناك بعض الدعوات التي تطالب بقيود طويلة الأجل على التدفقات الدولية لرأس المال، وليس مجرد ضوابط مؤقتة في أوقات الأزمة. لقد تم رفض أغلب هذه الدعوات لصالح استراتيجية إنشاء احتياطيّات ضخمة من العملة الأجنبية من المفترض أن تدرأ أي أزمات مستقبلية. الآن يبدو أن هذه الاستراتيجية لم تنجح. لا بد أن هذه الاستراتيجية بدت مثل الكابوس بالنسبة لبلدان مثل البرازيل وكوريا؛ بعد كل ما قاموا به، يكابدون أزمة التسعينيات من القرن العشرين مجددا. ليس واضحا على وجه التحديد ما الشكل الذي يجب أن يكون عليه رد الفعل التالي، لكن لقد ثبت بوضوح أن العولمة المالية أكثر خطورة مما أدركنا.



استعادة المسافر خانة



محمد عبد السلام العمرى

سواء كان بالذاكرة أو بالرواية، أن تكتب رواية، أن تنشئ أثراً معمارياً تستنطق الذاكرة معالمه وتوضح وتبين الكثير من الغموض، والكثير من الالتباس.

كيف يمكننا أن نأخذ هذا العمل على أنه تسجيل حي لعمل معماري تراثي عريق تم محوه من الوجود؛ لشبهة فساد أو نهب مؤكد، غير عابئين بحضارتنا وتراثنا وذاكرتنا التي لم يبق لنا شيء إلا هي.

وما هو مقدار الصدق هنا، وما هو قدر التأليف أو التخيل، وما هي المراجع التي استند إليها الروائي ليعيد بناء هذا الأثر المعماري النادر، وما هي مراجعنا نحن التي يجب أن نستند إليها لمناقشة مثل هذا العمل وتفنيد عناصره.

وهل يحق لنا ذلك أم لا؟



إننا عندما نتناول مثل هذا العمل لا يجب أن ننزعه عن سياق المنطقة والموقع الذي نشأ فيه.

والكاتب ربما تدخلت عنده المفاهيم المعمارية، مع الثقافية، مع قراءة التاريخ، وكتب التراث، والحس الصوفي، فتدخلت عنده الأزمنة والأوقات فبدأ أن هناك تخمة ثقافية ومعمارية باهظة، على أنه من اللازم لفت النظر، أن عمارة القاهرة المعزية تختلف اختلافاً جذرياً عن عمارة الممالك التي دارت في فلكها الوكالات، ومنها وكالة المسافر خانة.

إن تناول هذا العمل كعمل روائي متخيل يختلف عن عمارة المسافر خانة المجسمة كفكرة، كبنيان، يعج بالأفراح والآتراح والموايد، والحياة الصاخبة التي يتحملها هذا المبنى؛ الذي لم نستطع الحصول له على تصميمات معمارية تحتفظ بها أية جهة، حتى ولو كانت «هيئة الآثار»

الدقة والتفاصيل، وكان التساؤل هو كيف يمكن أن أقيم علاقة بين عمارة متخيلة وأي فن من الفنون، فالعمارة إذا كانت مشيدة وقائمة، فإن كل أنواع التواريخ والتسجيل، والرؤية البصرية سواء إذا كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية يمكن قراءتها، وتحليلها، والوصول من خلالها إلى إقامة تلك العلاقة التي هي في الأغلب الأعم رؤية الكاتب وثقافته وخبراته.

كذلك فإن كل أنواع تواريخ الفنون تكون قائمة، وبصفة أن هذا العمل المعماري متخيل لعمارة تراثية عربية إسلامية عريقة تم حرقه عمداً؛ بسبب فساد واضح وأخطاء في الترميم المتواصل على مدى أكثر من عشرين عاماً، وإن هناك عدة شركات مقاولات غير أمينة مثل المشرفين عليها تماماً، تناوبوا ترميمه.

أقول إذا كان هذا الأثر بهذه الصفة فإنه سيكون بالنسبة للأعمال المعمارية الأخرى والروائية جديراً بتناوله ودراسته، فلم يسبق أن أقيم أثر محترق بالتخيل،

أمامه عاقل أو متزن، لذا رأينا كل هذه التنازلات، كل هذا التبدل في الرأي والقيم، والأخلاق، وإنك لا تضمن أحداً، فإنسان هذا الوطن طحنته الحياة والظروف وشكلته بحيث أصبح قادراً على أن يحمل عدة تناقضات في شخصيته تظهر واضحة في عدة مواقف متباينة في الآن ذاته.

فأصبحنا بلا ملامح مدجنى الهوية، مثل عمارتنا الآن تماماً، جو عام يصهر فيه كل شيء ليحوّله إلى مسخ.



وفى ظني أن المسافر خانة عمل معماري روائي متخيل؛ لأنه استرجاع من الذاكرة، اهتم به الروائي جمال الغيطاني، منذ بدأ يعي الحياة، فالتقطت الذاكرة، وسجلت وصورت تاريخ المبنى، هو يحيى وينتمى إلى الأثر الذي كان جزءاً لا يتجزأ من تكوينه الثقافي. والذاكرة في الأغلب الأعم غير كاملة

تمهيد

■ ■ عندما بدأت الكتابة عن العلاقة بين العمارة العربية والفنون، وكانت إحدى ركائز هذه العلاقة فصلاً بعنوان، العلاقة بين العمارة والرواية، قرأت أعمالاً كثيرة في هذا السياق فوجدت أن جمال الغيطاني اهتم كثيراً بالعمارة في بعض أعماله مروراً برسالة في الصبابة والوجد، إلى سفر البنيان التي هي في متن هذه العلاقة، إلى المسافر خانة، التي أوحى بكثير من القضايا والهموم، إلى الاهتمام الواضح بدراسة التواريخ المعمارية للمساجد، وتسجيلها كتابة وتصويراً.

والكاتب لا يتذكر المسافر خانة كمبنى فقط، إنما يتذكر ظاهرة اجتماعية كاملة وحياة مواردة، وتاريخاً واجتماعياً، وفلسفة وديناً، وقاهرة حميمية نفتقد لها جميعاً الآن، مواقع الطفولة، الصبا والشباب، العمر كله الذي يحمله الإنسان بين جنباته، وهي علاقة الأثر بكامل عمر الكاتب نفسه.

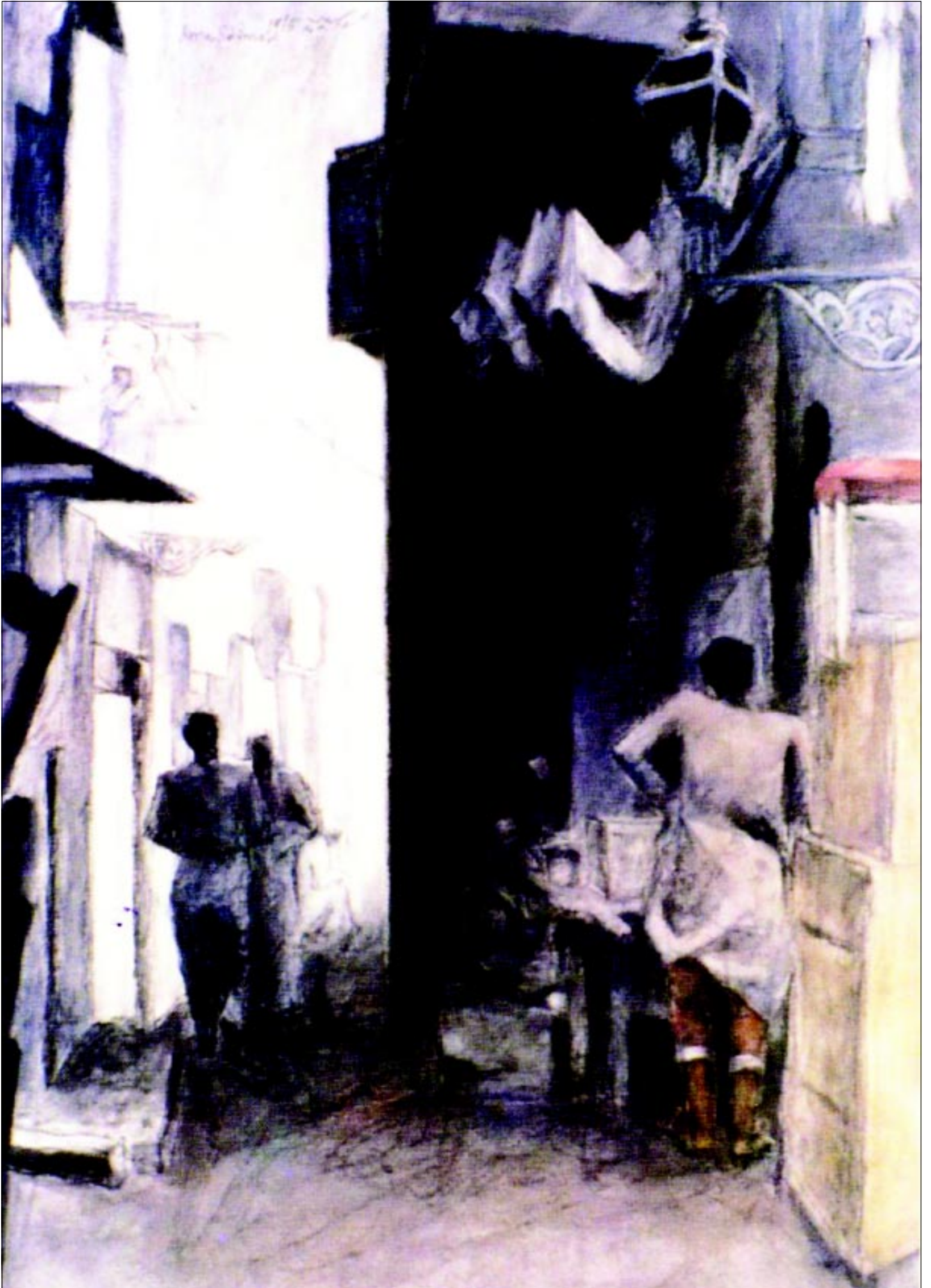
وهذا الكتاب مرثية لعمرننا الجميل، ولحياتنا، وتراثنا، وتاريخنا، ولتاريخ حرق الآثار هذه، الذي لم يحدث له مثيل في أي دولة من دول العالم المختلفة، غير مهتمين إلا بتكريس القبح والرداءة وتواصل الانهيارات والحرائق في شتى المجالات.

والقبح والرداءة لا يقومون عادة إلا على أنقاض كل ما هو جميل وعريق، لكن الملاحظ أننا نستسلم لهذا كأنه قدر، كأن لا فائدة من المقاومة، لأن التيار جارف وكاسح وساحق وماحق أيضاً، لن يقف

المسافر خانة

جمال الغيطاني

دار الشروق - القاهرة - ٢٠٠٧



المصرية» التي يجب أن تحتفظ بملفات معمارية وهندسية متكاملة لأي أثر معماري.

لن نعرف إذن مدى اختلاف التخييل المعماري عن الواقع؛ الذي قالوا فيه إن هذا المبنى به أكبر مشربية معمارية في العالم الإسلامي، وهذا أيضاً تخيل؛ لأن المشربية في أساس منشئها مبنية لتعطي حرية رؤية الخارج دون أن يقتحم الخارج خصوصية الداخل وتلطيف الجو وتدرج الإضاءة... إلخ، فهل كانت تلك المشربية موزعة على كل البلكنات الداخلية، والشبابيك، ولماذا لم تكن هناك خصوصية أيضاً في توزيع المشربيات بدلا من أن تكون هناك مشربية واحدة، قابلة بلا جدال للتعرض للعوامل الجوية والطقس والرياح، وغيرها من عوامل التأثير، التي تقلل من كفاءتها ومن عمرها الافتراضي.

والتراث المعماري لأي دولة يعبر عن مجموعة من القيم، من بينها القيمة التاريخية، التي هي ذاكرة المدن، والقيمة الجمالية التي تولد مع ميلاد المعمار، وترتبط بالطابع العام، والقدرات الإبداعية، والتصميمية، والتأثيرية له، وهناك القيمة الوظيفية للعمل المعماري التي تعنى الهدف المقصود من وجود المعمار في عصر من العصور، كالأسبلة في القاهرة القديمة على سبيل المثال.

والعمران مع تطور ملامحه، واختلاف طوره لا يمثل فقط قطعاً من الجمال، لكنه تعبير دقيق عما طرأ من تطور سكاني واجتماعي على أي مدينة. العمران يولد ويعيش ويحيا، ويشارك، يعمل، يلهو، يصارع، ويسالم، يحب ويكره، ينجب، ويورث، يتشقف ويتعبد، ثم ينهي سيرته في العمران بكتابة التاريخ.

العمران يفرض وجوده وملامحه على الإنسان في حركته وسكونه، وهو المرتقى بحواسه إذا أحسن وهو المتدنى بها إذا أساء.

ولم تكن نتصور أن علوم التخطيط بكل مدخلاتها، الاجتماعية، والاقتصادية، والهندسية هي الأساس الذي ينتهي إلى مخرج يتم تصوييره تصويراً بصرياً من جانب المصمم المعماري، وفي ضوء ما يمليه المخطط العمراني، من تصورات عن استخدامات الأرض، وما يحمله من اشتراطات بنائية وكثافة سكانية.

وإعادة المسافر خزانة يجب أن تكون حصيلة التخطيط بكل صورته،

ومداخلاته الاجتماعية والاقتصادية، مراعيًا في الاعتبار، حتى الشارع الذي هو صورة المجتمع، تتبلور فيه شخصيته، ويتردد نبضه، بل هو الصحيفة التي تنشر تفاصيل حياته اليومية، وتعكس ثقافته، ومزاجه الخاص، وذوقه العام.

ونحن لم نستوعب بعد في نطاق أهمية محصلة التخطيط، قيم ومعاني الحداثة، التي تقوم على فكرة النظام والتنظيم، إذ إننا نحتفى أكثر بفوضى التخريب، نقف مكتوفي الأيدي من الصدمات، الحرائق المتوالية، التي لا نعرف كيفية التصرف حيالها، لأننا لا نفهم الكيفية التي تعمل بها النظم الحديثة، لا تستوعب الصيانة أو الأمن الصناعي أو حماية البيئة، وأي نظام قابل للحياة لابد أن يفهم أن المرافق الضرورية لتشغيله لها أولوية على ما عداها.

مدخل

منذ أكثر من خمسمائة عام أقام شاهبندر تجار القاهرة حسين محرم مبنى أثريا ضخماً رأى أنه سيخلده على مدى التاريخ، هذا المبنى اسمه وكالة المسافر خزانة، وفيما بعد قصر المسافر الخانة، كان ملتقى التجار من كل أنحاء العالم العربي، عبارة عن فندق يأتي إليه الأغراب، يعيشون فيه، ويعرضون بضاعتهم، ويعقدون صفقاتهم.

بنى هذا القصر في حي الجمالية، وقد ولد به الخديو «إسماعيل»؛ الذي سيرتبط اسمه بحرائق التراث المعماري والحضري النادر، إذ تم حرق هذا الأثر في ١٩٨٨/١٠/٢٨ كما أن الأثر المعماري الآخر والأكثر أهمية عن المسافر خزانة، وهو الأوبرا الخديوية التي بناها إسماعيل لافتتاح قناة السويس تم حرقه أيضاً قبل هذا المبنى في ١٩٧١/١٠/٢٢، والاثنتان في شهر أكتوبر، ثم أحدث حرائق تراث إسماعيل المعماري النادر، كان مبنى مجلس الشورى الذي بنى ١٨٦٩ وكان أول مجلس شوري في العالم، وكان إسماعيل الرابط بين كل تلك الحرائق، وكل هذا الدمار، وبدا أن هناك تساؤلاً هاماً، هل المقصود حقبة مزدهرة من حياتنا، والانتقام من تلك الحقبة.

هذه الحرائق أضاعت على مصر أهم كنوزها الأثرية المعمارية الإسلامية في لحظات. والمسافر خزانة يعتبر من أجمل القصور الإسلامية، يحرس السائحون من جميع أنحاء العالم على زيارته فيما

سبق، وكان موضوعاً على خرائطهم ضمن برامجهم السياحية، يستمتعون بتكويناته الهندسية البديعة، وزخارفه الجذابة، المكسوة بالمنحنيات والمنمنمات والأرابيسك، وأرضياته المصنوعة من الرخام الملون، كذلك أسقفه الخشبية، بالإضافة إلى متحف مشربياته التي ليس لها مثيل، خاصة أنه كان يفخر بأن به أكبر مشربية معمارية في العمارة العربية الإسلامية، في كافة أنحاء الدنيا، وهذه المشربية آية في فن المنمنمات، وتقاطيعها الخشبية الدقيقة، هدفها السماح للنور بالدخول إلى القاعات والإيوانات، لكن بعد ترشيحه، وتخفيف حدته، في بلاد تحيطها الصحراء من كل جانب.

وكانت تلك المشربية التي لا مثيل لها قائمة في الناحية القبلية، مستندة إلى عامود إيواني من رخام، ذي تكتة كوروثية التصميم.

كانت المسافر خزانة وصلت عندما احترقت إلى وضع مؤلم، إذ كانت هناك تعديلات مستمرة، مباحة بدون أي نوع من أنواع الحماية، تعرضت لتعديلات مستمرة بصفة يومية من أهالي المنطقة، والتجاوزات التي أحاطت بها، وساعدت على حدوث هذا الحريق المدمر.

خاصة الإهمال، والترميمات المتراخية؛ التي استمرت أكثر من عشرين عاماً، يسلمها مقاول إلى آخر دون رقابة أو إشراف، إذ إن هؤلاء السادة كانوا العامل المشترك بين الفساد والمقاولين على تدمير هذا المبنى الأثري.

ولم يكن غريباً أن يتفق الجميع، بل وتتوحد آراؤهم حول الأسباب الحقيقية التي كانت وراء هذه الكارثة، إهمال الإشراف والصيانة لهذا القصر أوجد حوله مكاناً لتجمع القمامة، مجاوراً، وملصقاً له، وقد ساعدت هذه الأكوام المتكدسة على اشتعال هذا الحريق، بالإضافة إلى تعمد إحداث الحريق في أخشاب الترميمات الداخلية؛ حتى تضيق المعالم، وحتى لا يساعد على كشف فساد الترميمات المتكررة، وصرف المستحقات للمقاولين، أكثر من مرة.

وكان الإهمال وعدم المتابعة أوجد أعداداً كبيرة من زوار المولد الحسيني القادمين من الريف، والمناطق المجاورة، بكل عائلاتهم، واحتياجاتهم من أكل ومغسل وملبس داخل القصر، طوال مدة المولد، استخداماتهم السيئة لقاعات القصر، وما يتركه من آثار سلبية على مكوناته.

ومما ساعد على ذلك الشوارع والأزقة والحارات الضيقة، والتجمعات السكانية الكثيفة الهائلة والمحلات التجارية، والزحام المستمر طوال اليوم، مما يجعل الأجهزة المعنية غير قادرة على القيام بمهامها.

وفي فترة نهضة ثقافية حقيقية في حقبة الستينيات ضم القصر بين جنباته مجموعات من الفنانين التشكيليين للإقامة بداخله، ومزاولة هواياتهم في الفنون التشكيلية، رسم، ونحت، وتشكيل، استخداماتهم اليومية لبعض مصادر الكهرباء داخل القصر في إعداد المشروبات والأطعمة إلى جانب استضافة أصدقائهم، وما ترتب على ذلك من استهلاك مكونات القصر، وتصعد لمقتنياته.

كانت هناك اجتماعات وندوات، تعددت فيها جهات الإشراف، وقد تنبهوا إلى ملاحظة أن شارع المعز لدين الله الفاطمي يتعرض لبعض المخاطر، مثلما تتعرض المسافر خزانة؛ التي يمكن أن تأتي على كل شيء، وتدمره تدميراً شاملاً، مثل وجود مخازن للبتوناجاز والكيماويات، وأن انفجار أنبوبة بوتاجاز واحدة كفيلة بتدمير الشارع بأكمله، كما أنها كفيلة بتدمير المسافر خزانة، إذ إن كل عائلة لها احتياجاتها.

لقد اشتعلت النيران في كل مكونات القصر، أبوابه، مشربياته، نوافذه الخشبية.

وقد تضامن البعض؛ الأوقاف، التربية والتعليم على إلحاق الأذى والدمار في شارع المعز أيضاً، إذ استخدمت وزارة التربية والتعليم بعض المخازن في هذا الشارع لتشوين الكتب المدرسية القابلة للاشتعال في أي وقت.

ويحمد لهيئة الآثار أن قامت بالتخلص من كل هذا عندما استعادت شارع المعز معمارياً قبل أن يتم تدميره.



والحقيقة أن المسافر خزانة تعتبر محظوظة رغم احتراقها، وتدميرها بالكامل لأنها وجدت من ينتصر لها، يؤرخ لها، ويسجلها كآثر، لن يمحو من الذاكرة، ستعيش بفضل هذا الكاتب المشقف المهتم بالتراث المعماري لهذا الوطن الذي استطاع من خلاله أن يستعيد مبنى تراثيا معماريا عربيا إسلاميا، وأن يبقى في الذاكرة إلى الأبد.

ولو وجدنا من يستنطق الذاكرة،

لم تكن المسافر خانة مرجعاً للفن المعماري العربي الإسلامي فقط، إنما كانت ذاكرة للرؤية، فيها تراكمت الأزمنة والثقافات، والتواريخ والأحداث



الاسم حتى جاء المعز، فسمّاها القاهرة. وكانت للقاهرة وقت إنشائها أربعة أبواب، هي باب النصر شمالاً، وباب الفتوح وباب زويلة من الجنوب، وباب سعادة من الغرب، ولم يكن يزيد طول كل جانب من جوانب القاهرة على ألف ومائتى متر، وأن مساحتها كانت ٣٤٠ فداناً شغل القصر الرئيسى فيها خمس مساحتها. وفى عام ٩٧٢م، رمضان ٣٠٦هـ أتم جوهر الصقلى بناء الأزهر ليكون مقراً للشعائر الإسلامية الشيعية فلما استقر المعز فى قصره جمع الناس فى مجلس عام وقال لهم: هل بقى من رؤسائكم أحد، فقالوا: لم يبق معتبر لم يحضر، فأخرج سيفه من غمده، وشهره فى وجوههم قائلاً هذا نسبى، ثم نثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسبى، فقالوا جميعهم: سمعنا، وأطعنا، وقد بدا أن القمع لا يتجزأ، لأن مقولته هذه اعتبرت تجسيدا مؤكداً لفكرة القمع التى لا تتجزأ والتى نفذها جوهر الصقلى فى القاهرة المعز عندما أحاطها بالأسوار، فأصبحت سجنًا كبيراً. كان شارع المعز، ولا يزال كتاباً مفتوحاً، يؤرخ للقاهرة، ويلخص قصتها، منذ تأسيسها إلى الآن، فقد تجسدت فيه جميع مظاهر الحضارة الإسلامية، بدءاً من العصر الفاطمى، مروراً بالعصر الأيوبرى، ثم عصر المماليك البحرية، ثم الجركسية، ثم العثمانية، وقد أطلق عليه المؤرخون اسم الشارع الأعظم، وهو مواز للشارع الذى بنيت فيه المسافر خانة، لا تبتعد عنه كثيراً. وقد تركزت الحياة فى مدينة القاهرة الفاطمية، وأصبحت أساسيات الحياة الاقتصادية، وجميع الأنشطة التجارية، بين الصاغة والحكيين، التى احتوت على ٢٣ سوقاً، و٢٣ وكالة.



اكتظ شارع المعز بالمباني، وأفاض على الأحياء المجاورة، تم توسيع الشارع، وتم تشييد جامع المؤيد ومسجد برسباى ١٤٢٠م، وترميم جامع الحاكم بأمر الله ١٤٤١م. أقام قايتباى منشآت ضخمة، وأقام الغورى جامعاً ومدرسة، وشيد مجموعة تضم سبيلاً، وضريحاً. أما آخر المواكب المملوكية الرسمية التى شهدها شارع المعز، فقد جاء على خلفية بداية تصدع الدولة المملوكية، فى مقابل بزوغ نجم الدولة العثمانية.



المعز بكامله بما يحتوى عليه من أكثر من ٤٢ أثراً معمارياً، إسلامياً، فريداً. تلك كانت نواة القاهرة التى وضع أساسها جوهر الصقلى فيما يعرف بين القصرين بتعليمات الخليفة الفاطمى الشيعى المعز لدين الله الفاطمى.



عندما حضر المصريون لتهنئة جوهر الصقلى، ومبايعته، فوجئوا بأنه حضر أساس القصر الكبير الذى سينزل به الأئمة الفاطميون. وكان هذا القصر بمثابة الخطوة الأولى لتأسيس مدينة القاهرة التى أريد لها أن تكون حصناً للجيش الجديد، ومقراً لسكنى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، وبعد أن خطط جوهر الصقلى أساس القصر الشرقى الكبير، يقابله من الجهة الأخرى القصر الغربى الصغير، الذى أنشأه المعز الفاطمى الثانى، موقع هذا القصر اليوم هو المكان الذى يحتله مسجد الحسين، وخان الخليلى، وعرفت المنطقة الواقعة بين القصر الشرقى والقصر الغربى باسم بين القصرين، التى كانت مسرحاً للاحتفالات والمواكب الدينية والعسكرية، بعد ذلك شرع فى تخطيط الأحياء لنزول وفد الجيش الفاطمى. ثم ما لبث جوهر أن أحاط القصر الكبير، والأحياء الجديدة بسور حديد للدفاع عنها، وأطلق على هذه المدينة المسورة اسم المنصورية، وظلت تعرف بهذا

كنظرة بانورامية واسعة للمنطقة التى أقيم فيها هذا الأثر، وأهم الأبنية الأثرية، دون التطرق إلى التفاصيل. لأن استعادة المسافر خانة وحدها من الذاكرة تطلب عمراً كاملاً من هذا الروائى، وبدت المسافر خانة محظوظة بوجود هذا الكاتب، وتواصله مع هذا المكان، موطن العمر والذكرى، الطفولة والشباب.

إذ لا يمكن فصل المسافر خانة عن موقعها الذى صممت فيه وبنيت، كانت حالة كاملة، كنت أتمنى أن يسترجع الكاتب التاريخ والأحداث والذكريات، والشخصيات والحقب التاريخية الكثيرة التى مرت على وكالة المسافر خانة، فهل كان كل تاريخها أن الخديو إسماعيل ولد فيها، أم أن هناك شخصيات كثيرة وهامة، ولدت، وعاشت فيها ودخلتها، ومرت عليها، وما القيمة التاريخية لهؤلاء الأشخاص، وأهمية تأثيرهم ودورهم على أحداث هذه العصور التى مرت، وعلى المسافر خانة، وعلى هذا الوطن، وما هى المباني التى تم تدميرها، والأشخاص الذين عاشوا بها، وما تأثيرهم، وهل كانوا سبباً فى كل هذه الكوارث والمصائب التى مرت على هذا الوطن، وما هو الدور الإيجابى الذى ساهموا به فى رقى الوطن وتحضره، تلك المنطقة التى كانت تمر بكل حكام وشيوخ ومؤرخى الوطن.

ولماذا القاهرة الفاطمية بالذات هى التى اكتظت بكل هذه الآثار المعمارية العربية الإسلامية، بكل هذه الثروات.. بيوت تاريخية، تراثية عريقة، المسافر خانة، بيت السنارى، كتبخانة - إلى شارع

ويكتب عن دار الأوبرا الخديوية، وسلاسل المباني الأثرية التى تم حرقها بتعمد على فترات متقاربة، بتنسيق تأمرى وبخطيط مدهش سنكون بالذاكرة استعصنا عن المبنى الذى يمكن إعادة بنائه مرة ثانية بمساعدة استرجاع الأثر من الذاكرة.

هذا التسجيل لهذا التاريخ، لهذه الآثار بالتصوير، بالكتابة، خوفاً من ضياعها سيجعلنا أمام تاريخ من الجمال، من الإبداع، إذ إن الخيال لا يستوعب هذا الكم الهائل من تخريب الميادين والحدائق، والآثار المعمارية والنيل الذى استباحوه، كل هذا سيعود من خلال الذاكرة.

ينبهنا هذا إلى الخوف من المجهول، المناطق المعتمدة فى أنفسنا، ولا يمكن التفكير فى حريق المسافر خانة فى معزل عما يحدث فى هذا الوطن، من إهمال وتراخ، وتردد، لدرجة يحس فيها المتابع أن الدولة فى وادٍ، وأن الشعب والوطن وهمومه وأحلامه وأشواقه فى وادٍ آخر. لم تكن المسافر خانة مرجعاً للفن المعماري العربي الإسلامي فقط، إنما كانت ذاكرة للرؤية، فيها تراكمت الأزمنة والثقافات، والتواريخ والأحداث، تشم فيها رائحة المكان. نرى ونلمس، ونسمع، وننتفس.

ولولا المعمار لاندثرت الأفكار والصياغات المؤدية إلى تجسيد الرؤية، ولو كانت هذه الرؤية دقيقة فى تصورها وتسجيلها لأضحى الكيان المعماري مجسداً ناطقاً، شاهداً على كل ما مر عليه من انتصارات وانكسارات وأحداث جسام من تأمر، ومن فساد.

علاقة المسافر خانة

بالمكان - بالوسط المحيط

افتقدت فى هذا الكتاب تحديد الموقع المعماري للمسافر خانة وعلاقتها بكل الأبنية الإسلامية، والتاريخية الموجودة فى هذا المكان، موقعها من شارع المعز، من بيت نجيب محفوظ، من الحسين، وقصر الشوق.

وقد بدا أن هم الكاتب الرئيسى هو توضيح موقع المسافر خانة من حارة درب الطبلالوى مسقط رأس الكاتب والتركيز على انتزاع المبنى الأثرى من الخراب والدمار الذى حل به.

ولذلك سنحاول الإشارة قدر المستطاع إلى علاقته بالموقع العام الكلى،



Fabio Fabbi (Italian, 1861 - 1946), Wedding in Cairo

تضاربت الأقوال فى كثير من التواريخ، وعند الكثير من المؤرخين فقال البعض أيضاً إنه كان يضم ١٢٤ سوقاً، من بينها سوق الصاغة عند بين القصرين، وكان به ٣٩ حماماً شرقياً، لاستحمام الرجال، و٢٣ حماماً لاستحمام النساء.

هذه الأسواق كانت تضم ١٢ ألف حانوت، تضيق بالباعه، فيجلسون على الأرض بأطباق الخبز، وأصناف المعاش، وكان للشارع تقاليد صارمة، مثلاً لا يمر بالشارع دابة تحمل تبناً، أو حطباً، ولا يمر به سقاء وقربته غير مغطاة، وعلى أصحاب الحوانيت أن يضع كل منهم أمام حانوته زيراً مملوءاً بالماء خشية أن يحدث حريق مفاجئ، وأن يعلق فوق حانوته طوال الليل قنديلاً مضاء حتى الصباح.

وكان الزبالون يمرون بالسوق، يكتسونها من الأتربة، ويرشونها بالماء، وكان الخضراء بالليل يحرسون الحوانيت المغلقة، بينما ١٢ ألف قنديل تشع نوراً فوق أبوابها حتى الصباح. وكانت تجارة الرقيق منتشرة تلك الأيام، بل إن معظم سلاطين مصر الذين جاءوا بعد الفاطميين كانوا من المماليك الذين اشتراهم أسيادهم من أسواق النخاسة، والرقيق، ومن بينهم السلطان قطز قاهر المغول فى عين جالوت والظاهر بيبرس قاهر المغول أيضاً.

وفى المكان الذى يحتله الآن جامع المطهر، يوجد خان سرور، بداخله حجرة الرقيق للنساء، وإلى جوارها حجرة الرقيق للرجال، وبينهما دكة المماليك، لجلوس من يعرض منهم للبيع، والمملوك الرومى، أو التركى، أو التركمانى يباع بثمن يتراوح بين مائة دينار، وألف دينار، بعد اختبار قدرات المملوك فى الذكاء والحساب والفروسية، أمام أعين المارة من أهل القاهرة. وكان مكان جميلات العالم فى الداخل، فى غرفة الرقيق للمرجة، والفحص.

أما خان الخليلى فقد كان مقبرة للخلفاء الفاطميين، يحمل اسم تربة الزعفران، وقد قال المقرئى إنه فى عهد السلطان برقوق قام الأمير جهاركس الخليل بنبش مقبرة الخلفاء الفاطميين، وألقى بعظام المعز لدين الله، والعزیز بالله، وغيرهما فوق مزابل البرقية (الدراسة حالياً). وكانت تعرف وقتها بمزيلة مصر، وأقام سكان المقبرة خانا، أطلق عليه اسمه، ويشاء القدر أن يلقى الخليل مصرعه، ويلقى جثمانه

فوق مزيلة مصر، ولم يبق من حكاية الخليل إلا اسمه خان الخليلى.

فى مقدمته قال ابن خلدون

رأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكبرى الملك. تلوح القصور، والأواوين فى جوه، وتزهو الحدائق، والمدارس والكواكب بأفاقه، وتضىء الدرر والكواكب من علمائه.

وقال ابن بطوطة: أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد، وغيرهم قال الكثير فى مدح وذم المصريين بأسوأ الألفاظ.

فلماذا قالوا ذلك؟ هل تختزل القاهرة المعزية فى شارع المعز فقط، أم فى المسافر خاتنة، أم فى كل البيوت التراثية الأثرية التى تعج بها هذه المنطقة، وهل الكتابة عن المسافر خاتنة هى التى استدعت كل هذا التراث، إذ إنها «المسافر خاتنة» لم تبن فى فراغ، لكنها ارتبطت بكل هذه المواقع، لذا كان من الأهمية توضيح هذه العلاقة بين هذا المبنى المسافر خاتنة، وبين كل المباني المحيطة بها.

بالقرب من هذا المكان كان هناك منزل سيد الرواية العالمية نجيب محفوظ الذى ولد فيه، والذى أصبح مزاراً تاريخياً، منه خرج إلى الدنيا، وظل فيه حتى أكمل تعليمه، وتسلم أول وظائفه فى وزارة الأوقاف العمومية، وفى إحدى مدارس هذا الحى تعلم جمال عبد الناصر، وكان هناك أيضاً منزل جمال الغيطانى الذى استعاد المسافر خاتنة من الذاكرة، هذا المكان تم بناؤه بالقرب من شارع المعز، متحف الآثار المعمارية الإسلامية فى العالم الذى ليس له مثيل.

هذا المتحف سجل تاريخى، نقرأ من خلاله كل أنواع الفنون، المآذن والقباب، والأضرحة، والكتاتيب والمدارس، البيمارستانات، أبوابه، أسبلته، خاناته، تواريخ اقتصادية وسياسية وحربية واجتماعية.

هذا الشارع الذى ولدت فيه القاهرة الفاطمية قبل أكثر من ألف عام، هذا المتحف الذى يشع ثراء وثقافة، وتحضراً، كتاباً مفتوحاً لكل من يريد أن يقرأ، ومن يريد أن يعرف أن للقاهرة تاريخاً عظيماً. فى هذا الشارع عاش السلطان قلاوون، والسلطان قطز والظاهر بيبرس،

الصالح أيوب وزوجته شجر الدر، أول ملكة فى تاريخ الإسلام، والتى قادت جيوش مصر للنصر على الفرنسيين، أسرة لويس التاسع فى دار ابن لقمان فى المنصورة، وفى هذا الشارع أيضاً عاش طومانباى البطل المصرى الذى قاوم جيوش السلطان سليم الأول، والذى علقوا رأسه على بوابة المتولى، فيه عاش الحاكم بأمر الله، وبنى مسجده الذى ما زال موجوداً حتى الآن.

أما مطعم السلاطين الذى أعلنت عنه هيئة الآثار، فكان قصراً من قصور الضيافة فى عهد الخلفاء الفاطميين، فيه دار الحسبة، ومركز الشرطة وقصر الغورى.

به أكثر من ٤٢ أثراً تم ترميمها من قبل هيئة الآثار المصرية، بين جامع ومدرسة، وبيمارستان، وخانقاه، ومدرسة السلطان الصالح أيوب وزوجته شجرة الدر، فى المكان بيت السحيمي وعبد الرحمن كتحدا، وجامع السلطان برقوق، ومدرسة الناصر محمد، ومجموعة السلطان قلاوون، وجامع القاضى يحيى، وأم الفلاح، وقاعة محبى الدين أبو الصفا، وحمام السلطان دانيال ومتحف النسيج الإسلامى، ومجموعة أسبله محمد على، والسلحدار، ونفيسة البيضاء.

فى هذا المكان عاش أهم المؤرخين فى العالم العربى والإسلامى، المقرئى، وابن إياس، وابن تغرى بردى.

كيف إذن أهملت الدولة كل هذه الكنوز، فاحترقت المسافر خاتنة. وقبل ذلك زلزال زلزال أكتوبر ١٩٩٢ كيان المنطقة بأكملها وأسقط وخرّب بيوتاً، ومساجد، وأثاراً إسلامية كثيرة نادرة، فقد فقدت مصر فى هذا الزلزال أكثر من ٥٠٠ أثر إسلامى، ضاعت واختفت تماماً، وأصبحت خرابات، قبل أن يتم حرق المسافر خاتنة ١٩٩٨.

أضحت أهم منطقة أثرية إسلامية فى العالم خراباً ينقع فيها اليوم طوال أكثر من أربعين عاماً، ولا يكفى ما قامت به هيئة الآثار من ترميم لشارع المعز، فما زالت المنطقة فى حاجة لنفض كل هذا الغبار عنها.

وإذا كان الغيطانى استرجع المسافر خاتنة من الذاكرة، فإن تناولى لهذا الكتاب دعوة لإعادة بنائها، ولن نعدم الحصول على تصميماتها المعمارية حتى بالتخيل القابل للتنفيذ ولو جيشنا عشرات المعماريين لاستعادة هذه التصميمات من الذاكرة والمباني المشابهة والقيام بتنفيذها، فقط لو صدقت النوايا، وكان هناك بالفعل من يحرص على إحياء هذا

الأثر المعمارى الهام، وغيره من آثار، وفى هذا السياق فإن للتنسيق الحضارى دوراً هاماً حيال هذا الأمر.

تاريخ من الحرق

سجل الحرق الثقافى المصرى على مر التاريخ فاق الخيال، لأنه تنوع بين مبان معمارية أثرية تاريخية مذهلة وبين حرق الكتب والوثائق، والذاكرة، وأشرطة الأفلام والمتاحف ومن حرق المباني، ثقافية، تاريخية أخرى، تسجل وتؤرخ لحقبة كثيرة مرت على هذا المبنى تحديداً أو على مبان أثرية أخرى. وحرق المباني لم يكتف بحرق المعمار والحوائط والأسقف والأبواب والشبابيك، وغيرها من المرفوشات فقط، بل حرق تاريخ لحقبة مرت على هذا المبنى أو ذاك لمدد سنوات عديدة تصل إلى خمسمائة عام مثل المسافر خاتنة أو مائتى عام أو مائة عام من التراكم الثقافى والمعرفى، تواريخ اقتصادية، سياسية، ثقافية، حضارية، تستطيع من خلالها أن تعرف إذا كانت هذه الفترة فترة ازدهار، اقتصادى، ثقافى، سياسى واجتماعى، وعلمى، أم أنها فترة ضحلة.

وهذا الحريق يفتح ملفات كثيرة من الإهمال والتسيب، بالتعامل مع المؤسسات والآثار الهامة والحيوية فى مصر بطريقة يمكن تدريسها فى المعاهد، الجامعات، باعتبارها أسوأ طريقة يجب تجنبها.

كما يعيد ذاكرة الحرائق الكبرى التى جرت من قبل، والتى حدثت من بعد، تلك التى اندلعت، وشملت كل أنحاء الوطن إلى الدرجة التى رصدت فيها الأجهزة المعنية أكثر من ثلاثين ألف حريق فى الأعوام السابقة، وكان الجناة عادة مجهولين.

والغريب أنه لم يوجد أى حريق فى أى مبنى أثرى تمت السيطرة عليه، قبل أن تأتى النيران عليه تماماً، ولا تجد النيران ما تأكله.



وقد وضح أن كل المباني الأثرية التى دمرت حرقاً جسدت صورة القاهرة الحديثة التى أعطت ظهرها لقاهرة المماليك، ما عدا المسافر خاتنة، حيث كان من الصعب على عربة تجرها جياد أن

الخط أحد الفنون العربية التي لجأ إليها المعمارى لإشاعة البهجة فى التصميم الداخلى والقدرة على التوازن والاستقرار



وعد الوزير، الذى قال إن المثقفين عمالين يندبوا على خرابة»، ثم واصل سنبنى لكم غيرها.

نفس ما قاله عن الأوبرا القديمة التى قال عنها أنها شوية خشب بغدادلى وحرص فى كل تعديل وزارى أن يقدم رسومات تصميمات دار الأوبرا المحترقة مكان الجراج، بصفته أنه سيقوم بهدم الجراج، وإعادة بناء دار الأوبرا الخديوية بشكلها وحالتها القديمة كمشروع قومى، وهو ما لم يحدث حتى الآن، وكان من الأهمية البعد عن هذا الجو، لأن كل مختلف معهم بالضرورة هو عدو، هم الذين يتحدثون عن الحوار المفتقد مع الآخر، إلا شارع المعز، وبقي لى أمل واحد فى هذه الحياة، أن أرى المتحف الكبير، متحف العالم قائماً.

الأوبرا الخديوية

هى المكان الذى أراد له الخديو إسماعيل أن يكون معبراً عن واجهة مصر الثقافية فى عصره، لتقدم فنون الموسيقى والمسرح والأوبرا الرفيعة، اقتداء بالدول الأوروبية، كانت ثانى دار أوبرا فى العالم بعد الأوبرا الإيطالية.

وكانت قد اندلعت فيها النيران فجأة فى ١٠/٢٨/١٩٧١ بعد ١٠٢ عام على تأسيسها ولأسباب مجهولة حتى الآن، كان المبنى بالكامل من الخشب البغدادلى، الأمر الذى ساعد على انتشار النيران بسرعة كبيرة.

احترقت كل مقتنيات الأوبرا الثمينة من لوحات فنية، وأصليّة، وآلات ونوت الموسيقي التى تركتها الفرق الأوروبية تذكراً، وتقديراً للمكان، ولم يتبق من كل هذا سوى تمثال نهضة الفنون للفنان المصرى محمد حسن، التمثال الذى كان موضوعاً على مدخل الأوبرا، فلم تطله النيران التى بدأت من الداخل، حتى أتت عليه كاملاً.

تم افتتاح دار الأوبرا قبل افتتاح قناة السويس فى ١٨ نوفمبر ١٨٦٩، لكن أول العروض التى شهدتها تأجلت إلى ما بعد ذلك بعامين لأن إسماعيل كان يريد لها افتتاحاً مبهرًا، يتناسب مع شكلها المعماري الرائع، بعدما استعان بمصممين إيطاليين، الموطن الأصلي لفن الأوبرا.

حرص أثناء التصميم على القيام

بتخطيط ميدان فسيح أمامها، منتظم الزوايا، وضع

تكرار الأمر، وبدأ أن مرض حرق الآثار ليس سياسياً، لكنه مرض ثقافى فى المقام الأول.

كان هذا القصر يعانى من الإهمال الشديد منذ زلزال ١٩٩٢، تم صلبه تمهيداً لترميمه، إلا أن الإهمال والحريق وصل إليه أثناء الترميم وبسبب استخدام المياه فى عمليات الإطفاء تهدمت حوائط القصر الأثرى، وما زال أنقاضاً.

ولقد شهدت الآثار الإسلامية عدة حرائق، فقد حرق سبيل قيطاس بالجمالية فى شهر مارس ١٩٩٩، وفى نفس الشهر وقع حريق فى ورشة أخشاب فى الفناء الداخلى لسقيفة رضوان بالمغربلين المعروفة بقصبة القاهرة.

وفى أوائل الألفية الجديدة وقع حريق بوكالة بازراعة بشارع المعز لدين الله الفاطمى.

وعند احتراق مجلس الشورى، كانت هناك التصميمات المعمارية الإنشائية لهذا المبنى، ولقد احترقت هذه التصميمات أيضاً ضمن ما احترق من وثائق ومحاضر المجلس، لكن مبنى المجلس مازال موجوداً ويمكن رفع المبنى، وإعادة الرسومات والتصميمات من الطبيعة، رغم أن التصميمات الداخلية والحليات النادرة دمرت تماماً.

أما فى حالة المسافر خانة فلم تكن هناك تصميمات معمارية، وقد تهدم المبنى عن بكرة أبيه فهل باستعادة المسافر خانة من الذاكرة نستطيع «أن نحدد الوظائف العضوية للتصميمات المعمارية الداخلية حتى يمكن إعادة بنائها.. كما

كان يضم نماذج مختلفة، ومبهرة، لفنون العمارة العربية، والإسلامية من الأرابيسك والرخام، والفسيفساء، والزجاج الملون بشكل ينسق مع ارتفاعه الكبير ٢٢ متراً. يحتوى على الأنواع المتعددة من الخطوط، التى تزين كامل المبنى، معبرة عن الرضا والشوق والسكينة، فى إيقاع بصرى مريح للقلب والعين، تسر خاطر، وتبهجه، وتفرحه، وتعطيه الأمل والرغبة فى الحياة.

دخل قصر المسافر خانة اهتمام الدولة عام ١٨٩٧، عندما سجلته لجنة الآثار العربية وتم ترميمه لأول مرة عام ١٩٢٨.

وقد قالت الجهات الرسمية إن النار أتت من القمامة التى كانت بالقرب منه وقام الأهالى بإشعالها للتخلص منها.

كيف أصلاً يكون هناك أثر بهذه الأهمية وإلى جواره كل هذه الأكوام من القمامة، لكن الأهالى يقولون إن النار جاءت من داخل المسافر خانة، وإنهم من أيقظوا الحارس لينقذ نفسه وحتى يبلغ الجهات المختصة.

لم تستطع سيارات الإطفاء إنقاذ شيء من الآثار وأتت النيران عليه كاملاً، ولم يتبق منه الآن إلا بقايا بلون الرمد.

وقد هاجم الشرفاء من المثقفين السياسة الأمنية لهذه الثقافة المتصدية للحفاظ على الآثار، وقد اتهموا هيئة الآثار بالتراخى وعدم الجدية فى الحفاظ على الآثار، وعدم حماية وتأمين مثل هذه الأماكن الأثرية بالشكل الأمثل. ووعود حكومية بعدم

تسير فيها، وحيث كانت أكوام القمامة هى العلاقة المميزة لها، وحيث كان يزورها الطاعون مرة كل عشر سنوات ويسحق عدداً هائلاً منها.

وكان لضيق الشوارع، والأزقة، فائدة أمنية معروفة، خاصة المتاهات التى لا يعرف الهروب منها إلا ابن المكان، المدارس له، وكانت مصيدة لأى غريب يحاول أن ينتهك خصوصية المكان فالناس تعرف بعضها بعضاً.

ومن حقنا أن نتساءل بناء على تواريخ الحرق التى اجتاحت الوطن فى هذا الأوان كم مبنى مرشحاً للحرق فى هذا الوطن، وهل للمباني التى احترقت أية أهمية فى نظر القائمين عليها؛ المسئولين عنها؛ إذ تحتوى القاهرة وحدها على أكثر من ثلاثة آلاف مبنى أثرى تاريخى.

وهل يستطيع عاقل أن يستوعب ما حدث عندما انتزعت أهم عناصر الحليات العربية الإسلامية من المسجد الجامع، الأزهر الشريف، عندما أخذت وزارة الإسكان على عاتقها ترميمه، دون إبداء أية اعتراضات من هيئة الآثار، وبفضل هذا الترميم أخرج اليونيسكو الأزهر الشريف من نطاق المباني الأثرية.

نفس ما حدث للأزهر يحدث الآن للمبنى المعماري الأثرى محطة السكة الحديد، غير الموجود له أى مثيل فى العالم، مثله مثل آثارنا المعمارية الإسلامية جميعها، فى جميع أنحاء الوطن.

لقد اجتاحت الوطن سلسلة من التخريب والحرائق، إن لم تعبر عن تعمد وفساد فإنها تعبر عن جهل فاضح، ورؤية عدم وعى المسئولين بأهمية ما نملك، من تاريخ وحضارة وتراث، وأن هناك تساؤلات، واتهامات لجهات بعينها، ومعتقدات دينية بمتابعة هذه الآثار، والتخلص منها، من التواريخ، والحضارة، والتراث حتى يستفيد البعض من مواقع هذه الآثار النادرة، والتخلص من التباخر والتباهى بها فى الآن ذاته، حتى لا يبقى لنا تاريخ، حتى يمحوا آلاف السنين من حضارتنا.

سلسلة من الحرائق تعبر تعبيراً دقيقاً عما وصل إليه حالنا فى جميع مناحى الحياة من انهيارات، وتسبب، وعدم مسئولية.

أهمية المسافر خانة أنه أثر معمارى، تاريخ إسلامى نادر، جعله محمد على مكاناً مخصصاً لاستقبال كبار زوار مصر من دول العالم لفترة طويلة.



Jean-Léon Gérôme, 1824 - 1904,
Harem Women Feeding Pigeons in a Courtyard



فيه اسماعيل تمثال أبيه ابراهيم باشا بعد أن نقله من ميدان العتبة.

حضر الاحتفال بافتتاحها الذي واكب افتتاح قناة السويس ملوك أوروبا ورؤسأؤها، بتاريخها الذي سجلته بفنها، بحضارتها، انتصارات الوطن وانكساراته، لذا عم الشعب المصرى حزن عميق لاختفائها من خريطة القاهرة، وكان المصريون يبكون أمام المشهد الرهيب، حتى من لم يدخلوها فى حياتهم، ولا يعرفون ما يقدم فيها من فنون.

إننى أمل أن يفهم المسئولون قيمة هذا الصرح الفنى الراقى الذى كان مؤثلاً لكل فرق العالم، والذى كنا نباهى به العالم، بأنه معلم من معالم القاهرة. وقد ارتبط افتتاحها بافتتاح أعظم ممر مائى على مر التاريخ، وحتى الآن، وأن دماء ما يقرب من مائة وخمسين ألف مصرى أريق فى حفر قناة السويس مرتبطة بتاريخ بناء هذه الأوبرا، فهل كانت مجرد خشب بغدادى؟ أم كانت كل هذه التواريخ، من الافتخار والعزة والحضارة والمباهاة والريادة.

إن التاريخ لا يشتري، التاريخ له رجاله الذين يصنعونه، إذ إنه حروب وانتصارات وانكسارات، وتقدم، وبناء، وعرق، ودم، وتراث متراكم من المعارف والثقافات والأزمات، ولئن تلقى تبعة مسئولية حرق الأوبرا على عاتق هذه الثقافة أو تلك التى أخذت على عاتقها إعادة هذا الأثر لسيرته الأولى الذى هو حلم أمل أن يتحقق مثله مثل المسافر خـانة.

الشـورى

كان الحزن صادماً، والدموع تتساقط من أعين الشعب، عندما احترقت دار الأوبرا فى ١٩٧١، وكانت مفارقة عجيبة عندما احترق مجلس الشورى، إذ عبر الجميع عن منتهى الشماتة فى المجلس وأعضائه، وداعين على مجلس الشعب، ومجلس الشورى بمن فيه، بالموت والتدمير حرقاً، مثلماً دمروا البلد ونهبوه.

مبنى مجلس الشورى نموذج معمارى فريد يعود تاريخ بنائه إلى عصر إسماعيل، أسقفه وأرضياته شيدت من الخشب، وتصميمه وطرزه المعمارى يرجع إلى فترة عصر النهضة، كما قالوا، إلا أنه يمثل عدة طرز معمارية فريدة، ويعد أحد المباني المعمارية النادرة، الذى

يعبر تعبيراً دقيقاً عن فترة من أزهى الفترات التى مر بها الوطن.

وإن ما جرى فى حريق مجلس الشورى يمكن أن يكون بروفة لحريق كبير يمكن أن يشعل قلب القاهرة، ووسط العاصمة من أصغر شرارة.

وإن كارثة هذا الحريق أن هذا المبنى يمكن أن يكون رمزاً لإرادة الشعب، فى مواجهة الحاكم، فهل كان المطلوب أيضاً القضاء على هذا الرمز العلمانى، هذا الرمز «مجلس الشورى» الذى شهد محاكمة أحمد عرابى ورفاقه بعد هزيمة التل الكبير، واقتضت محاكمة عرابى جمع العديد من الوثائق بمراحل الثورة العربية، التى اعتبرت دليل اتهام ضد عرابى ورفاقه.

إن كافة الوثائق المتعلقة بالحياة النيابية المصرية، منذ أول مجلس تشريعى تشكل سنة ١٨٦٦ كانت بمقر مجلس الشورى المحترق رغم أن القانون يفرض أن تكون هذه الوثائق لدى دار الوثائق القومية.

وقد تدولت أحاديث كثيرة عن مصلحة رجال أعمال هذا الأوان فى حرق هذه المباني الأثرية. خاصة مجلس الشورى، لما يمثله موقعه الهام ومساحته الكبيرة وهدم المباني التاريخية القديمة التى تمثل أماكن هامة فى القاهرة ومساحتها لاستغلالها فى المباني التجارية، والصفقات العقارية التى تدر المليارات.

المسرح القومى

إن مسلسل الحرائق يواكب ثقافة ترفض وتناهض التراث وتزدريه، وتريد إلغاء لصالح ناطحات السحاب، تلك التى هى أهم من الحفاظ على الآثار، والكنوز المعمارية القائمة، والتى تأكدت نظريتها وفلسفتها فى الأوان الأخير، عندما عرضت للبيع عمارات وسط البلد الأثرية والتاريخية.

وهل هناك مغزى أخلاقى خاص لحرق صرح ثقافى وتنويرى وفكرى مثل المسرح القومى الذى على بعد خطوات منه مركز إطفاء العاصمة؟ مثله مثل الأوبرا تماماً.

وقد رأت الجماعات الإسلامية فى حرق المسرح القومى مكان اللهو والتهاكت، غضباً من الله، وعقاباً.

هذه الجماعات عينها غير مبرئة من حرقه، تلك التى أقامت مسجداً بجوار المسرح القومى، ولا يستبعد أن تكون أرادت

توسيع المسجد فخريت المسرح، علماً بأن المسجد أقيم عنوة بدون ترخيص، بوضع اليد على مساحة فى حديقة تابعة للشعب، بطريقة الابتزاز والبلطجة، وهل يرضى الإسلام بذلك؟

قصر الجوهرة

هذا القصر تعرض لحرائق عديدة كان آخرها عام ١٩٧٢ وهو أكبر الحرائق التى دمرت الأثر، الذى كان يحتوى على مجموعة من التحف النادرة، والأثاث الفخم، ورغم كل أعمال الترميم التى تمت، وتكلفت الملايين من الجنيهات إلا أنه لم يرجع إلى أصله.

هذا القصر الذى كان يقع فى الجهة الجنوبية الغربية من القلعة، والذى قام ببنائه محمد على باشا، على أنقاض عدد من القصور القديمة.

وكان مقراً للحكم منذ إنشائه عام ١٨١٤، وكان يتميز بمجموعة من القاعات والغرف التى زينت جدرانها وأسقفها بنقوش وزخارف مذهبة من طراز الروكوكو الذى يتميز بالوحدات الزخرفية المتكررة، والمناظر الطبيعية.

أتذكر كيف انبهرنا بمراياه البلجيكية العريضة والمرتفعة والتى تغطى كامل الحوائط عندما زرناه فى رحلة مدرسية فى الستينيات.

تواريخ من الحرق لمبان منتقاة ذات مفهوم محدد فى عمق الشعور المصرى، مرجعه الإهمال، غياب التوقع، الاستسلام، الاسترخاء، عدم الشعور، عدم الإحساس، التبلد، خضوت الطاقة ووهنها والرغبة فى عدم العيش فى أى نوع من أنواع الخطر، جشع رجال الأعمال، الجراد الجديد الذى يأتى على الأخضر واليابس.

وقد تناولت فى كتابى «ثقافة الهزيمة» محرقة مسرح بنى سويف ولئن أكرر وأعيد تناولها، لأن حرق جيل كامل من المسرحيين يجلل رعو سنا جميعاً بالخجل والعار إلى الأبد.



وهل نتناول حريق القاهرة إبان ثورة يوليو، الذى أدى إلى إسقاط حكومة الوفد الشعبية، وإنهاء المقاومة الشعبية فى القناة، أى أنه استخدم أساساً فى التخويف من الحريات ومن الديمقراطية.

وهل نتناول حرائق القلعة، والمتحف

المصرى، ومكتبة الإسكندرية، هل نتناول المحارق المتعددة للقنارات، هل نتناول محرقة العبارة، أم أنه بناء على ذلك علينا أن ننبه بأننا فوق بركان قادم من الحرائق للوطن بكامله.

استعادة المسافر خـانة

عندما انفجرت الثورة الأمريكية ضد بريطانيا كانت هناك مدينة صغيرة تسمى «وليامز برج» هى القلب النابض، والمحرك للثورة، خرج منها كل الثوار، وقد اندثرت البلدة الصغيرة مع الزمن وضاعت معالمها وأهميتها، ثم شب حريق كبير فى البلدة المهمله فأتى عليها، ومر على ذلك وقت طويل اختفت فيه القرية تقريباً من خريطة الولايات المتحدة، ويقول المفكر والكاتب الكبير أحمد بهاء الدين فى كتاب أعده الناقد عبد الرحمن أبو عوف لجهاز التنسيق الحضارى: بعد هذه الأحداث بما يقرب من مائتى سنة أى منذ ٢٨٠ عاماً تقريباً من الآن ظهرت فى الولايات المتحدة فكرة لبعث هذه القرية من جديد، لهذه القطعة من الأرض، التى تحمل أعز ذكريات البلاد، فلا يجب أن تبقى هكذا مجرد أرض جرداء. ليس فيها سوى أنقاض المباني وأشجار الغابات، وكان ذلك فى الفترة ما بين ١٩٢٥ - ١٩٤٥، وعلى مدى عشرين عاماً.

وكانت الفكرة هى إعادة البلدة إلى ما كانت عليه أيام الثورة بالضبط، ليس فى المباني فقط، لكن حتى فى طريقة الحياة. كان المطلوب أن تعود المدينة ببيوتها، ومبانيها الرسمية، وسكانها، وملابسها التاريخية ودكاكينها المشهورة، تماماً كما كانت منذ تاريخ احتراقها.

وقد أعدوا مركزاً هائلاً اسمه «مركز وليامز برج السياحى» فيه كل البيانات والصور والمعلومات عن هذه المدينة، فى هذا المركز عينه يعرضون كل ساعتين فيلماً تدور قصته حول البلدة وحوادث الثورة فيها كما حدثت، بكل شخصياتها وأقطابها وأماكنها، فيلماً تاريخياً ملوفاً، يراه الزوار قبل أن يزوروا مواقع الأحداث.

وقد تكونت لجان ضخمة من المؤرخين والمهندسين، والمنقبين، وأنفقت هذه اللجان سنوات فى البحث والتنقيب لكى يعرف الزائر كيف كان كل شىء فى البلدة أيام الثورة.

كانوا يبحثون عن مكان قصر الحاكم

هل هناك مغزى أخلاقي خاص لحرق صرح ثقافى وتنويرى وفكرى مثل المسرح القومى الذى على بعد خطوات منه مركز إطفاء العاصمة؟



لكن هذا المكان وجد بين قصرين، القصر الشرقى الكبير، والقصر الغربى، وفيما عرف ببيت القصرين، قصر المعز لدين الله الفاطمى، وقصر المعز الثانى الأصغر منه، وهذا المكان فى ذلك التاريخ هو نواة القاهرة الفاطمية.

وقد بدا أن الآثار المعمارية الإسلامية بما فيها المسافر خانة، نالت قسطاً من الإهمال على مدى تاريخها، فالمسافر خانة بدا عليها الإهمال فى نهاية الستينيات قبل أن يهتم بها ويرممها ثروت عكاشة، بطريقة علمية، هى وآثار معمارية عربية أخرى.

نوعيات من الأبنية غير المتشابهة، المتعددة، تدخل فى التخطيط، الخوف من الهجمات التى تعددت على أزمدة متغيرة، التخطيط، والفنون، الواجهات، المشربيات، المداخل المنكسرة، الحانات، الوكالات، البيمارستانات وغيرها، تلك التى لا نستطيع أن ننزعها من الذاكرة، لذا كان قصر المسافر خانة أحد أهم المراكز المكونة للقاهرة الفاطمية، بأسواره المرتفعة، ولونه الرمادى القاتم الذى كساه الحجر المنحوت، وعلى مدى التاريخ لم يستطع أحد قراءة التفاصيل الداخلية للمسافر خانة إلا إذا دخلها، ولم يكن هذا ممكناً، فأقام السكان علاقة مع الذكرى، مع الحيوانات التى كانت واختفت، ولأن التفاصيل لم تكن معروفة لذا نشط الخيال، وتوالدت التفاصيل والحكايات. فمن الذى شيد هذا المبنى الغامض، تضاربت الأقاويل، لكن هناك إجماعاً عند البعض على أن محمود محرم شهبندر تجار القاهرة هو الذى شيد هذا القصر أو الوكالة فى تسمية أخرى، وهى تسمية دقيقة.

فى ظنى أن هذا الكتاب هو صورة للحياة الاجتماعية فى الوسط المحيط بقصر المسافر خانة، هو القبض على اللحظة الحميمية فى حياة المؤلف، فى هذا الأوان، هو استعادة هذه الحميمية والألفة العائلية، وأن المسافر خانة تكتنّ لاستعادة كل هذا، لاستعادة الشباب والزهو المنقرض.

المكان إذن لا ينفصل عن الوسط المحيط، ذاكرة المكان، ذاكرة الموقع وبقدر حزن الكاتب على فقد المسافر خانة كان حزنه أيضاً على أن هذا الدرب الذى نشأ فيه، قد فقد هو الآخر جزءاً رئيسياً من ذاكرته، وفقدت القاهرة القديمة مركزاً للإشعاع، وبث الخصوصية.

إنما المكان أيضاً من الذاكرة، أقسامه تبدو

كان ارتباطه منذ البدء بهذا المبنى الذى يقع فى قلب القاهرة القديمة ارتباطاً بأثر رجعى، يراه يضارع الحمراء، وإيوان كسرى، وطوب قابى سراى، وصوله باشا.

الحنين والفقد إلى المبنى اعتبره الكاتب فقداً لمراحل من عمره الشخصى، فلجأ إلى الذاكرة، التى أسعفته، ربما لتراكم المشاهدات والحنين، وحضر التفاصيل فى الذاكرة التى حاول من خلالها استعادة أشكال الجدران والأسقف والمشربيات والزمن اللا مرئى والمعنى الخفى.

مبنى المكان المحيط مؤرخ لرجال الثورة الذين وقفوا فى شرفة أحد البيوت وخطبوا وأثاروا الانتباه.

بالقرب منها ولد عبد الوارث عسر، يسجل الروايات بتفاصيل دقيقة أسماء بيوت وحوارى، ودكاكين، وأفراح، وباعة، أماكن ضيقة حميمة، يعرفون أى غريب يدخل إليها، اكتشاف المجهول الذى لا يبعد إلا أمتاراً عن البيت.

يتذكر أن جدران المسافر خانة رمادية، عالية، مدخلها الموارى «المنكسر» حسب التعبير المعماري الذى لا يكشف من بالداخل.



وقد لاحظ أن فى القاهرة القديمة يتجاور القصر، والربع والحوش، نجد الأشد ثراء بجوار الفقير والدرويش وابن السبيل، وأزمة ترث الأزمنة.

القلقشندى «الكلام فى منزلة الهواء يمكن أن يفنى ما لم تقلده الكتابة، وإذا كانت الرواية المقروءة تكتب التاريخ فإن العمارة أيضاً تكتب التاريخ.

عندما علم بحرق المسافر خانة أصابه كمد عميق، رغم أنه فى حالة دائمة من التوقع لكل ما هو مزعج بالنسبة لآثارنا والتى كما يقول الغيطانى لم تعرف هواناً، ولا إهمالاً كما جرى لها خلال السنوات الأخيرة.

فى ظنى أن كتاب المسافر خانة شفاء من وهم التخيل بإمكان أن يجد هذا البناء قائماً ذات يوم، وأنه لا يصدق ما حدث، وأنه سيمضى إلى درب الطبلالوى وإلى مدخلها الجميل، عابراً إلى الفناء الداخلى، حيث الفن والتاريخ النادر، واللحظات الأقل، بأصواتها النبيلة.

ارتبط هذا المبنى بطفولة وشباب المؤلف، أفق حياة، أقدم لحظات حياته، ولقد وعى بأن هذا المبنى لا مثيل له، أول رؤيته له مبنى هرمى الشكل من الخشب، وعرف فيما بعد أن هذا جزء من بناء قديم اسمه المسافر خانة، وأن هذا الجزء اسمه «ملقف» فى الطفولة تتضخم الأشياء، المباني، والشوارع، حتى الأشخاص.

المبنى مثير للغموض وللخيال، مهجور، خاوي، ممرات تحت الأرض، أخشاب لا نظير لها، كتابات سحرية فوق الجدران.

هذا البناء الفخم، الضخم، ذو الأسوار العالية، له مدخل لا يكشف عما يحتويه الداخل، تحتفظ بالماضى الذى يندثر ويولى.

البريطانى، ثم يبحثون عن رسومه الهندسية الكاملة، ثم تصميم الآثار الذى كان موجوداً فيه، الصور والتماثيل والزخارف، لون الجدران والستائر، تصميم الحديقة، حتى المطابخ وحجرات الخدم واسطبلات الخيل.

ويقول بهاء المفكر، صافى العقل، مرتب التفكير، منظمه، إنه فى سبيل تجميع هذه المعلومات كانوا يسافرون إلى لندن ليلبحثوا فى السجلات هناك، ويعودوا إلى الصور والوثائق، وكل ما يمكن العثور عليه، حتى إذا أقاموا مبنى قصر الحاكم البريطانى من جديد أعادوه كما كان بالضبط، وفى مكانه بالتحديد، ولقد استمر هذا الجهد لمدة عشرين عاماً.

وبهذا المجهود العجيب أقاموا قصر الحاكم العام، ومبنى الكونجرس الصغير، والحانة التى كان يلتقى فيها جورج واشنطن وجيفرسون، ثم أقاموا مكتب البريد، ومطبعة الصحف والمطاعم والحانات الرئيسية، والسجن، والمقصلة، ومقر الحامية العسكرية، ثم أقاموا بعد ذلك عدداً كبيراً من البيوت والمساكن، كما كانت بالضبط، ثم أقاموا الدكاكين الرئيسية كما كانت.. الحداد، والنجار، والصائغ والفرن والمطبعة ومحل الأزياء باعثن فيها الحياة. مدينة كاملة تم بعثها من العدم.

بهذه المفاهيم عن أهمية الآثار والتاريخ والتراث أعاد الأمريكيون تاريخهم وأعين بأهمية هذه الأمور الهامة والمنعطفات التاريخية فى تاريخ الشعوب.

كذلك فإن مثقفاً وروائياً مصرياً مهموماً قرر أن يأخذ على عاتقه استعادة المسافر خانة من الذاكرة، فماذا فعل بمفرده؟

إننا فى حاجة إلى هذه الآثار التاريخية التى تكون شخصيتنا على مدى التاريخ وترميمها وتحويلها إلى أماكن يرتادها الناس، ويستعملونها، ويعيشون جوها التاريخى يتأثرون بعظمة الأجداد، لا مجرد كهوف خاوية مظلمة، مثلما فعلت هيئة الآثار عندما استعادت شارع المعز، ورممت أكثر من ٤٢ أثراً، وأعادتها إلى سيرتها الأولى.

قام جمال الغيطانى باستعادة المسافر خانة على الورق، فحفظ المبنى من الاندثار، وأنه يمكن الرجوع إلى كتابه هذا فى حالة ما إذا قررت الثقافة إعادة بناء المسافر خانة.

وفى صبح الأعشى يقول



Frederick Arthur Bridgman (1847 - 1928)

منفصلة، متصلة... هل يقصد بالأقسام التصميم والتوزيع الداخلي المعماري للمكان. وسقف المسافر خاتمة من الذاكرة مغطى بالخشب تختلف الزخرفة من موضع إلى آخر.

في المباني العربية القديمة ثمة أحواش «باثيو» لاتصال الأرض بالسماء والاتصال بالخالق، هذا ما قال عنه «ثمة مساحات تنفذ مباشرة إلى السماء، مصدر الضوء والتهوية».

يحتوى المكان على قاعة المجد، سقف من الخشب، الزخارف واضحة، تكوينات بدیعة تستوحى الكون من مجرات وأقلاك سابعة ونجوم.

تستعيد الذاكرة الجدران والمشربيات، ومقاعد الرخام المتصلة بالجدران. وموائد الرخام الملون الأبيض، الأسود، الأحمر.

كان الطعام يوضع فوقها، فى الأسفل جمرات الفحم مشتعلة، الحلوى من كل صنف.

نافورة كانت مصنوعة من الرخام الملون، يتدفق منها الماء فى الصيف لترطيب الجو، يستعيد القبة، الشخصية، التى كانت تتوسط قاعة المجد التى كانت متحفاً حياً لفنون الخشب والرخام والضوء، والخط، هذه هى علاقة العمارة بالفنون موضعاً أنه فى المسافة ما بين الأرض والسقف حزام من خشب حول البيت كله، ربما لحمايته، عليه كتابة هى قصائد من الشعر «البردة»، أبيات رقيقة نادرة.

بتفاصيل أكثر دقة يتذكر السقف، تواريخ الأسقف، أشكالها منذ الزراعة. رابطاً بينه وبين السماء، من خلال اللون، أو ذكر النجوم صراحة، أو تلميحاً من خلال المقرنصات أو الحشوات أو الأشكال الهندسية الموحية، المطابقة أو القريبة.

السقف متنوع وممتد عبر العمارة العريقة، وكانت المسافر خاتمة متنوعة الأسقف لا يشبه أحدها الآخر. مركزها جميعاً سقف قاعة المجد، قبة خشبية، تتوسطها نجمة مثمانية بغدادية تحيط بها أشكال هندسية متداخلة، تؤدى إلى أنصاف قباب محيطية، أيضاً ثمانية.

يقول الغبطانى إن الثمانية رقم مقدس، إذ يرمز إلى أبواب الجنة، وهذا التكوين، فهل هو كذلك أم أنه الرقم سبعة إذ للجنة سبعة أبواب كما يعتقد البعض.

يذكر أيضاً أن هذا التكوين كان يتخلل فراغاته زخارف ورقية مستوحاة من الغصون، وتداخلها، والزهور... هذه الفنون، وهذه التفاصيل الدقيقة هى

العلاقة بين العمارة وبين الفنون التى تستطيع العمارة أن تستوعبها، أيا كانت، بما فيها الرواية ذاتها.

لأنه بدا لى وأنا أقرأ هذا الكتاب كما قلت من قبل أننى بصدد عمل روائى متخيل له كثرة من الواقع، قد تخون الذاكرة أحياناً، وقد يمتلئ المكان بنوع من الخيال الروائى، يقوم بملء فراغ الواقع الحقيقى غير المتذكر.

تلك الوحدات الزخرفية النجمية كانت من العاج المحفور له مكان فى الخشب من سن الفيل، عظام الجمل، أو الجاموس.

وهناك تكرارات كثيرة خاصة موضوع الماء والنافورة، وقد ذكر هذا فى أكثر من موضع، يرى المؤلف، وهى رؤية صائبة أن المسافر خاتمة لم يكن مرجعاً للفن المعماري العربى الإسلامى فى مصر فقط، إنما كان ذاكرة للرؤية الفنية، ولولا المعمار لاندثرت الأفكار، والصياغات المؤدية إلى تجسيد النظرة التى كان يتطلع من خلالها القوم إلى الواقع اليومى، وقد عبر المعمارى المصرى بكل تراثه المتعدد أيضاً عن الاختلاف، فوقفنا أمام مستويات متعددة لأرضية المسافر خاتمة، إذ إن لقاعة المجد خمسة مستويات ظاهرة للبعض بمجرد عبور الباب.

الخط أحد الفنون العربية التى لجأ إليها المعمارى لإشاعة البهجة فى التصميم الداخلى والقدرة على التوازن والاستقرار، فارتبط هذا الفن بالعمارة وازدهر، ولو لم تكن هناك عمارة لما كان هذا التنوع المتعدد والمتفرد للخطوط على تلك المساحات الشاسعة عرضاً وطولاً، مساحة وسقفًا، فأينما تكون فى

أى مبنى أثرى خاصة المساجد يمكن أن تكون هناك خطوط متنوعة، تفتن الخطاط العربى فى تنسيقها مثلما حدث فى تاج محل مثلاً.

يستند الروائى بالذاكرة ليروى حرف الخط، متوالية، متتابعة، متعاقبة، مشتبكة متلاقية، متفرقة، صاعدة، هابطة راکعة.

وقد ارتبط الخط العربى بالآيات القرآنية، وإنك إذا رأيت جداراً رسم أو حفر عليه خط تدرك على الفور أنه عربى إسلامى فى الآن ذاته، وستجد دائماً أنه أعلى من قامة الإنسان وأنه يتضاءل أمام الآيات التى تجبره طريقة كتابتها على النظر إلى أعلى.

الفن إذن ليس إلا وسائل للتعبير والتقرب وتجسيد العبادة من خلال العمارة ذاتها التى تذكر بأقواسها، ومقرنصات، وزواياها، سنونها، كوابيلها، مدخلها المنمنمة المكتوب عليها عبارات الهدوء والسكينة.



فى هذا المكان امتزجت آيات الخط العربى بالآيات الإسلامية بالشعر الذى ملأ المكان بالعمارة، بكل لحظة فى حياة البشر، كان الشعر جزءاً من العمارة القاهرية.

وقد استدعت الذاكرة فيما استدعت الأبواب المختلفة والمتعددة، تلك التى كانت وسيلة أيضاً لحفر الآيات القرآنية عليها والأشعار، وقد استعرض الأنواع المتعددة للأبواب، وقد أعدت «أخبار الأدب» التى يرأس تحريرها الغيطانى عدداً

كاملاً نادراً عن الأبواب لم يذكر فيه هذا الباب الوهمى الذى يطالعنا فى المقابر المصرية القديمة، والتى وصلتنا سالمه أو شبه سالمه فى سفارة وطيبة، وسائر أنحاء مصر، أبواب محفورة فى الجدران، مزخرفة، عليها كتابات مقدسة، رسوم تتصل بالعقيدة، وصاحب المقبرة، الباب الرمزي، الذى يقول كل شىء، ولا يفصح عن شىء، والذى لا يمكن اجتيازه إلا بالخيال فقط.

هناك تفاصيل لم يوضحها الكاتب ولم يذكرها أو يحددها، ومعلومات هامة، وهى مثلاً ما هو ارتفاع المبنى، علماً أن هناك مصادر أخرى ذكرت أن ارتفاعه اثنان وعشرون متراً وقد ذكرت ذلك فى سياق هذه الدراسة. أى أنها حسب الارتفاعات المتعارف عليها حالياً كان عدد أدوارها سبعة أدوار.

لكنه لم يوضح ذلك، ولم يوضح كم عدد الأدوار التى كانت موجودة حينذاك، لأن ارتفاعات الأدوار الآن تختلف عن ارتفاعات الأدوار عندما بنيت المسافر خاتمة.

ولم يوضح الأجنحة التى كانت موجودة، وعددها، وهل هى أجنحة دوبلكس أم أجنحة مفردة، لأن الدوبلكس تحتوى على سلالم داخلية كظيلاً خاصة مثلاً، وما هو عدد الغرف، وكم تشغل من مساحات المبنى سواء الغرف أو الأجنحة، وكم عدد القاعات، المطابخ، المطاعم، دورات المياه، صالات الاستقبال، والفسيقيات، وما هى المساحة الكلية للمبنى، أطوال أضلاعه، علاماته المعمارية المميزة، بخلاف المشربية تلك.

مساحة قاعدة المجد الرئيسية التى تعلوها الشخصية، ارتفاعها، الباثيو الداخلى، الفضاءات، عدد المداخل، السلالم الرئيسية، سلالم الخدم، سلالم الهروب، عرضها ارتفاعات الدرج ونوعه، حتى يمكن مساعدة من يريد إعادة بنائها، وحتى نتخيل هذا الرعب الذى كان يعيشه فى صغره.

وقد أشار إلى الملقف وهو أحد العناصر الهامة فى العمارة العربية الإسلامية. وإن كانت إشارة عامة، وليس بتفصيل دقيق.

لكنه رسم تفاصيل المكان من ذاكرته، بشكل مكتوب، له مصداقية، خاصة أنه قضى جزءاً كبيراً من طفولته وشبابه وحتى الآن فى هذا المكان الذى كان يسكن بجواره، وأول ما يفتح عينيه، يراه، فهل تأخذ هيئة الآثار على عاتقها إعادة بناء المسافر خاتمة مستعينة برؤية وجهه المخلصين فى هذا الوطن. ■



Jean-Leon Gerome, Prayer on the Housetops, 1865

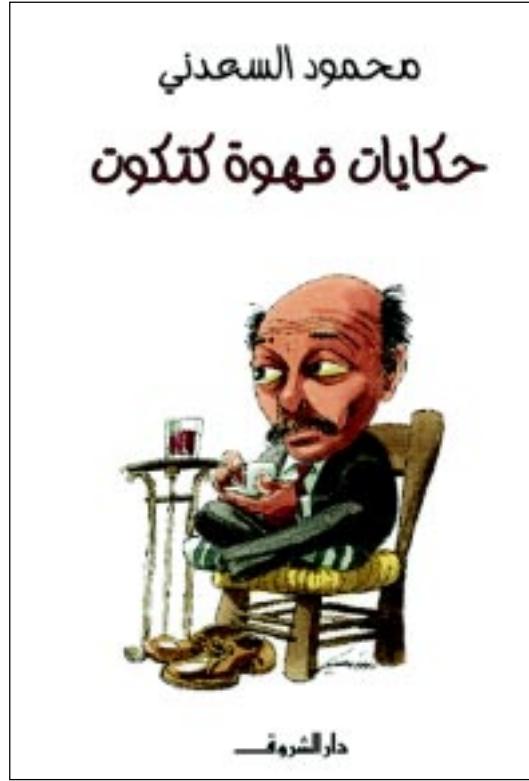
كتابة على الأرض

محمد مستجاب

■ ■ أربعة ظللت أخشاهم دهورا: سيدنا محمد عثمان شيخ الكتاب، خالي أحمد خميس ناظر مدرسة النصارى، عفرية كان يداهمني بين ليلة وأخرى أثناء تسلي إلى غيط طماطم الجيران ليلا، وامرأة كانت تفتح عينها وترفع حاجبها تحديا وهي تخطو فوق العتبة لتدخل إلى واحد من أثرياء بلدتنا دون اهتمام بمشاعرنا، وخامسهم السعدني محمود. هذا الذي جذب القصة من بين أهات يوسف السباعي ونوافذ حارة نجيب محفوظ وإنسانية محمود البدوي وحزن يوسف إدريس المرير، جذبها من شعرها. هذه القصة المكتوبة في الورق المسطور. وألقى بها على أرضية الشارع المكفهر، لتتلوى صارخة ضاحكة تتلاطم مع محلات الكفنة ولحمة الرأس والمبار وفائف البطولة الصارخة الواهنة، وسحب اللغة الرصينة الدافئة المنظمة من بين جدران أساليب المنفلوطي وأمين الخولي وطه حسين، وخلع عنها أرديتها لتجري عارية واقعية في شوارع الجيزة والأحراش المبكرة لشارع الهرم، وجعلها إن أراد أن تبدو لامعة. تجلس بعض الوقت تداعب بأقدامها الحافية تيارات ناعمة من مياه البحر الأعظم، ثم يسامر اللغة. آخر الليل. على قهوة كتكوت، لتفرز أنواعا من السلوك الواقعي الحقيقي لشعب ظل الكثير من المعبرين عنه يؤلفون له ما لا يعرفه. هذا الشعب. أبدا.

كنت ريفيا أتلهف على قراءة ما أستطيع الوصول إليه من أوراق، حينما عاد محمود السعدني من الجزائر لينشر تحقيقاته المتفرقة عن ثورتها، ظل أيامها يثابر (يهابر أفضل) كي يجد طريقا للخروج عما هو معهود من السياق اللغوي والمعاني الجميلة، وخلال ذلك، أو قبل ذلك، قرأت له أقاصيص في مجلة التحرير أو الرسالة الجديدة. فيما أعتقد، وكان من بينها. والاعتماد هنا على الذاكرة الصبغانية الرائقة. قصة (جنة رضوان) التي

حكايات قهوة كتكوت
القاهرة - دار الشروق ٢٠١٠
صفحة ٢٢٢



حملت فيما بعد عنوان مجموعة كاملة، لكن الأخطر من كل ذلك أنه. بعد ذلك بسنوات. كتب روايته الحلوة الشائكة الواخزة: حتى يعود القمر، بالطبع كانت الرواية على غير النسق والمعاني المعهودة السائرة والسارية أيامها، فقد فتح السعدني بطن الواقع الذي كانت اللافتات والشعارات والمكتوبات من قصص ومقالات وروايات قد جهلته (لم أقل تجاهلته)، كانت حروب الفدائيين ضد الإنجليز في معسكرات القنال قد استولت. بطبيعة الأمر. على عواطفنا فور إلغاء المعاهدة الشهيرة بالصدقة، وهو ما أثبت قدرة هذا الشعب المصري (أيامها) على الصلابة والقدرة والتحمل، ووقع شهداء من كافة الفصائل مدنيون وشرطة، مما أدى إلى ثورات عارمة في الشوارع. في كافة البلاد. تندد بالنظام الخائن والملك الخائن، حتى وصل الأمر إلى حرائق القاهرة الشهيرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، وخلال اضطرابات سياسية وتغييرات وزارية واعتقالات ثورية، قام عبد الناصر بانقلابه المعبر عن هذه الثورة (وأنا أميل إلى الإنصات إلى استنتاج يشير إلى أن عبد الناصر

قطع الطريق على ثورة شيوعية)، وكل ما كتب من موضوعات أو تنظيرات لم تومئ أبدا أو تكتشف أو تغوص في أتون النار الذي اشتعل في قناة السويس أثناء حرب الفدائيين، فالحس الشعبي بالذات ظل خاضعا للشعارات والعاطفة الوطنية أكثر من الإمعان في فلسفة السلوك الشعبي في أرض الموقعة ذاتها، وكان مدعشا لدرجة تثير اضطرابي الصبغاني أن أجد في رواية السعدني. حتى يعود القمر. آدميين يجتمعون صارخين بالشجاعة مقابل هؤلاء الأبطال الذين استشهدوا بالفعل، إنهم أناس من الواقع الفعلي الذي يقع في شباك السلوك العفوي التلقائي من حداقة (وصف للرجل الحدق الذي يبدو فاهما) وحركات فتونة وتراقص واستذكاء خلال عمليات تهريب السلاح للفدائيين أو إيوائهم، كانت طبيعة الناس تتفسخ في الرواية كاشفة عن أمور لا نحب نحن الكتاب أن نتورط فيها عادة، وهي ثورة تعبیر لم يدرکها أحد من النقاد حتى الآن، أدركتها وحدي وكانت من بين أسباب اقتحامي الشخصي لهذه المعاني والمثل التي يصمم كتابنا أن

يحافظوا عليها معتقدين أنها تصنع المجد الشعبي العظيم. ولم يغيب السعدني عن بالي أبدا، كنت قد كبرت وظلمت. في تلك السنوات المريعة الطويلة. أبحث عن عمل دون إهمال في الوقوع داخل حفر الغرام الملتهب بين مرارة وأخرى، لكنني ظللت مع السعدني في مواقعه المبكرة مع لوييس عوض، ومأمون الشناوي، وشاركته أسى اصطدامه بيوسف السباعي أيام علاج طفله الغالية (هالة)، وما صاحب ذلك من مرارة الواقع المصري، وظلمت أقلب بين ربي وتلال ووهاد ووديان وجزر وخرابات وحدائق وسجون ومطاعم ومجالس تحشيش وشرب بوظة ومتاجرة في شعارات، العالم عنده يتسع ويتسع حتى يملأ حارة بالجوعى، ثم يضيق ويضيق حتى يختنق بين قارة إفريقيا، الواقع هو سيد الموقف، والحس الشعبي الغامر هو رقصة الزار الصاخبة التي بسببها سجن واعتقل. هذا الكاتب الجميل المتفرد. في كافة العصور، ولأذ بعثمان أحمد عثمان في المقاولون العرب، ثم هرب إلى لندن (وبالمناسبة كان يصدر مجلة ٢٣ يوليو أو يكتب فيها خلال تلك السنوات التي تكره فيها مع السادات)، ثم إلى الخليج، حياة تبدو مترفة بالمرارة والغربة والحزن الذي يكوي سراديب العقل والفؤاد، حيث ينتهي الأمر. كل الأمر. في طاسة تعبق برائحة الكبدة المحمرة بالبققدونس، وقد حاصرتها جدران المعتقلات: الحوائط والكلمات. وظلت خطوطي مع السعدني تتوازي (الخطوط وليس الحياة ذاتها). اشتغلت في السد العالي (وبالمناسبة كنت في شركة عثمان) وعدت إلى القاهرة لأتزوج وأظل سنوات طويلة في مجمع اللغة العربية، وأقرأ السعدني، وأشارك في مهاجمة السعدني وأفتح بطنه وأقلب تجاربه وأزاد به حبا، وانتقادا، وسخرية.

■ ■ ■ منذ شهور. قد تتجاوز العام. جاءني صوته الشارخ في التليفون: واد يا مستجاب.. عاوز أشوفك. وتوجهت إليه... ■

ألف ليلة وليلة .. من الأرق

يمكنه أن ينفصل عن الجسد أثناء النوم، كان كثيرا ما يزور أرض الموتى حيث يعود بأخبار الأسلاف المتوفين. وحسبما يقول «روبرت فان دي كاسل» Robert L. Van de Castle في كتابه «عقلنا الحالم»: «إذا فشلت الروح في العودة إلى الجسد قبل أن يستيقظ الحالم، فقد تنتج عن ذلك عواقب وخيمة».

كان توصيف مرض الأرق، في مطلع القرن التاسع عشر، أنه العذاب الرهيب الذي غالبا ما يؤدي إلى الانتحار. ولقد تم نشر ١٨٨٨ مقالا في صحيفة واشنطن بوست لتوضح أنه «من المعروف جيدا أن فقدان النوم لفترة طويلة يؤدي إلى الجنون». فقد كان من المعتقد أن هناك سائلا ما

ربة الليل ولدين توأمين، «هيبنوس» Hypnos النوم، و«ثانتوس» Thanatos الموت. «هيبنوس» أنجب «مورفيوس» Morpheus إله الأحلام الذي عاش محاطا بزهور الخشخاش، التي توهب الأحلام. وبرغم أنه لم يكن لمورفيوس وجود دون هيبنوس، فإن الإغريق لم يهتموا كثيرا بالنوم في حد ذاته، بل اهتموا بذريته السحرية: الأحلام. فلقد كانوا يحجون إلى «معابد الأحلام»، حيث، بعد تقديم الأضاحي والاستحمام في المياه المقدسة، قد يظهر لهم في نومهم إله الشفاء ليعالج كل ما من شأنه أن يزعجهم. والصينيون أيضا يؤمنون بروحين مختلفتين - «بو» p, o و«هون» hun - تمثلان العالم المادي والعالم الروحي. «هون»، الذي

وإدمان الكحول المزمن وداء البول السكري. ويقول همنغواي «أنا شخصيا لا أريد أن أنام لأنني قد عشت لفترة طويلة وأنا على يقين بأن روحي ستغادر جسدي لو أغمضت عيني في الظلام وسمحت لنفسى بالذهاب في النوم».

فما المقصود بالضبط عندما يقول شخص ما «أنا لا أنام»؟



لقد ارتبط النوم بالموت لفترة طويلة منذ أن ابتكر قدماء الإغريق علم الأنساب النابض بالحياة الذي يوضح ذلك الارتباط. أنجبت «نيكس» Nyx

■ ■ نيك آدمز، الذي يمثل الأنا الأخرى للكاتب أرنست همنغواي في قصته القصيرة (الآن أرقد)، يظل مستيقظا طوال الليل وهو يستمع إلى صوت دودة القز وهي تأكل أوراق التوت خارج خيمته في الجيش، عندما كان في إيطاليا. لقد كان أرنست همنغواي نفسه يعاني من أعراض أرق متقدمة وحادة لدرجة أنه كان يخاف الذهاب إلى الفراش والأنوار مطفأة. فظل يعاني من الأرق لبقية حياته، وفي كثير من الأحيان كان من الصعب فصل هذه المسألة عن الأمراض الأخرى التي كان يعانيها - بما في ذلك الاكتئاب الحاد

ترجمة: وسام رجب

@ Antony Coverhires





لقد ارتبط النوم بالموت لفترة طويلة منذ أن ابتكر قدماء الإغريق علم الأنساب النابض بالحياة الذى يوضح ذلك الارتباط



العالم». لا أستطيع أن أفكر فى شخص مختلف تمام الاختلاف عن ذاك اللفظ غليظ القلب همنغواى أكثر من مايكل جاكسون. إلا أنه أيضا كان يعاني من الأرق المزمن. لا يمكن للمرء إلا أن يتخيل حجم الضغط الذى كان يعانيه جاكسون وهو يتدرب على بروفات جولته الفنية العالمية المرهقة التى كانت تحمل مسمى تنبؤياً يبعث على الأسى «this is it - قضى الأمر». على مدى سنوات فقدت الحبوب المنومة والمهدئات الأخرى مفعولها لدرجة أنه طلب من طبيبه أن يعطيه عقار البروبوفول المخدر الذى كان عاملاً رئيسياً فى وفاته لاحقاً. كان جاكسون يشير إلى هذا العقار بوصفه «كوب حليبه». هناك أمر مضجع عن شخص يرغب فى النوم بشدة لدرجة أنه قد يختار أن يتناول عقاراً مخدراً بدلاً من المهدئات القديمة: كوب من الحليب الدافئ .

لكن ربما نحن بعيدون عن طرق العلاج الصوفية هذه. فنحن نعيش فى أوقات عصيبة. وكما يقول البعض لا شيء جديد. لقد كان الناس يبحثون عن سبل تؤدي بهم إلى ما كان يسميه شكسبير «ندى النوم اللذيذ كالشهد» طالما كانوا قادرين على حصاد الأعشاب الطبية. ولقد عثر على إشارة إلى زهرة خشخاش الأفيون على ألواح صلصال سومرية يعود تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق.م. فنحن لا نعرف إلا القليل عن الطريقة التى كان ينام بها إنسان ما قبل التاريخ - حيث لا توجد عظام نائمة يصلح أن نحللها - ولكن بما أن الناس كانوا يجتمعون معا فى الكهوف، فعلى الأرجح أنهم كانوا يشعرون بالقلق من الدببة العملاقة التى يمكن أن تأكلهم. ونحن الآن نستلقى على مراتب أنيقة تكلفتها ٢٢,٠٠٠ دولار، ونحن نشعر بالقلق من الإرهابيين الذين سوف يفجرون طائراتنا. لذا سيظل العديد منا متيقظين الليلة، يستمعون إلى صوت دودة القز من خلال أجهزة الصوت الغالية التى اشتريناها. نخشى من أن تتركنا أرواحنا، نخشى ألا تكون لدينا أرواح، نخشى مع كل يوم يمر أن يكون «this is it» قد قضى الأمر. ■

باعتباره «عقاراً ذكياً». وكشفت الدراسة الوطنية لعام ٢٠٠٥ التى قام بها فريق بحث من جامعة ميتشجان عام ٢٠٠٥، أن ٧٪ من طلاب الجامعة يستخدمون منشطات لا توصف إلا بأمر الطبيب لأغراض غير طبية على مدار حياتهم، و٤٪ منهم استخدموها فى العام الماضى. وفى عينة من طلاب المدارس المتوسطة والثانوية كانت نسبة الاستخدام غير المشروع للأدوية المنشطة ٤, ٥٪. وكما يقول عالم الأنتروبولوجى وولف ماثيو ماير «إذا كان المجتمع لا يمكنه أن يرتاح، فكيف يمكنه أن ينام؟».

ولمكافحة ما يسمى بـ«ثقافة الإنهاك أو الإجهاد» ينفق الأمريكيان ما يقرب من نحو ٢٤ مليار دولار سنوياً على السلع والخدمات المرتبطة بالنوم، فيشترون مراتب سرير بخمسة آلاف دولار، و٦٠٠ ملاءة، وأحدث أجهزة الصوت التى تحاكي أصوات الأمواج وتغريد العصافير. وبحلول عام ٢٠١٢ من المتوقع أن تزيد معدلات النمو فى سوق أدوية الأرق بنسب ٧٨٪، أى ما يقرب من ٣, ٩ مليون دولار. ولكن ما الذى نحصل عليه حقا من استخدام الحبوب المنومة؟ إنها لا توفر إلا ١١, ٤ دقيقة إضافية زيادة على الحبوب المنومة الوهمية. كما أنها تتداخل مع تكوين الذاكرة، مما ينتج عنه أن بعض الأشخاص ينسون أحياناً كيف ناموا فى الواقع. يقول بعض أطباء النوم «وما الخطأ فى ذلك؟ إذا تصور الناس أن نومهم قد تحسن، فسوف يشعرون بالتحسن». لكن هذا المنطق يبدو لى مثل منطق «أليس فى بلاد العجائب». إنى أتساءل: عما إذا كنت قد تغيرت فى الليل؟ دعونى أفكر. هل كنت نفس الشخص عندما استيقظت هذا الصباح؟ أعتقد بالكاد أنى أستطيع أن أتذكر شعورى على نحو مختلف قليلاً. لكن إن لم أكن نفس الشخص، فالسؤال التالى هو: «من أنا فى هذا

الأرق اضطراب فريد من نوعه، حيث يكون المريض هو أيضا المسئول الرئيسى عن تشخيص المرض. (الأكاديمية الأمريكية لطب النوم - American Academy of Sleep Medicine) التى تحدد المعايير السريرية فى هذا المجال، توصى بعمل دراسات ليلية لكل الناس الذين يشكون من مشاكل النوم. لكن ما الفائدة من متابعة شخص ليس نائماً؟ وإذا قيل لك إنك تعاني من الأرق، وهو شيء تعرفه مسبقاً فى كل الأحوال، فما الذى يمكن عمله حيال ذلك؟ غالباً سيصف أطباء النوم علاجاً سلوكياً إدراكياً يشمل على مجموعة من القواعد الخاصة بالمبادئ الأساسية للنوم الصحى، مثل تجنب المنبهات والكحول، تنظيم وقت النوم ووقت الاستيقاظ، وعدم استخدام السرير إلا للنوم والجنس.



لكن بينما تبدو المبادئ الأساسية للنوم الصحى منطقية من الناحية النظرية فى الثقافة المعاصرة التى لا تتيح أى وقت لعملية الاسترخاء، إلا أنه من الصعب وضعها موضع التنفيذ. فنحن نجلس على الكمبيوتر لساعات طويلة بعدها نجلس مع أجهزة البلاك بيري. حتى أطفالنا يعانون من فرط الحركة والنشاط أكثر منا، ويختلفون سبلاً للتحلف عن مواعيد نومهم، حتى لقد صار مفهوم «موعد النوم» فى الوقت الحالى يبدو غريباً. ولتعويض إحساسهم بالإرهاق فى الصباح يتناولون أطعمة تحتوى على مادة الكافيين ومشروبات الطاقة وبيتلعون الأديرال والريتاين. فى الآونة الأخيرة انتشر عقار Provigil بين طلاب الجامعات

يسمى بـ«السائل العصبى» يتم إفرازه ليلاً، فإذا لم يحصل الشخص على كمية كافية منه فقد تصبح الأعصاب حساسة ومهتاجة بصورة غير طبيعية - تقريباً كما لو كانت عارية - وقد يصاب ضحية هذا المرض بالجنون.

وبرغم أننا قطعنا شوطاً طويلاً فى فهمنا للنوم، فإنه إذا طلبت اليوم من شخص يعاني من الأرق أن يصف لك الأعراض التى يشعر بها، فسوف يقص عليك رواية مشابهة. فطبقاً للمركز القومى لأبحاث اضطرابات النوم، نجد أن من ٣٠ إلى ٤٠٪ من الأمريكيين البالغين يمرون بنوبات متقطعة من الأرق على مدار السنة. ومن ١٥ إلى ٢٠٪ يعانون من أعراض مزمنة. كما أن هناك الكثير من حالات توتر الأعصاب. ولكن عندما يقول شخص ما «أنا لا أنام» فما الذى يعنيه بالضبط؟ إذا كان يعاني من أرق وراثى مميت، فإنه يصف حالة تؤدي فى النهاية إلى الوفاة، حيث لا يوجد علاج. والأرق الوراثى المميت يحدث نتيجة تراكم بروتينات غريبة تسمى «البريونات» داخل مراكز المهاد - والمهاد هو الجزء الذى يتحكم فى تنظيم عملية النوم فى المخ. ويبدأ هذا المرض عادة بين سن الأربعين والستين، وأول أعراضه هو فقدان المتزايد للقدرة على النوم، فى النهاية يدخل الشخص المصاب فى غيبوبة، ثم يموت بسبب الآثار المترتبة على الحرمان من النوم.

وحيث إن الأرق الوراثى المميت نادر جداً، فمعظم الناس الذين يشكون من أنهم لا يستطيعون النوم، يقصدون عادة بهذه الشكوى أنهم ينامون بالفعل ولكن ليس لوقت طويل أو بالعمق الكافى. ربما بسبب فقدان وظيفة أو المرور بتجربة طلاق، وفى مثل هذه الحالات عادة ما تحل مشكلة الأرق نفسها بنفسها مع الوقت. وبمزيج من العلاج والأدوية المضادة للاكتئاب. يمكن حل مشكلة الأرق عندما يكون عرضاً أساسياً من أعراض الاكتئاب هل يشخّر المريض أثناء النوم؟ قد تكون هذه علامة على توقف التنفس أثناء النوم، ويمكن حلها بمساعدة أجهزة التنفس أو أجهزة طب الأسنان.

باتريشيا موريسرو
Patricia Morrisroe

النوم

ذلك الموت الصغير



أحمد مستجير



وَجْهَ حَبِيبَتِكَ الْجَمِيلِ
يَصْبِحُ أَجْمَلُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ وَهِيَ نَائِمَةٌ،
يَغْدُو طِفْلاً، يَبِينُ مِنْهُ الْجَوْهَرُ، وَجَوْهَرُ الْإِنْسَانِ
هُوَ الْجَمَالُ. فِي النَّوْمِ تَتَوَارَى أَدْرَانِ
الْحَيَاةِ وَيَتَأَلَّقُ الْجَوْهَرُ



مَراحِلُ النَّوْمِ

لتحديد مراحل النوم يعتمد العلماء الآن على مقاييس ثلاثة: الأول هو النشاط الموجي الكلي للمخ كما تقيسه آلة تسجيل مخطط كهربائية المخ electroencephalogram (EEG)، وهذه الآلة توفر ملخصاً للنشاط الكهربائي لأي منطقة من المخ. أما الثاني فهو درجة قوام العضلات، وتقيسه آلة تسجيل مخطط كهربائية العضلات (EMG) electromyogram. والثالث هو نتائج آلة رصد حركات العين بمخطط كهربائية العين electro-oculogram (EOG). ومخطط كهربائية المخ هو أهم هذه المقاييس في التمييز بين مراحل النوم المختلفة.

من الممكن أن تُقسَّم أنماط موجات

المخ المختلفة في اليقظة إلى ضربين: موجات بيتا beta. وترددها يبلغ ١٣. ١٧ حلقة في الثانية (ح/ث)، وموجات ألفا alpha وترددها يبلغ ١٢.٨ ح/ث. موجات بيتا ترتبط بالنشاط اليومي للمخ، وهي الأعلى تردداً والأدنى في السعة، كما أن درجة التوافق بينها هي الأعلى مقارنة بغيرها من موجات المخ: موجات بيتا ليست متناغمة تماماً، لأن النشاط اليومي للمخ يتضمن الكثير من الخبرات المعرفية والحسية والحركية المختلفة. في فترات الاسترخاء أثناء اليقظة يبدأ المخ في توليد موجات ألفا الأبطأ والأكثر سعةً والأكثر تناغمًا. الواضح أن الأنشطة التي تُعزِّز نشاط موجات ألفا (كالتأمل) لها مردودها الطيب على الصحة.

يبدأ نشاط المخ أثناء النوم في منطقة الجسر pons بجذغ المخ. يرسل

■ إلى يا أيها النومُ الرحيبُ العذب! إلى! أبعدي، أبعدي عن نفسي المغرورة، وعن كل ما هو عقيم يتحكم في روجي فأبتسم أو أبكي. فإذا ما وفدت، فلتكن يا نومُ كالموتِ عميقاً!

باتريك ب. الكزاندر

النوم هو أكثر عمليات الجسم غموضاً. في النوم العميق ينقطع النائم عن العالم الحسي: لا يسمع، لا يشعر، لا يتذوق، لا يشم، ولا يرى إذا فتحت له عيناه! نقضى ثلث حياتنا نائمين: إذا بلغت من العمر ستين عاماً، فستكون وقد نمت منها عشرين عاماً! ورغم ذلك فلم يحظ النوم من العلماء بالاهتمام الحقيقي إلا مؤخراً. كل ما نعرفه عن النوم عرفناه خلال الخمس وعشرين سنة الماضية.

النوم ليس شيئاً نملأ به فراغ الوقت بالخمول، إنه عملية ديناميكية، هو نشاطٌ نحتاجه ليس لنا أن نرفضه، عملية نشطة تتضمن عمليات فسيولوجية بالجسم ضرورية. بعد النوم ندرك أن تغيرات قد حدثت لنا بالفعل، نشعر بالراحة وأنها قد غدونا أنشط. النوم مطلوب لبقائنا.

وَجْهَ حَبِيبَتِكَ الْجَمِيلِ يَصْبِحُ أَجْمَلُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ وَهِيَ نَائِمَةٌ، يَغْدُو طِفْلاً، يَبِينُ مِنْهُ الْجَوْهَرُ، وَجَوْهَرُ الْإِنْسَانِ هُوَ الْجَمَالُ. فِي النَّوْمِ تَتَوَارَى أَدْرَانِ الْحَيَاةِ وَيَتَأَلَّقُ الْجَوْهَرُ.

تناوله الكتابُ كثيراً هذا النوم، والشعراء منهم بخاصة. هو الموت الصغير عند الكثير منهم! هذا هنري لونغفيلو Longfellow. W.H يقول: «أواه! لكم أكره تلك الجرعات الصغيرة من الموت». وهذا إيليا أبو ماضي يكتب:

إن يك الموتُ هجوعاً يملأ النفس سلاماً واعتاقاً لا اعتقالاً، وابتداءً لا ختاماً فلماذا أعشقُ النومُ ولا أهوى الحماماً ولماذا تجزعُ الأرواحُ منه لست أدري!

يرى علماء التطور أن دورات مراحل النوم قد وُجدت لأن النوم قد يصبح خطراً بالنسبة للحيوان غائباً عما يجري حوله، ومن الضروري له أن يتأكد من سلامة موقعه ما بين أونة وأخرى. والأغلب أن نجد في الحيوانات الاجتماعية فرداً أو آخر يبقى طول الوقت قريباً من اليقظة حتى يمكنه عند الضرورة أو يوقظ الآخرين.

(❖) عدد فبراير ٢٠٠٦

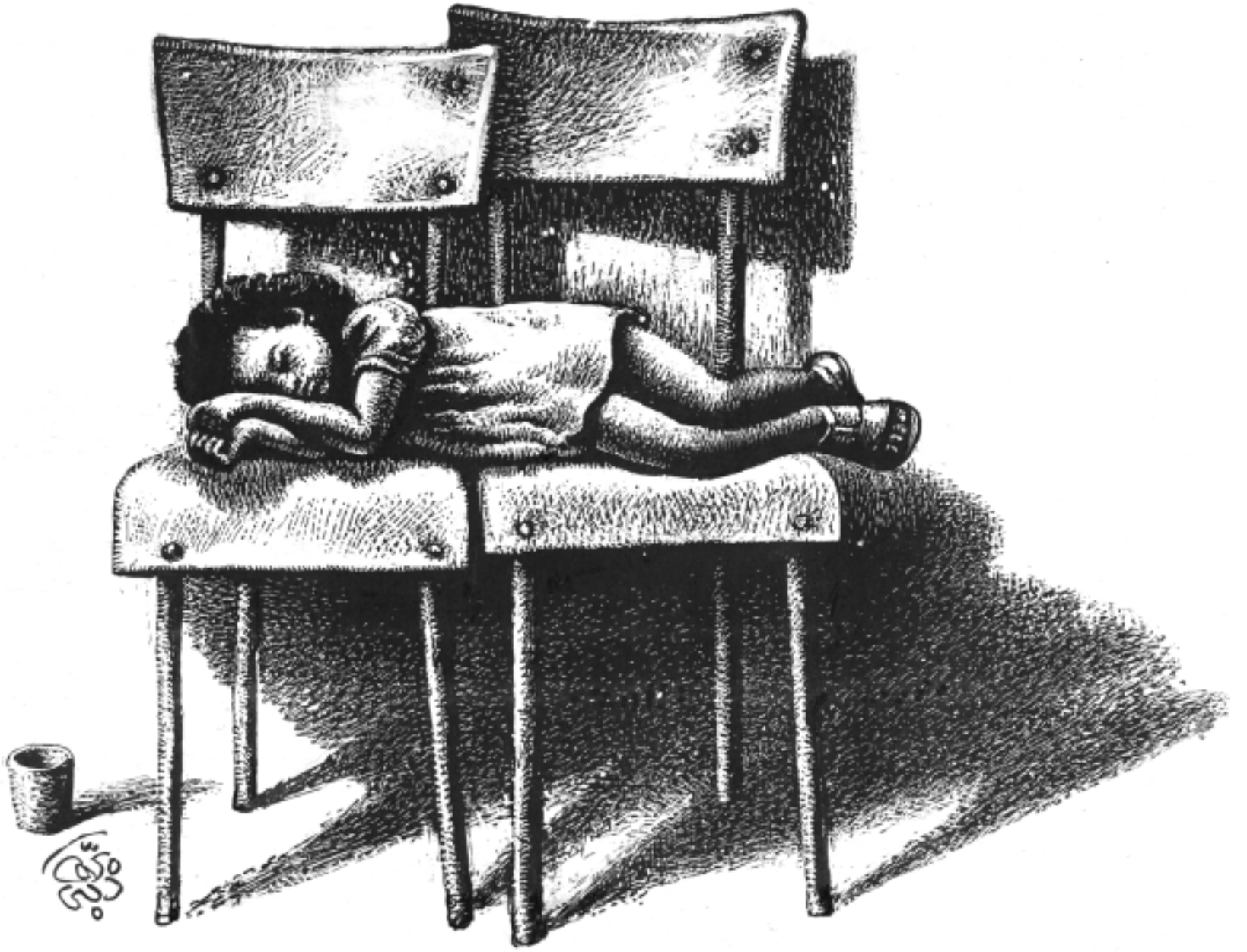
الجسم إشارات إلى التلامص وإلى قشرة المخ المسئولة عن عمليات التفكير، كما يرسل إشارات لكي تغلق نيورونات الحركة في الحبل الشوكي، مما يسبب شللاً مؤقتاً يمنع الحركة.

عندما تدخل أولى مراحل النوم المسماة بمرحلة الوسن drowsiness، تبدأ الموجات في الابطاء فتتحول إلى موجات تسمى موجات ثيتا theta، وترددها هو ٧. ح/ث، وهي أكثر بطئاً من ألفا وأكثر سعةً. هذه المرحلة الأولى من مراحل النوم هي مرحلة تمهيدية بين اليقظة والنوم، وتستمر عادة ما بين دقيقة وخمس دقائق، وقد تطول كثيراً في حالة الأرق، وفيها يستعد الجسم للنوم، وتترهل عضلاته. يحدث كثيراً مع التحول نحو ترهل العضلات أن يشعر الفرد بتقلص مفاجئ في عضلة الرجل ويحس بأنه يسقط في هاوية.

مع تحول النائم إلى المرحلة الثانية، المرحلة التي تستغرق ٤٥. ٦٠٪ من وقت النوم، تظل موجات ثيتا نشطة، وإنما تتخللها ظاهرتان تحدثان كل دقيقة أو نحوها وتحددان خصائص المرحلة: مغزل النوم sleep spindle ويتألف من اضطرابات من موجات سريعة جداً (١٢. ١٦ ح/ث)، ومعقدات ك complexes k، وهذه ازدياد مفاجئ في تردد وسعة الموجات. المرحلتان الأولى والثانية هما مرحلتا النوم الخفيف، والواقع أنك إذا أوقظت خلالهما فلن تتذكر أنك كنت نائماً.

يتحول النائم بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة والرابعة من النوم، مرحلتى موجات دلتا delta البطيئة (٣ ح/ث)، أو مرحلتى نوم الموجة البطيئة، أو النوم العميق الذي يستمر ٢٠. ١٠ دقيقة، وقد يمتد إلى ٣٠ دقيقة. والواقع أن ليس ثمة فاصل حقيقي بين هاتين المرحلتين سوى أن نسبة موجات دلتا في المرحلة الثالثة تشكل ٢٠. ٥٠٪ من مجموع الموجات، بينما تزيد النسبة عن ٥٠٪ في المرحلة الرابعة. وأعمق النوم هو نوم دلتا، ففيه تكون موجات المخ أبعد ما تكون عن موجاته أثناء اليقظة، ومن ثم يصعب إيقاف النائم. فإذا ما أوقظ فقد يتطلب الأمر بضع دقائق قبل أن يدرك ما يجري حوله! والعجيب أن نوم دلتا هذا هو الوقت الذي يحدث به عادة المشي أثناء النوم، ورعب النوم، والكلام أثناء النوم. يشغل نوم دلتا ما يصل إلى ٤٠. ٥٠٪ من فترة نوم الأطفال، الأمر الذي يُفسر صعوبة إيقاف الطفل.

بعد المرور في هذه المراحل الأساسية الأربعة للنوم، والتي تُعرف باسم النوم اللاريمي، تأتي المرحلة الخامسة



أسيرينسكى Eugene Aserinsky وأستاذه
ناثانييل كلايتمان Nathaniel Kleitman.
وقد فتح اكتشافهما هذا عالماً جديداً
لدراسة النوم، فقد كان العلماء قبله يظنون
أن النوم مجرد رحلة نعاس وسكون وخمود،
يصمت فيها الجسم، رحلة لا تهم كثيراً.
أولى دورات النوم إذن تتميز بفترات
ريم قصيرة، وفترات طويلة من النوم
العميق. ثم ينقلب الأمر مع التوغل في
الليل، فتصبح الدورات الأخيرة طويلة
الريم قصيرة النوم العميق، حتى إذا ما
اقترب الصباح كان معظم النوم في
المرحلتين الأولى والثانية ونوم الريم،
وتصبح المرحلتان الثالثة والرابعة
قصيرتين جداً. لكن ما يجعلك تستيقظ
في الصباح منتعشاً هو عدد دورات النوم
التي مرت بها.



يحتاج المواليد إلى ١٦

تتميز بمخّ نشط في جسم مشلول. أنت
تحلم وجسمك لا ينفذ أحلامك، ولا أذيت
نفسك أو أذيت غيرك.

تستمر هذه المرحلة من النوم ١٠. ٢٠
دقيقة، بعدها يعود النائم ثانية إلى
المرحلة الثانية، وتكون دورة النوم قد
انتهت. قد يمر الشخص بأربع أو خمس
أو ست دورات نوم في الليلة، يستغرق كل
منها نحو ٩٠ دقيقة (وتكون ٥٠ دقيقة
فقط في المواليد). يكون النوم العميق،
نوم دلتا، في كل دورة أقل منه في الدورة
التي تسبقه، حتى ينتهي بعد بضع
دورات. بدأ يقع معظم النوم العميق في
النصف الأول من النوم، ويزيد طول نوم
الريم في كل دورة في النصف الثاني.

من المثير أن نذكر أن مرحلة نوم الريم
المتفردة هذه، التي ترتبط بالأحلام، لم
تُكتشف إلا في عام ١٩٥٣، على يد يوجين

تُحرك أجسادنا (كعضلات الذراعين
والرجلين) تكون مشلولة في نوم الريم
(ولا هكذا يكون الوضع في النوم
اللاريمي). ينشأ هذا الشلل عن إفراز
حامض الجلايسين الأميني glycine من
جذع المخ على النيورونات الحركية. لكن
هناك بالطبع عضلات هامة أخرى
تستمر في عملها، مثل عضلات القلب
والحجاب الحاجز وعضلات العين،
والعضلات الملساء كتلك الخاصة
بالأمعاء والأوعية الدموية.

أهم ما يميز مرحلة نوم الريم هذه هو
أنها الأكثر ارتباطاً بالأحلام. عندما أيقظ
الباحثون البعض أثناء نوم الريم،
وسألهم عن أحلامهم وجدوا أن الغالبية
العظمى منهم يتذكرون الحلم، أما إذا
أوقظ الفرد في مرحلة نوم اللاريم فالعادة
ألا يتذكر أحلامه. مرحلة نوم الريم مرحلة

والأخيرة في الدورة، وهي مرحلة متفردة
تسمى مرحلة نوم الحركات العينية
السريعة Rapid Eye Movement (REM)
أو نوم الريم، وفيه تتحرك العين
باندفاع يمكن رصده. هي لا تتحرك على
الدوام، وإنما تندفع إلى الخلف وإلى
الأمام، أو إلى أعلى وأسفل، ثم إنها تتوقف
فجأة لتنتقل ثانية إلى الخلف وإلى
الأمام. تتحرك العينان سوياً في نفس
الاتجاه كما يحدث أثناء اليقظة. يعتقد
بعض العلماء أن حركة العينين هذه إنما
تتعلق بصور يراها النائم في حلمه، لكن
السبب في حدوثها أو وظيفتها، إن كانت
لها وظيفة، لا يزال مجهولاً.

تستغرق مرحلة الريم نحو ٢٠٪ من
فترة النوم الطبيعي أثناء الليل، وتتميز
أيضاً بفقد فجائي لقوام العضلات.
والواقع أن العضلات الهيكلية التي

ساعة نوم يومياً. وفي عمر ٦ شهور ٣ سنوات يقل وقت النوم ليصبح في المتوسط نحو ١٤ ساعة. المراهقون يحتاجون إلى ٩ ساعات من النوم أثناء الليل، والنوم بالنسبة لهم مهم جداً، حيث أثناءه يُفرز هرمون النمو بكميات كبيرة من الغدة النخامية. تصل الكمية إلى أقصاها بعد ساعة من النوم، ثم تبدأ بالتدريج في الانخفاض. المراهق يحتاج النوم لينضج جنسياً.

ومع تقدم العمر يقل طول فترة النوم بالليل. يحتاج الإنسان الناضج إلى ما بين ٧ و ٨ ساعات من النوم في الليلة. وتقول مذكرات بعض من كتبوا في العصر الفيكتوري، قبل استخدام الإضاءة الكهربائية، إن البالغين كانوا ينامون ٩ ساعات في الليلة!

صحيح أن هناك من يكفيه ٥ أو ١٠ ساعات من النوم، لكن دراسة حديثة تقول إن مرض السكر يكون أكثر انتشاراً بين من ينامون أقل من ٦ ساعات أو أكثر من ٩ ساعات، مقارنة بمن ينامون ٨.٧ ساعات. قلة النوم قد تكون نذيراً بمرض السكر. ثم إن هناك أبحاثاً كثيرة تشير إلى وجود ارتباط معنوي بين السمنة وقلة ساعات النوم: احتمال السمنة بين من ينامون ٤ ساعات في الليلة تكون أكثر بنسبة ٧٣٪ مقارنة بمن ينامون ٨.٧ ساعات، أما من ينامون روتينياً ٦.٥ ساعات فيكون احتمال الزيادة ٢٣. ٥٠٪. ثمة علاقة بين قلة النوم ومستويات هرمون اللبتين leptin، الهرمون الذي ينظم الشهية. من ينامون روتينياً أقل من ٥ ساعات تُفرض أجسادهم من اللبتين قدراً أقل بنسبة ١٥٪، يترجم إلى زيادة الإحساس بالجوع، ومن ثم النهم في الأكل.

يتغير نمط النوم مع تقدم العمر كما قلنا، إذ ينخفض الوقت الذي يقضيه الفرد في أعمق مراحل النوم (المرحلتين الثالثة والرابعة من النوم اللاريمي). المولود يقضي نصف وقت نومه الكلي في نوم ريمي، بل الحقيقة أنه يلد مباشرة إلى نوم الريم عندما ينفس. وعلى عمر سنتين يشكل النوم الريمي ٢٠. ٢٥٪ من وقت النوم الكلي، ليظل الأمر هكذا بقية الحياة. هناك أمراض، كاللزهايمر والباركنسون، تتسبب في تقليل طول فترة نوم الريم.

النوم والتغيرات الفسيولوجية

لكي يغلبنا النعاس لابد أن تنخفض

حرارة الجسم، فالواقع أن حرارة الجسم ودورة النوم/ اليقظة مرتبطتان بإحكام، وهذا هو السبب في اضطراب النوم في ليالي الصيف الحارة. آلية تدفق الدم التي تنقل الحرارة في الجسم، تعمل كأفضل ما يكون فيما بين ١٨ و ٣٠ م، ولكن مع التقدم في العمر يصبح المجال أضيق (٢٣. ٢٥ م)، وهذا هو السبب في أن تنتشر أمراض النوم بشكل أوسع في كبار السن. في النوم اللاريمي ينخفض نشاط المخ، ويبطئ النبض، وينخفض ضغط الدم. ويبقى تدفق الدم إلى المخ كحالته في اليقظة، كما يبقى معدل التنفس على حاله بينما تنخفض حرارة الجسم، أما في النوم الريمي فيتزايد نشاط مناطق الحركة والإحساس بالمخ، ويزداد معدل النبض عنه في النوم اللاريمي بنسبة قد تصل إلى ٣٠٪، ويزداد تدفق الدم إلى المخ بما يزيد عنه في النوم اللاريمي بنسبة تتراوح ما بين ٥٠ و ٢٠٠٪ (حسب مناطق المخ المختلفة)، ويرتفع معدل التنفس. ولكن قد يتخلله انقطاع النفس. كما تكتّم الكحة، أما بالنسبة لحرارة الجسم فتقترب من حرارة الجو المحيط: فلا ارتجاف ولا عرق!

طول فترة النوم في الحيوانات يختلف طول فترة النوم الطبيعية بين أنواع الحيوانات اختلافاً كبيراً: فهو في القطاة والفأر ١٢ ساعة، وفي الأرنب ١١. ٤ ساعة، وفي الكلب ١٠. ٦ ساعة، والشمبانزي ٩. ٧ ساعة (كإنسان العصر الفيكتوري!)، وفي البقرة ٤ ساعات، وفي الأغنام ٣. ٨ ساعة (تستطيع الماشية والأغنام والفيلة أن تنام واقفة، لكنها في هذا الوضع لا تدخل إلى نوم الريم، ولكي يحدث هذا لابد للحيوان أن يرقد. النوم والحيوان واقف ليس نوماً كاملاً)، وفي الفيل ٣. ٥ ساعة، وفي الحمار ١. ٣ ساعة، وفي الحصان ٢. ٩ ساعة وفي الزرافة ١. ٩ ساعة!

النوم.. لماذا؟

تشير التجارب على الحيوانات إلى أن النوم أمر أساسي للبقاء. خذ التجارب

التي أجريت على الجرذان. تعيش هذه الحيوانات عادة سنتين أو ثلاثة، فإذا حرمت من نوم الريم فإنها تحيا خمسة أشهر فقط، أما إذا حرمت من النوم كلية فلن تعيش إلا ثلاثة أسابيع. وحرمان الإنسان طويلاً من النوم يؤدي إلى البارانويا والهلوسة. ما هي وظيفة النوم حقاً؟

هل هي ترميم وتجديد أجهزة الجسم بعد ما بذلته في استهلاك الطاقة أثناء اليقظة؟ يبقى المخ نشطاً أثناء النوم، لكن معدل الأيض يقل. سوى أننا لا نمتلك قرائن علمية تقول إن ما يجري في النوم من ترميم وتجديد يزيد عما يتم في أوقات الراحة في اليقظة. ففيم يختلف النوم عن أوقات راحتنا والاسترخاء في النهار؟ نعم، ينخفض تخليق البروتين في الجسم كله، لكن هذا يرجع إلى أن فترة النوم هي فترة نصوم فيها عن الأكل.

أَيُكون النوم وسيلة للحفاظ على الطاقة؟ تتركز هذه الفكرة على حقيقة أن الأيض ينخفض أثناء النوم. تُصيبنا الأمراض المعدية بالنعاس. وقد يكون ذلك لأن ثمة جزيئات تسمى السيتوكينات cytokines تُنظم عمل الجهاز المناعي (وهي من أقوى المواد التي تجلب النوم). ربما سمح النوم للجسم بأن يحفظ الطاقة وموارد الجسم الأخرى، ليستخدمها الجهاز المناعي في مقاومة العدوى، إن كان ثمة.

أم يكون النوم لترسيخ الذاكرة؟ الفكرة هنا تقول إن النوم يعزز التعلم والذاكرة، ويساعد في نفس الوقت في محو الذكريات غير المطلوبة ونسيانها (ننام لننسى!). تغمرنا الخبرات والأفكار أثناء النهار، البعض منها يستحق أن يُحفظ لندكره، والبعض لا يلزم أن يُحفظ. ربما ساعدنا النوم في إعادة ترتيب كل الخبرات والأفكار ليخزن منها ما يلزم ويهمل ما لا يهم. ثمة دراسة أجريت على الطيور المغردة ظهرت مؤخراً تقول إن النوم قد يلعب دوراً هاماً في التعلم. اتضح أن الطيور التي تستمع وهي نائمة إلى تسجيل لأغنياتها، تضطرب نيوروناتها بنمط قد يكون



مطابقاً لنمط الغناء، وإن لم تُصدر صوتاً. يعتقد الباحثون أن الطائر يحلم بالغناء، فيعيد الأغنيات ويكررها، ويقوى النمط العصبي المطلوب ليصدح بالأغنية. يبدو أن النوم مهم لتعلم الإنسان أيضاً. إن من ينعم بالنوم اللاريمي العميق في النصف الأول من الليل، وبالنوم الريمي في النصف الثاني تتحسن قدرته على التذكر، وهذا يقترح أن نوم الليل الكامل يلعب دوراً في التعلم: تتزايد بالفعل الشواهد من الأبحاث على أن المخ يستخدم وقت النوم في توطيد الذكريات التي اكتسبت أثناء النهار. اختبر ١٢ متطوعاً في تجربة استمعوا فيها إلى كلمات تعدد الباحثون أن تكون صعبة الفهم. رأى المتطوعون الكلمات مكتوبة في البداية، ثم طلب منهم فيما بعد أن يتعرفوا عليها بالسمع فقط. اتضح أن القدرة على تذكر الكلمات الصحيحة تقل رويداً رويداً حتى نهاية اليوم. ثم أعيد اختبار المتطوعين عقب ليلة نوم جيد، فتذكروا بعض الكلمات التي كانوا قد «نسوها» في المساء السابق. «النوم يوطد الذكريات، ويحميها من التآكل». النوم على ما يبدو «يسترجع» الذكريات. إذا انخفض الأداء بالتآكل، فبالنوم نستعيد ما فقد. النوم يساعد في إنضاج بعض الذكريات، كما أنه «يشدّب» أيضاً الذكريات غير المهمة. في النوم اللاريمي يستعيد المخ الذكريات بل وقد يضحّمها، وفي النوم الريمي يُقدح زناد تعبير جينات معينة فتُخزن وتوطد ما عولج في النوم اللاريمي.

إذا انهكك تدريب على ممارسة ما، ثم وجدت أنك بعد التدريب لا تتقنها بالصورة التي ترضيك، فستنسى القضية، ثم تتعجب إذ تجد بعد فترة أنك تتقنها! شيء ما حدث وجعلك تتقنها. الغريب أن الأداء لا يتحسن مباشرة بعد التدريب، وإنما بعد بضع ساعات أو حتى بعد بضعة أيام. وجد الباحثون أن النوم ضروري بعد التدريب، لتحسين الأداء. مرور الوقت في حد ذاته لا يكفي. النوم في الليلة التالية للتدريب هو الذي يحسن الأداء. النوم هو الأمر المهم. النوم بعد التعلم مباشرة يكون تأثيره. كما تقول الأبحاث. أفضل من النوم في أي وقت آخر. «أجل عمل اليوم إلى الغد» فيتحسن أدائك!!

هل كان النوم يحمي إنسان الغابة من الافتراس؟ السكون أثناء النوم يقلل من تعرض الفرد للمفترسات، سوى أنه يقلل في نفس الوقت من الإحساس بالعالم

الخارجي، ومن ثمَّ يزيد من احتمال السقوط ضحيةً للمفترسات! هل يساعد النوم في تنامي المخ؟ يبدو أن هذا التنامي يرتبط بنوم الريم الذي يكون طويلاً في الجنين وفي الوليد، ومرحلة النوم هذه قد تتدخل كثيراً في تكوين الاقترانات (التشابكات) العصبية بالمخ.

هل يسهم النوم في تفرغ العواطف؟ ربما كان نوم الريم هو الذي يوفر التنفيس الآمن للعواطف، يحميه الشلل العضلي الذي يحدث أثناءه، فلا يسمح بتنفيذ ما نلحم به. ثم إن مناطق المخ التي تتحكم في العواطف واتخاذ القرارات والتفاعلات الاجتماعية، يقل عملها أثناء النوم، الأمر الذي يحررنا من الضغوط التي تحدث في اليقظة.

الساعة البيولوجية

هناك في جسم الإنسان ساعة بيولوجية biological clock تنظم توقيت نومه، تجعلنا ننام في الليل ونستيقظ في النهار. تدور هذه الساعة فترة تبلغ نحو ٢٤ ساعة يومياً (تزيد نحو ٢٠.١٠ دقيقة) لذا تسمى الساعة النحويومية circadian، وهي توجد في النواة فوق التصالبية superchiasmatic nucleus المستقرة في الهيبوثالامس hypothalamus بالمخ. الساعة تتركيب دقيق للغاية يتألف من عنقودين في حجم رأس الدبوس، كل يحتوي على نحو عشرة آلاف خلية عصبية (نيورون neuron). (من بين مائة بليون نيورون تؤلف المخ).

الساعة البيولوجية جهاز فسيولوجي مبرمج وراثياً يسمح للكائن الحي بأن يحيا متناغماً مع الإيقاعات الطبيعية المنتظمة. مثل دورة النهار/الليل، أو تغير فصول السنة. وأهم وظائفها هي تنظيم الجسم ليتوافق مع الإيقاعات البيولوجية مثل دورة النوم/اليقظة. تتحكم الساعة أيضاً في الدورات التناسلية لبعض الحيوانات، لقدرتها على تعقب التغيرات في طول ضوء النهار وظلمة الليل، كما تلعب أيضاً دوراً في البيات الشتوي لبعض الحيوانات وفي هجرة الطيور.

هناك نوعان من الإيقاعات الطبيعية: نوع خارجي المنشأ، ويأتي مباشرة عن إيقاع خارجي بالبيئة، يؤد إيقاعات في الكائن ذاته. إذا أزيل المؤثر

الخارجي توقفت. أما الإيقاعات داخلية المنشأ فتأتي عن ساعة بيولوجية مكتفية بذاتها لا تعتمد على شيء خارج الجسم: التذبذب في حرارة الجسم إيقاع داخلي يبقى حتى لو تغيرت الظروف الخارجية. ولما كان للساعة النحويومية في معظم الناس طول يوم طبيعي، فلا بد أن يعاد ضبطها لتتوافق مع دورة الليل/النهار، أي الضوء/الظلام. الضوء هو الذي يزامن الساعة البيولوجية الداخلية مع الدورة البيئية. مستقبلات الضوء بالشبكية تنقل إلى النواة فوق التصالبية إشارات معينة، وهناك تتفاعل الإشارات مع بضعة جينات تعمل كضابط إيقاع.

تكتشف العين الضوء عن طريق عصيات الشبكية وخلاياها المخروطية التي تقوم بصياغة الصور المرئية. ظل العلماء لسنين طويلة يعتقدون أن الساعة النحويومية تضبط بمساعدة الرودوبسين rhodopsin. وهذا بروتين يكشف الضوء موجود في العصيات والمخاريط بالشبكية، لكنهم عثروا مؤخراً على شواهد تشير إلى وجود جهاز خاص بالعين لكشف الضوء، ويعتقدون أن هذا الجهاز يقوم بتقدير الإشراف brightness للمساعدة في ضبط ساعتنا الداخلية. هناك بروتين يسمى ميلانوبسين melanopsin يعتبر أساسياً لهذا الجهاز، ويرى العلماء أن نسبة محدودة من الخلايا الحساسة للضوء بالكتلة العصبية بالشبكية تحتوي على الميلانوبسين وتنقل الإشارات إلى الساعة الحاكمة بالمخ.

اقترحت إحدى الدراسات منذ بضع سنين أن تعريض ظهر الركبة إلى الضوء قد يعيد ضبط دورة النوم/اليقظة، لكن دراسة حديثة بينت أن هذا غير صحيح وأكدت أن الضوء لابد أن يمر خلال العين حتى يؤثر على ساعتنا الداخلية.

تتحكم الساعة النحويومية بالنواة فوق التصالبية في إفراز الميلاتونين melatonin من الغدة الصنوبرية pineal: يرتفع مستوى الميلاتونين أثناء الليل وينخفض في الفجر في الأنواع الليلية والنهارية من الحيوانات، لذا يطلق عليه اسم «هرمون الظلام». تتحكم النواة هذه

في توقيت إفراز الميلاتونين، الذي يعود بدوره إلى النواة وينظم نشاطها. في الثدييات مثلاً سنجد أن مستقبلات الميلاتونين بالمخ موجودة بالنواة فوق التصالبية، وقد أوضحت التجارب أن الحقن بالميلاتونين يتسبب في تحولات بالإيقاعات النحويومية في عدد من الأنواع الحيوانية مثل الجردان والأغنام والطيور والبشر، وتكون الآثار أوضح إذا ما أعطى الميلاتونين في غياب موجات الضوء. وعلى هذا سنجد أن حقن الأعمى بالميلاتونين يساعد في ضبط ساعته البيولوجية.

عرف عن الساعة البيولوجية عام ١٩٥٠، عندما لاحظ العلماء أن طائر الزرزور يستخدم الشمس في الهجرة، فثمة ساعة بيولوجية توجه الطائر مع تغير الشمس. وكان أول جين يكتشف لهذه الساعة هو الجين بيرود (بير) period (per) في ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا)، وذلك في عام ١٩٧١ (حدد المتابع الدناوي لهذا الجين عام ١٩٨٤). والحق أن الكثير مما نعرفه عن تنظيم الساعة البيولوجية قد جاء عن دراسات على هذه الذبابة. وبعد جين بير اكتشف جين تيمليس (تيم) timeless (tim)، واتضح أن الجينين يدوران مع الإيقاع النحويومي. ينشط الجينان مبكراً في الليل وينتجان الرنا المرسال RNA m الذي يرحل خارج نواة الخلية إلى السيتوبلازم حيث يترجم إلى بروتينين هما TIM و PER. يتراكم البروتينان في السيتوبلازم، وعندما يصل تركيزهما إلى حد معين، يرتبطان سوياً ليشكل مركب جديد يدخل إلى نواة الخلية. في النواة يرتبط هذا المركب بالجينين بير وتيم، ليكبت النسخ منهما، فيتعطل نشاطهما ويوقف إنتاج البروتينين. هي إذن أنشطة تغذية مرتدة سلبية. بعد فترة يتحلل المركب البروتيني ويبدأ الجينان في النسخ مرة أخرى.

اكتشفت في ذبابة الفاكهة جينات تسرع من إيقاعات الساعة النحويومية أو تبطئ منها أو تمحوها. كشف عن ثلاث طفرات في جين اسمه كلوك clock: طفرة تنتج حشرات تختفي فيها

الإيقاعات النحويومية، وطفرة تكون فيها الدورة ١٩ ساعة، وطفرة يصل فيها طول الدورة إلى ٢٩ ساعة، بدلاً من الأربع وعشرين ساعة الطبيعية.

من المثير أن نذكر أن جينات شبيهة قد عثر عليها في الثدييات، وتقول الدراسات إن الساعة بالثدييات تعمل تقريباً بنفس طريقتها في ذبابة الفاكهة. عثر العلماء على أول جين في الثدييات عام ١٩٨٨، بعد أن اكتشفوا حيوانات هامة لها دورة نحويومية طولها ٢٠ ساعة. وفي عام ١٩٩٧ اكتشف جين كلوك في الفأر، وحدد موقعه وتمت سلسلة دناه. وفي عام ٢٠٠١ اكتشف العلماء أول جين بشري للساعة البيولوجية أثناء دراستهم لمرض بشري يغلب فيه النوم المريض مبكراً جداً ليستيقظ تلقائياً قبل الفجر بساعات. الجين البشري الطافر hPer2 مسئول عن نمط وراثي من النوم يسمى «متلازمة طور النوم المبكر العائلي» (FASPS). من تظهر به هذه المتلازمة يسمى «قبرة الصباح»، إذ يبدأ النعاس في السابعة مساءً ويستيقظ في الثانية صباحاً. هناك طفرة أخرى هي hPer3 يصبح بها الفرد «بومة المساء» إذ ينام متأخراً جداً في الليل، ويجد صعوبة بالغة في الاستيقاظ في الصباح.

عندما تزال الساعة الحاكمة من الجردان تفسد الدورة اليومية للنشاط والنوم، والمعتقد أنها تزامن الساعات «المحلية» في الأعضاء والأنسجة المختلفة من الجسم، إما عن طريق الهرمونات أو بتغيير حرارة الجسم. ولقد عثر بالفعل على ساعات تشغيل الجينات مستقلة عن الساعة الحاكمة، في الكبد والرئة والخصية والأنسجة الضامة والعضلات، ومثل هذه الساعات «المحلية» المستقلة توجد بذبابة الفاكهة في قرون الاستشعار، فلهذه إيقاع نحويومي مستقل عن ساعة المخ الحاكمة. ذبذبة قرون الاستشعار ترتبط بحاسة الشم التي تكون أكثر حساسية في الليل عنها في النهار.

الشيخوخة قد تفسد تزامن الساعات «المحلية» عبر الجسم، وتزامن مع ساعة المخ الحاكمة. تقول نتائج البحوث إن النشاط الكهربائي بالساعات البيولوجية الداخلية لكبار السن من الجردان، لا يكون في نفس انتظامه في صغارها، وعلى هذا سنجد أن الجرد العجوز يفعل ما يفعله كبار السن منا: يقلل أثناء النهار!



ربما ساعدت جينات



الساعة البيولوجية يوماً فى علاج السرطان. هناك ٨ جينات على الأقل من هذه الجينات تُنَسَّقُ الوظائف الطبيعية فى الجسم، مثل تضاعف الخلايا (غير المحكوم فى السرطان) وانتحار الخلايا (الذى يعطل فى خلايا الورم السرطاني). ظهر من البحوث أن إزالة الجين mPer2 من خلايا الفأر يجعلها سرطانية، ولا تنتحر. فإذا كانت جينات الساعة البيولوجية تلعب بالفعل دوراً فى السرطان، فمن الممكن أن تُستهدف لإنتاج أدوية جديدة توقف هذا المرض.

شلل النوم

يحدث أحياناً أن تستيقظ فجأة فى أعماق الليل يخالجك الشعور بأن شراً ما يحيط بك. لا تستطيع التنفس. تحس بأن هناك من يضغط على صدرك ويحاول أن يخنقك. تُصاب بالذعر عندما تكتشف أنك لا تستطيع أن تتحرك.

تحس بشلل النوم هذا إذا استيقظت لسبب أو لآخر فى مرحلة نوم الريم، يستيقظ مخك فى حالة نصف ريم، بينا جسك لا يزال مسترخياً نصف مشلول. تقع فريسة ما بين عالم الواقع وعالم هلوسة الأحلام، ثم لا تستطيع أن تصل إلى هذا ولا ذاك. «تكافح» كى تتحرر فلا تستطيع. يزداد خوفك وتشعر وكأن عجزاً شمطاء تجلس على صدرك. وفى الوقت الحرج، وقبل أن تتمكن منك الشمطاء، يفرض جسمك دقة من الأدرينالين تخرجه من الشلل.

تصيب هذه الحالة نحو ٢٥٪ من الناس، ويخبر الغالبية العظمى من هؤلاء رعباً هائلاً قلماً يتحدثون عنه إذ لا يحبون مناقشته حتى لا يعتقد السامع أنهم قد أصيبوا بخلل عقلى!

تقول الأبحاث الطبية إن شلل النوم ليس على وجه العموم مؤذياً، إنه لا يستغرق سوى بضع ثوان، وقد يطول ليصبح بضع دقائق، لكن من يخبره سيعتقد أنه قد استمر ساعات. تشير نتائج التجارب إلى أن احتمال حلول هذا الشلل بين من ينامون على ظهورهم يبلغ خمسة أضعاف احتمال ظهوره بين من ينامون فى أى وضع آخر. إذا تجنبت النوم على ظهرك قل شلل النوم كثيراً. فإذا ما وقعت فريسة له فما عليك إلا أن تحرك جزءاً من جسك، رأسك مثلاً أو إصبعك أو أحد أصابع قدمك، أو حتى أن «تبريش»

بعينيك. هذا يكفى «كعلاج» طيب فى الحقيقة، بل ويمكنك أن تقوم بهذا فى عقلك إذا لم تستطع أن تحرك رأسك أو إصبعك. حاول فقط أن تتخيل أنك تحرك رأسك أو إصبعك لتبقى عقلك نشطاً بما يكفى كى يدرك جسك الأمر فيتحرك لإيقاظك وينتهى الشلل.

هناك عائلات يجرى فيها شلل النوم هذا، الأمر الذى قد يشير إلى أنه وراثى، لكن الكثيرين يعتقدون أنه يأتى نتيجة لمشاكل سيكولوجية أو بيئية.

الأحلام

فى الليلة التى ينام فيها جيداً، يقضى الفرد نحو ساعتين وهو يحلم. قد تتذكر بعض الأحلام عندما تستيقظ إذا كانت ذات طبيعة استثنائية شاذة، لكن هناك من الأحلام ما يعكس خبرات واقعية. ورغم ذلك فإن أحلام نوم الريم عادة ما تكون خبرات جديدة إبداعية، كالأعمال الروائية كلها كلمات وأحداث وأفكار وإحساسات خيالية، وليست مجرد سرد لأحداث واقعية. لا يبدو أن لمؤثرات ما قبل النوم أثراً كبيراً على محتوى الحلم. لكن المصدر الذى يستقى منه الحلم لا يزال مجهولاً.

يعتقد معظم العلماء أن الأحلام تحدث لكل البشر بنفس التكرار تقريباً: وعلى هذا فإذا اعتقد البعض أنهم لا يحلمون أو أنهم قد حلموا مرة واحدة فقط فى ليلة معينة، فإنما يكون هذا لأن تذكرهم للأحلام قد خفت أو تلاشى من الذاكرة.

يُفتح نوم الريم ويغلق عن طريق منطقة الجسر Pons بالمخ. أما ما ينظم الأحلام فمنطقتان بعيدتان عن الجسر (وتتحكمان فى وظائف عليا بالمخ)، من هنا يمكن أن يفصل النوم عن الحلم، كما يحدث أحياناً عند تعاطى مخدرات معينة، أو عندما يحدث عطب ما فى الجسر، فيفقد الفرد نوم الريم ولا يفقد الحلم، أو عندما يحدث عطب فى مناطق أمامية من المخ فيفقد الفرد الحلم ولا يتأثر نوم الريم. أمكن باستخدام تقنيات

التفريس scanning تحديد مناطق المخ التى تنشط أثناء أحلام الريم، أما المناطق التى تكون خاملة أثناء الحلم فتشمل تلك التى تنظم الذكاء والوعى والاستدلال المنطقى. لا تزال أهمية الأحلام لصحة النائم مجهولة، وكذا معنى الأحلام.

الجيت لاج

من بين النتائج السلبية للساعة البيولوجية هناك ما يصيب المسافرين عبر مناطق زمنية مختلفة، والذى نعرفه باسم الجيت لاج jet lag، والذى يتسبب فى الإفراط فى النوم، وفقدان التركيز، وضعف التحكم الحركى، والاستجابة البطيئة للأحداث، والغثبان، وضيق الصدر. تحدث الجيت لاج عندما تعجز ساعتنا النحويومية عن التكيف مع التغير فى الماعات الضوء التى يمر بها الشخص عندما يعبر بسرعة مناطق زمنية مختلفة. يقع الجسم عندئذ فى «لخطة». الساعة البيولوجية تحمل الإيقاع المهيأ لمنطقة الزمن الأصلية، وهذا يختلف عن الماعات الضوء فى المنطقة الزمنية الجديدة. هذا الالتزام يؤثر فى دورة النوم/اليقظة، وغيرها من الدورات: تخرج كل دورات الجسم عن التوافق، ويتطلب الأمر بضعة أيام حتى يتم ضبط الساعة حسب المنطقة الزمنية الجديدة، الاختلاف فى ساعات ضوء النهار سيعيد ضبط الساعة الداخلية.

السفر نحو الشرق يتسبب عادة فى جيت لاج أقسى من السفر نحو الغرب، لأن السفر شرقاً يتطلب أن نقصر يوماً، ويتطلب إشارات وقت تحدث أبكر مما تعودت عليه ساعتنا البيولوجية. ساعتنا النحويومية على ما يبدو تكون أقدر على التكيف مع يوم أطول منها على التكيف مع يوم أقصر. ربما وجدنا هذا واضحاً عند بدء التحول إلى التوقيت الشتوى (فى بداية الخريف)، عندما يصبح طول اليوم الأول ٢٥ ساعة، ففيه يجد الجسم أن التحول أسهل منه عند التحول إلى التوقيت الصيفى (فى



بداية الربيع) عندما يصبح طول اليوم الأول ٢٣ ساعة.

التثاؤب

نتثأب عندما نصحو من النوم ونحتاج إلى الحركة، ونتثأب عندما نستعد للنوم. يتثأب الجنين فى بطن أمه وعمره ١١ أسبوعاً. يبدأ الوليد فى التثاؤب بعد ولادته ببضع دقائق. الرياضيون يتثأبون عند بداية المباراة، المظليون يتثأبون قبل القفز من الطائرة، الطلبة يتثأبون قبل الامتحان، الموسيقيون يتثأبون قبل بداية العزف. لكن مرضى الشيزوفرانيا نادراً ما يتثأبون. التثاؤب، كالاتسام والضحك، يعدى. لكن الأطفال قبل سن الثانية لا يتثأبون بالعدوى. الشمبانزى والقرود العليا تتثأب مثلنا، والقطط أيضاً.

كانت الفكرة الشائعة هى أننا نتثأب لحاجة الجسم إلى الأكسجين أو بسبب زيادة نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الدم. أما السبب فى أن التثاؤب يعدى فهو أن الموجودين فى نفس المكان يحتاجون هم أيضاً إلى الأكسجين. لكن بروفاين Provine سنة ١٩٨٧ أثبت أن هذا خطأ. إن صورة شخص يتثأب قد تدفعك إلى التثاؤب، بل ويكفى حتى صوت شخص يتثأب، يبدأ نحو نصف الكبار (٤٢.٥٪ منهم) فى التثاؤب مباشرة عند مشاهدة أفلام فيديو عن التثاؤب. ولقد تتثأب وأنت تقرأ هذا!!

التثاؤب عملية لا إرادية. وجد الباحثون سنة ٢٠٠٥ أن ثمة تعطيلاً واضحاً لمنطقة المخ حول الأميغدالة يزداد مع تهوؤ الفرد للتثاؤب بعد رؤية آخر يتثأب. هذه المنطقة من المخ ترتبط بالتحليل اللاشعورى للتعبيرات العاطفية فى الوجه. لكن، لا أحد يعرف لماذا يتعطل نشاطها مع عدوى التثاؤب. يأتى التثاؤب استجابة لمجال واسع من المسببات: الاقتراب من النعاس، الاستيقاظ من النوم، الجوع، الضجر، الهلع، التعب، الإجهاد، ويكون أشد وأقوى فى الصباح الباكر عنه فى الليل. يستمر التثاؤب فترة تتراوح ما بين ٥ و ١٠ ثوان، وهو فى الذكور أقوى منه فى الإناث وأطول. عند التثاؤب يتسع الصدر، ويهبط الحجاب الحاجز والحنجرة، ويرتفع جناحا الأنف ولهة الحلق، ويسحب اللسان إلى أسفل إلى الخلف، وتبعد الأوتار الصوتية، ويفتح الفم على

اتساعه للشهيق العميق، وتُغلق الغدد الدرقية للعين، ويزداد ضغط الدم ومعدل النبض. فإذا أُطبقت فكَيْك ولم تفتح فمك، فلن تجد التثاؤب مشبعاً! بسط عضلات الفك والوجه أمر ضروري للتمتع بالتثاؤب! في التثاؤب متعة؟!

يرى بعض العلماء أن عدوى التثاؤب قد نشأت في وقت ما من تاريخنا التطوري، لأنه يخدم في تنسيق السلوك الاجتماعي للجماعة. مواعيد النوم والاستيقاظ على وجه الخصوص. ربما كان هذا جزءاً من ظاهرة عامة للإشارات اللاشعورية التي تُستخدم في توقيت السلوك الجماعي. عندما يتثاءب فرد فإنه ينقل إشارة إلى الآخرين، فيتثاءبون ويستعد الجميع للنوم. مثل هذا التوافق قد يكون أساسياً لبقاء النوع، مثلما يبدأ سرب الطيور في الطيران بمجرد أن يرتفع طير واحد منطلقاً في الهواء، لأنه فرضاً. قد لاحظ خطراً يقترب! إننا نتثاءب كي يُبقي معاً، ونوافق نشاطاتنا، نتثاءب كي يخبر بعضنا بعضاً بأن موعد النوم قد أوفى، أو أن الوقت قد حان للاستيقاظ والبحث عن الطعام!

السائرون نياماً

السير أثناء النوم somnambulism، أو السرمنة، حالة يختلط فيها النوم باليقظة، يصحو فيها الفرد جزئياً ليمشي. يحدث هذا أساساً في الثلث الأول من الليل، بعد ساعة أو ساعتين من النوم، والطفل في مرحلة النوم العميق اللاريمي. ولا يحدث في مرحلة النوم الريمي. يبدو الطفل يقظاً مرتبكاً عاجزاً عن معرفة ما يفعل: عيانه مفتوحتان بهما نظرة زجاجية وعلى وجهه تعبير مشدود، يتجول بلا هدف في المنزل، ليقوم بأفعال تبدو مقصودة، فلقد يتوجه إلى حجرة أخرى بالمنزل لينام فيها، أو يمضي إلى المطبخ ليأكل، أو قد يخرج إلى الشارع، بل وربما توجه إلى النافذة وفتحها وسقط منها! ولقد يدخل في حديث مع الآخرين، إنما بكلام مشوش لا يفهم له معنى. تستمر هذه الحالة ٢٠.٥ دقيقة، والعادة ألا يتذكرها الطفل عندما يستيقظ، ولا يجب في الحقيقة أن نذكره بها ولا خاف من النوم فيما بعد، بل ولا يجب أيضاً أن نوقظه وهو في هذه الحالة ولا أن نتحدث معه بصوت مرتفع، يكفي أن نصطحبه بهدوء إلى فراشه، إذا سمح هو بذلك.

لا أحد يعرف السبب الحقيقي لسلوك الأطفال هذا، وإن كان في العادة «صفة تجرى في العائلة»، بمعنى أنه على الأغلب وراثي. تقول الدراسات على التوائم المتطابقة أنه إذا كان أحد التوأمين يسير نائماً، فالأغلب أن يكون الآخر كذلك أيضاً. هي صفة يقدح زنادها نوم الطفل في مكان غريب، وتراكم فترات قلة النوم، والحمى، ولكن يندر أن يرتبط هذا السلوك بالحالة السيكلوجية. ولقد رُصد معامل تلازم مرتفع (+٠.٧٣) في الأطفال بين السرمنة وبين التكلم أثناء النوم (بلغ هذا المعامل +٠.٥٦ في كبار السن).

تصيب هذه الحالة الأطفال بخاصة، لاسيما بين عمري ٨ و١٢ عاماً، عندما تصل نسبة من يعاني منها، مرة واحدة على الأقل، إلى نحو ١٧٪، لكنها تختفي قبل البلوغ في معظم الحالات، وإن كانت قد تحلّ بالبعض بعد البلوغ. هناك نحو ٤٪ من البالغين يسرون نياماً. أما السبب في معظم حالات الأطفال فوراً. إذا كنت مسرئاً فثمة احتمال يبلغ ٤٥٪ في أن يولد لك طفل مثلك، وإذا كنت وزوجتك سوياً مسرئين فقد يرتفع الاحتمال إلى ٦٠٪!

أما ما يسبب السرمنة في الكبار، فهناك بجانب الوراثة أحوال تزيد من احتمال ظهورها، منها: الاجهاد الجسدي والعاطفي، وانخفاض إفراز الغدة الدرقية، والصداع النصفي، وإصابات الرأس، والتهاب الدماغ، والحمى، وانقطاع النفس أثناء النوم، وتعاطي بعض أدوية علاج الأمراض النفسية (كالليثيوم) أو أدوية علاج مرض باركنسون، ونقص المغنسيوم، وأيضاً السفر عبر مناطق زمنية مختلفة، أو النوم في مكان غير مألوف. وقد اتضح أن نسبة كبيرة ممن يسرون أثناء النوم من الكبار قد خبروا السرمنة وهم أطفال، نسبة تبلغ ٢٥٪ في الرجال و١٨٪ في النساء. وتأخر ظهور السرمنة في الكبار عادة ما يعني أن وراءها سبب عضوي. في دراسة نُشرت سنة ٢٠٠٢ شملت ٧٤ «مريضاً» بالغاً ممن يسرون نائمين (٥٨٪ منهم كانت الصفة قد ظهرت بهم وهم

أطفال، وكان لنسبة ٢٤٪ من هؤلاء أقارب يسرون نوماً) اتضح أن أكثر من نصفهم يحمل صيغة من جين هو (DQB1)، لا يوجد إلا في ربع عينة من الأصحاء استخدمت للمقارنة. هذا الجين هو واحد من عائلة من الجينات تنتج بروتينات اسمها هلا HLA تختص بتنظيم الجهاز المناعي. وقد اتضح أيضاً أن هذا الجين يرتبط بمرض آخر من أمراض النوم، هو الخدر.

التعسيلة (القيولة)

التعسيلة (أو ضجعة الظهيرة) هي فترة قصيرة من النوم يأخذها الفرد بعد وجبة منتصف اليوم، وتعتبر فترة وجيزة من الراحة الخفيفة أكثر منها نوماً جاداً. لا يعرفها الأطفال عادة ولكنهم يتعلمونها في نهاية المطاف. يحدث في منتصف النهار أن يقل نشاط الجسم وتنخفض حرارته (في الرجال أوضح كثيراً من النساء)، الأمر الذي يتسبب في حالة وسن تشبه ما يحدث لنا ليلاً في المرحلة الأولى من مراحل النوم، فيغلبنا النعاس. وإشباع هذه الرغبة في النعاس يجعلنا نصحو ونحن نشعر بالراحة والنشاط.

التعسيلة تُعزز التعلم والذاكرة. أجريت تجربة قورنت فيها مهارات التعلم والذاكرة لمجموعتين من الناس خلال يوم واحد ومعه صباح اليوم التالي. حرمت مجموعة من النوم تماماً طول النهار، فأخذ أداؤهم يتناقص حتى العصر والمساء. سمح للمجموعة الأخرى أن يعمسوا لمدة ٦٠.٩٠ دقيقة في الساعة الثانية ظهراً، ثم فحصت موجات المخ في مرحلتى نوم الموجة البطيئة ونوم الريم. تقول النتائج إن من كان نومهم يتضمن المرحلتين كانوا أفضل أداء ممن لم يناموا. عندما اختبروا في نهاية النهار، أما من لم يصل منهم إلى نوم الريم فكان أداؤهم أقل ممن مر بمرحلتى النوم. كان أداء من تمكن من تعسيلة جيدة على نفس جودة أداء متطوعين في دراسات أخرى اختبروا بعد نوم ليلتين نوماً جيداً. انتهى

الباحثون إلى القول بأن التعسيلة تعادل نوم ليلة كاملة بالنسبة للتعلم. إنها وسيلة لتسديد جزء من «دين النوم»، وكلنا مدّين!

دين النوم

دين النوم هو القدر من النوم الذي كان يلزم أن تأخذه، ولم تأخذه. الحرمان من النوم يسبب الشعور بالإرهاق بالنهار، والخمول والقلق والكآبة وضيق الصدر وانخفاض قدرة المخ على التركيز أو التذكر، وضعفاً جسمانياً يصعب معه القيام بالمهام البسيطة، أما المهام الأصعب فتبدو لك مستحيلة. استرخ، فإذا بدأت تشعر بأنك تعب، أو أصابك الوسن وشعرت بالرغبة في النوم، فستكون هذه إشارة بأن عليك ديناً!!

يمكن تقدير دين النوم إذن بالسرعة التي يغلبك فيها النوم أثناء النهار. العطش الشديد يجعلك تشرب كوب الماء، إذا توفّر، في لمحة. من يحمل ديناً من النوم ثقيلًا ينعس على الفور إذا أتاحت الفرصة أثناء النهار. ٩٠٪ من الناس يعتقدون أن وجبة الغذاء الثقيلة ظهراً هي السبب في الوسن الذي يستحث النعاس في الظهيرة. وهذا خطأ فادح. إذا لم يكن لديك من دين النوم الكثير فلن تحس بالحاجة إلى النوم بعد الوجبة في منتصف النهار. البعض يتصور أن الرتابة ودفع الحجرة والكحوليات كلها تسبب النعاس، وهذا أيضاً خطأ بين. هذه العوامل جميعاً لا تسبب النعاس، إنما هو حجم دين النوم! يحاول البعض منا، جهلاً، أن يجدوا في شرب القهوة بديلاً عن النوم نهاراً. وهذا أمر لا طائل وراءه، ولا يسد دين النوم. لا سبيل إلى تسديد الدين إلا بساعات نوم إضافية.

الأرق (السهاد)

الأرق هو ألا تتمكن من أن تنال ما تحتاجه من النوم المريح أثناء الليل، أن تجد صعوبة في الولوج إلى النوم، أو أن تستيقظ كثيراً أثناء النوم ثم يصعب عليك أن تنام ثانية، أو أن تستيقظ مبكراً جداً في الصباح.

الكثيرون منا يعانون كل ليلة من الأرق على مستوى ما: في كل ليلة يعاني من الأرق



١٥.١٠٪ من الناس. الأرق يُصيب النساء أكثر مما يصيب الرجال، لاسيما الحوامل منهن. ربما بسبب التغيرات التي تحدث في الهرمونات والحاجة إلى التبول وحركة الجنين داخل البطن، بل وشكل الجسم الذي قد يغير من وضعة النوم.

والحصول على ما يكفي من النوم أمر أساسي للصحة والسلامة، فللأرق آثاره السلبية على المزاج، ويسبب زيادة دين النوم، مما يتدخل سلبياً في النشاط اليومي للشخص وفي علاقاته مع الآخرين وأدائه في العمل، ولقد يتسبب أيضاً في مخاطر جسيمة، ربما كان أخطرها النعاس أثناء قيادة السيارة.

يحدث «الأرق العابر» بين الفينة والفينة، وهو قصير لا يستمر طويلاً. بضع ليالٍ متقطعة فقط خلال أقل من أربعة أسابيع، وعادة ما يكون السبب ظرفاً طارئاً مؤقتاً، مشكلة عاطفية مثلاً أو واقعة مؤلمة، أو يوماً مرهقاً في العمل، أو ضجة حدثت أثناء النوم، أو خطأ حلّ بالساعة البيولوجية بسبب الجيت لاج، أو أثراً جانبياً لتعاطى أدوية الكحة أو البرد.

أما «الأرق المزمن» فيستمر ثلاث أو أربع ليالٍ في الأسبوع، لمدة شهر أو أكثر، والعادة أن يكون نتيجة لعوامل مركبة، فأسبابه في الواقع متعددة منها الإصابة بالربو والتهاب المفاصل، والاكتئاب العميق، وتعاطى أدوية ضغط الدم والكافايين (في الشاي والقهوة والكافا والكولا) والنيكوتين والكحول، والقلق الشديد، وانقطاع النفس، وانقطاع الطمث في النساء. وقد لوحظت في أصحاب الأرق المزمن مستويات غير طبيعية من بعض كيماويات الجسم، مثل الميلاتونين الذي تنخفض نسبته في الكثير من الحالات، ومثل الكورتيزول cortisol، هرمون الإجهاد، الذي ترتفع نسبته وهو المعروف بتقليله لنوم الريم. هناك أيضاً حالة وراثية نادرة من الأرق يمكن أن تغدو في النهاية قاتلة، تُسمى الأرق العائلي المميت.

الغَطِيطُ (الشَّخِيرُ)

ليس ثمة ما هو أسوأ من صوت شخص يغط في نومه بجوارك وأنت تحاول أن تنام! الغطيط مشكلة شائعة للغاية، «تصيب» الصغير كما الكبير: ٢٠٪ من الرجال في عمر ٣٥.٣٠ عاماً يغطون

أثناء النوم بضع ليالٍ في الأسبوع، مقابل ٥٪ من النساء في هذا العمر. وعلى عمر ٦٠ سنة تصبح النسبة ٦٠٪ بين الرجال و٤٠٪ بين النساء. يقولون إن الغطيط كان مفيداً لأجدادنا القدماء، إذ كان يخيف المفترسات أثناء الليل ويبعدها عن أسلافنا وهم نيام. ولكنه أصبح اليوم سبباً من بين أسباب الطلاق! من بين كبار المشهورين بالغطيط سنجد أبراهام لينكولن، فرانكلين روزفلت، ونستون تشرشل وبنيتوموسوليني. ومثلنا يغط في النوم الكلب والقطة والفيل والغوريلا والخنزير.

يحدث الشخير عندما لا يستطيع النائم أن يمرر الهواء بحرية خلال أنفه وفمه. يصدر الصوت عن أوركسترا من ذبذبات كثيفة للهواة وسقف الحلق إذ الهواء يندفع خلال مسلك هوائي ضيق ليصل إلى الرئتين. يشترك في العزف أيضاً اللسان واللوز والزوائد الأنفية إن كانت متضخمة. في اليقظة تبقى العضلات الحلق مفتوحة، فإذا ما نام الفرد ارتخت عضلات الحلق واسترخت إلى الداخل فيضيق الحلق، ومع ازدياد ضيق مسلك الهواء تزداد حدة الغطيط. ومع التنفس يبدأ الحلق في التذبذب، وتسبب الذبذبات صوت الشخير. فإذا كان ثمة انسداد بالأنف، تنفس النائم عن طريق الفم، وفتح الفم يدفع اللسان إلى الخلف، وهذا يضغط على مؤخرة الحلق لينطلق أيضاً عزف الغطيط. بجانب انسداد المسالك الأنفية الهوائية هناك أسباب عديدة أخرى للغطيط منها الحساسية الفصليّة، واحتقان الأنف المزمن، والتواء الحاجز الأنفي، وتضخم اللوزتين والزوائد الأنفية، والسمنة، والتدخين وشرب الكحوليات قبل النوم. والعادة ألا يكتشف الشخص أنه يغط في النوم، وإنما يخبره بذلك الآخرون ممن أعجبهم شخيرهم وقص نومهم. قد يغط البعض وهم جلوس إذا ناموا. كنت مرة في جلسة نام رئيسها البدني وبدأ في غطيط غريب مزعج، أيقظته، فصحا وأكد لي أنه لم يكن نائماً، فقلت إنها أول مرة أرى فيها شخصاً يشخر وهو مستيقظ!!

قد يتسبب الشخير في الإجهاد والتعب أثناء النهار، ويبدو أنه يسهم في خطر ازدياد ضغط الدم، والسكتة الدماغية.

من بين طرق معالجة الغطيط أن تنام ورأسك على مخدة مرتفعة، أو ترفع رأس السرير بضع بوصات وأن تُغير وضعتك في النوم فلا تنام على ظهرك، وأن تتجنب الوجبات الثقيلة قبل النوم، وأن تتأكد من عدم تضخم اللوزتين والزوائد الأنفية واللهاة، وأن يعمل السمان على تخفيض وزن أجسامهم.

انقطاع النَّفْس

من بين الأمراض التي قد يتسبب فيها الشخير، مرض خطير من أمراض النوم هو انقطاع النفس apnea الذي يصيب نحو ٤٪ من البشر، وفيه يتوقف النائم بالفعل عن التنفس لفترة قصيرة (١٠. ٣٠ ثانية) لعدد من المرات يتراوح بين ٣٠ و٣٠٠ مرة في الليلة الواحدة. عندئذ يستيقظ النائم لاهثاً يطلب الهواء، ثم ينام ثانية. فإذا ما استيقظ في الصباح لم يتذكر ما حدث له، لكنه يحس بصداق مؤلم يلازمه طول اليوم فيبدو مرهقاً منهكاً، بل ولقد يجد صعوبة في أن يبقى مستيقظاً حتى أثناء محادثاته مع الآخرين. اكتشف مؤخراً أن لدى مرضى القلب الذين يعانون من انقطاع النفس مستويات مرتفعة للغاية من حامض الهوموسيستين الأميني الذي يفرزه الجسم. مثل هذه المستويات المرتفعة قد تثير الأوعية الدموية وتؤدي إلى انسداد الشرايين. اتضح أيضاً أن من يعانون من انخفاض إفرازات الغدة الدرقية معرضون أكثر للشخير وانقطاع النفس، فالعادة أن يكون هؤلاء من السمان، ولأن اللسان لديهم عادة ما يكون ضخماً، ومع احتمال أن تصطحبه أيضاً ترسيبات دهنية في الممر الهوائي الأعلى، فإن احتمال حدوث انقطاع النفس عادة ما يكون فيهم كبيراً.



ثمة علة أخرى من علل النوم نادرة للغاية، هي الخدار narcolepsy، تصيب نحو نصف في المائة من الناس، وفيها يسقط الفرد فجأة نائماً في أوقات غريبة وبشكل متكرر عبر النهار. هذه أيضاً علة خطيرة موهنة.

الكوابيس ورعب الليل

الكابوس nightmare حلم يحدث في النوم الريمي يحس فيه الشخص بخوف وفزع رهيب، وكرب وقلق فظيع فيستيقظ هلعاً. جزئياً على الأقل. تحدث هذه الظاهرة نمطياً في الجزء الأخير من الليل، في الصباح الباكر، وعادة ما توقظ النائم الذي يمكنه دائماً أن يتذكر فحوى الحلم. قد تكون معظم الكوابيس مجرد رد فعل لضغوط الحياة. فإذا تكرّر نفس الكابوس عدداً من المرات أصبح مرضاً قد يفسد حياة الفرد الاجتماعية والوظيفية. تبدأ الكوابيس، عادة قبل عمر ١٠ سنوات، وتعتبر أمراً طبيعياً في الطفولة، وهي أكثر شيوعاً في البنات عنها في الصبيان. وقد تستمر الكوابيس حتى سن البلوغ وعندئذ فكثيراً ما تكون مرتبطة بمشاكل خارجية ونفسية. ورغم ذلك فإن ٥٪ من الكبار يخبرون الكوابيس بين الفينة والفينة، النساء أكثر من الرجال. تعاطى وجبات الطعام الثقيلة مباشرة قبل النوم قد يرفع أيضاً الجسم والمخ، ويسبب الكوابيس. على أن هناك نسبة تبلغ ١٪ من الكبار يعانون من الكوابيس المتكررة. يبدو أن الوقوع فريسة الكوابيس أمر يجري في العائلات.

أما رعب الليل night terror فيحدث أكثر ما يحدث في الصبيان قبل البلوغ، وإن كان يصيب البنات والبالغين أيضاً. هو ظاهرة شائعة في الأطفال بين عمر ٣ و٥ سنوات، وأقل كثيراً بعد ذلك. يحدث رعب الليل والطفل لا يزال في مرحلة النوم العميق اللاريمي في الثلث الأول من الليل بعد ساعة أو ساعتين من نومه. يجلس الطفل في سريرهِ ويبدأ وهو نائم في صراخ مدعور لمدة دقيقة أو دقيقتين، وقد يستمر خمس دقائق، جسده يتصبب عرقاً وتنبضه قد تزايد وعينه مفتوحتان. لكنه لا يصل إلى اليقظة الكاملة، كما يصعب تهدئته، ثم يعود إلى النوم ثانية ولا يتذكر الواقعة عندما يستيقظ في الصباح. ■

سياسة وحروب وعقائد



فاضل الربيعى

■ فى قلب المسيحية العربية تتزاخم اليوم، كما تزاخمت فى الماضى البعيد، صورتان متناظرتان للمسيح، إحداهما للنبي عيسى ابن مريم، والأخرى للرب يسوع المسيح. وهما بفعل هذا التشابك الاستثنائى، تبدوان حتى هذه اللحظة كصورتين تاريخيتين لديانتين، إحداهما قديمة وقد عرفها العرب باسم «النصرانية»، وأخرى جديدة سوف يعرفونها تحت تأثير الفلسفة اليونانية، ثم تالياً تحت تأثير الجدل الفلسفى العميق حول شخصية المسيح، باسم «المسيحية»، وهى المسيحية الرسولية. نسبة إلى بولس الرسول. وقد درج العامة من الناس على مماثلة النصرانية مع المسيحية، حتى أصبحت كلمة «نصرانى» دالة على «المسيحى» بإطلاق. غير أن روايات الإخباريين العرب عن «النصرانية» بعض القبائل فى الجزيرة العربية واليمن والعراق والشام، لا تدل لا من قريب ولا من بعيد على أن المقصود منها الإشارة إلى «المسيحية»، كما نعرفها اليوم، بل قصد بها الإشارة إلى دين عربى قديم هو «النصرانية»، ولأن الروايات الإخبارية الكلاسيكية تتضمن مثل هذا التمييز، فإن الرواية المعاصرة ولأغراض التحليل التاريخى ليس إلا، يجب أن تتضمن التمييز نفسه. لقد ارتبط بزوغ عصر النصرانية فى الجزيرة العربية، وإلى حد بعيد انتشارها ثم اضمحلالها وانحسارها وتراجعها فى المنطقة ككل، بجملة عوامل وظروف دولية ومحلية متشابكة، قد يكون من بينها تصاعد الصراع البيزنطى - الفارسى، وهو صراع لعبت فيه مملكة الحيرة فى العراق القديم، واليمن ونجران ومكة والقدس، أدواراً متميزة. وقد تنفرد مملكة الحيرة فى إطار هذا الصراع العالمى، بلعب دور شديد الخصوصية، ذلك أنها أصبحت طرفاً رئيسياً فى نشر النصرانية ثم المسيحية بكل مذاهبها فى المنطقة. لكن تاريخ مملكة الحيرة، المظمور تحت طبقات سميكة من التراب والأساطير والمرويات المضطربة، قد لا يساعد بما فيه الكفاية فى التعرف على طبيعة هذا

من مقدمة المسيح العربى النصرانية فى الجزيرة العربية والصراع البيزنطى - الفارسى فاضل الربيعى بيروت: رياض الريس للكتب والنشر

الإطار، سعت مملكة الحيرة ومن خلفها قبائل البادية إلى مقاومة التبدل العميق والجذرى الذى طرأ على هذه الديانة، ولكن دون جدوى أو كثير أمل. ومع ذلك بدت، وهى تشهد اشتداد الصراع من حولها بين الفرس والبيزنطيين، وتعيش لحظة تاريخية فاصلة من تلك اللحظات التى تعاضم فيها نفوذ الهرطقات الفلسفية، وكأنها سوف تضطر أو تُرغم عاجلاً أم آجلاً لمقاومة الضغوط ومواجهة التحديات السياسية والفلسفية واللاهوتية الجديدة التى هبت رياحها مع العصر الهلنى، لا بقوة الرفض والتشكيك والجدل العقلى، وربما بالعزلة، بل بقوة السلاح أيضاً. وفى هذا النطاق من تزاخم القوى الدولية والأفكار والمعتقدات الفلسفية من حول العرب، راحت الصور الجديدة ليسوع المسيح الرب، وقد صاغها الرسل والبطاركة فى أنطاكية والإسكندرية بعناية تامة تحت التأثير المباشر للفلسفة اليونانية، تتدفق من حول قبائلهم وممالكهم الصغيرة، لا لتفرض عليهم القيام بتعديلات طفيفة على جوهر ديانتهم القديمة وحسب، بل وأن يتقبلوا الدمج المثير بين شخصيتى عيسى ابن مريم ويسوع المسيح. وفى مرات لا تحصى، بدا أن من المتعذر على القبائل العربية أن تتقبل بسهولة مثل هذا الدمج المثير. ولذلك ظلت - فى روايتها

لتاريخها ولتاريخ مملكة الحيرة. تميز العربية الخالصة أى النصرانية، وبين «مسيحية» أخرى، وفدت عليها من خارج الجزيرة العربية، وراحت تفرض عليها لا اسم يسوع المسيح بدلاً من اسم عيسى ابن مريم، وإنما كذلك صورته كرب لا كإنسان. وهذه، بدا أن من المتعذر إلى النهاية تقبلها بالنسبة لمجتمعات، كانت بفضل «طبيعتها»، أى تحت تأثير «فطرتها الأولى»، تأنف من فكرة «تأليه» البشر «لبشر» آخرين.

كانت نصرانية قبائل العرب هى «مسيحيته» القديمة التى ولدت على الفطرة، عقيدة توحيدية شديدة البساطة والتعشف من المنظور الفلسفى، بل وشديدة التناغم والانسجام والتلاؤم مع حاجات بيئة صحراوية، فيما تبدت «المسيحية» الجديدة القادمة من خارج الجزيرة العربية مع العصر الهلنى، ومع تعاضم سطوة الجدل الفلسفى المستند إلى رؤى وتصورات فلاسفة اليونان القديمة، وكأنها دين آخر يصبح فيه النبي عيسى، هو نفسه الرب يسوع المسيح. وفى قلب هذا التزاخم بين الصور الفلسفية، ومع تضائل إمكانات مقاومته، تراجعت النصرانية العربية إلى الوراء، وأخذت تذوى مع الوقت، ثم تفقد مكانتها وقدرتها على الصمود حتى داخل الجزيرة العربية نفسها. لقد كانت تصارع دون جدوى، لا من أجل تمييز نفسها عن «مسيحية» رسولية، كانت تنتصر فى شتى بقاع الأرض، وإنما من أجل أن تبقى فى المسرح التاريخى كدين عربى. وكان أمراً بديهياً أن تخفق سائر الجماعات النصرانية فى الجزيرة العربية فى الحفاظ على «بقية» من دين عيسى ابن مريم.

ولعل العبارة الشهيرة التى وردت فى العديد من المؤلفات التاريخية القديمة على لسان الحارث بن كعب (من قبيلة بلحارث أساقفة نجران) قبيل وفاته، وهو يوصى أولاده بأن يتمسكوا بالنصرانية، وأن يقاوموا الضغوط والتحديات السياسية والفلسفية، كافية للدلالة على حجم التحدى ونوع التراجع، إذ خاطب الحارث بن كعب أبناءه قائلاً: «يا بنى قد آتت على مائة وستون سنة، ولا بقى على دين عيسى ابن مريم من العرب غيرى، وغير تميم بن مر بن أسد، فموتوا على شريعتى واحفظوا على

كانت نصرانية قبائل العرب هي «مسيحياتها» القديمة التي ولدت على الفطرة،
عقيدة توحيدية شديدة البساطة
والتكشف من المنظور الفلسفي



La cene- the Last Supper. Canvas, 158x 233 cm, Champaigne, Philippe de (1602-1674)

المسيحية الرسولية في المنطقة. وفي هذا الإطار، يتوافق عدد كبير من الرواة العرب والمسلمين على أن دين عيسى ابن مريم، هو الدين الذي تعرف العرب القدماء إليه وآمنوا به، وأن المسيحية الجديدة لم تلق الكثير من القبول في أوساط القبائل. لقد سجل القرآن الكريم في العديد من الآيات والسور، وبدقة مذهلة، وقائع وصور الجدل المحتدم حول شخصية المسيح، وهو جدل انتهى بتمسك وتشبث النصارى العرب بروايتهم عن دين المسيح العربي (المسيح عيسى ابن مريم) الذي عرفوه. كانت «المسيحية الجديدة» المنافسة، والمنادية بيسوع المسيح الابن والرب، تستمد قوتها ونفوذها في المنطقة من عنصرين تاريخيين، كانا متلازمين بصورة تامة، الجدل الفلسفي الصاخب الذي طوّر الرؤى المسيحية وغير شكلها بالكامل، واعتناق الإمبراطورية الرومانية للمسيحية كديانة رسمية. وهذان العاملان كانا حاسمين في تطور المسيحية الجديدة التي راحت تتبنى، وتصارع في الآن ذاته، تيارات فلسفية ولاهوتية وهرطقات، كانت جميعاً

غالباً ما يشيرون إلى ورقة بن نوفل بأنه «من الأحناف» أو «من نصارى العرب» في آن واحد، ومن دون أن يبدو ذلك متناقضاً. وهذا يعني من بين ما يعنيه، أن هؤلاء الأحناف ليسوا سوى فرقة نصرانية، وجدت نفسها وهي تحتمي من الهجوم الفلسفي الكاسح على المنطقة، بعقيدة قديمة أخرى من عقائد العرب، ويلاحظ من نصي «المنق» و«السيرة الحلبية» عن حنيفة أبو بكر وأسعد بن كُرب وقس بن ساعدة والآخرين، أن لا دليل على وجود هؤلاء، كجماعة حنيفية واحدة ومتماسكة، لأنهم عاشوا في عصور وبيئات مختلفة، ويستحيل الجمع بينهم في عصر واحد، وكمثال على ذلك، أن أسعد بن كُرب الحميري وهو من ملوك اليمن القدماء، يبدو من المنظور التاريخي، أبعدهم عن حقبة «عشية الإسلام» التي عاش فيها الآخرون. ومع هذا، فإن مجرد تجرؤ مؤلف مثل ابن الجوزي، أو ابن حبيب، على وضع أبي بكر الصديق ضمن «الأحناف» - وهو أمر لا يقول به مؤلفون آخرون - يدل على اتساع نطاق بحث العرب قبل الإسلام عن «ديانة» أخرى، بعدما تراجعت النصرانية أمام زحف

وكما في سيرة ابن هشام، فإن قريشاً اجتمعت يوماً في العيد، عند صنم لهم يعظمونه ويطوفون حوله وينحرون له، فقال بعضهم لبعض: ما قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء. ثم إنهم «تفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم». وحسب رواية ابن حبيب في «المنق في أخبار قريش» ورواية ابن الجوزي التي نقلها صاحب السيرة الحلبية (٢٢٢/١ - ٢٢٣) فإن «أبو بكر الصديق ورباب بن البراء وأسعد بن كُرب الحميري وقس بن ساعدة الأيادي وأبا قيس بن صرمة» كانوا على دين الحنيفية. أما ورقة بن نوفل فدخل اليهودية، ثم تركها ودخل النصرانية واتبع الكتب. لكن قائمة ابن حبيب تضم أسماء آخرين، منهم أسد بن عبد العزى، وزيد بن عمرو بن نفل، وعبيد الله بن جحش، وعبد المطلب بن هاشم، وشيبة بن عبد شمس (وكان يتحنف في غار حراء) وأبو أمية بن المغيرة والحارث بن عبيد المخزوميان، وعامر بن حذيم الجمحي، وعبد الله بن جدعان التيمي، ومقيس بن قيس. وهؤلاء جميعاً كانوا يعيبون على العرب وقريش استمرارهم في الوثنية وترك شريعة إبراهيم. والمثير للاهتمام في هذا السياق، أن الإخباريين العرب،

وصاتى - وصيتى - والهكم فاتقوا، يكفكم ما أهمكم ويصلح لكم حالكم وإياكم ومعصيته». أما في مملكة الحيرة، فإن النصارى العرب وهم يتتبعون خطى إخوتهم في نجران، فقد راحوا يتجمعون في شكل فرقة دينية، سوف يعرفها التاريخ باسم «العباد». وقد ارتأى ابن دريد في «الاشتقاق» في تفسيره للكلمة التي ارتبطت بظاهرة وجود هذه الجماعات، أن للاسم صلة بطبيعة الدين الذي اعتنقوه، فهم كانوا «قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا بالحيرة على النصرانية فأنفوا أن يقال لهم عبيد، فينسب الرجل عبادي». ومع ذلك يمكن ملاحظة أن التحول المطرد إلى الحنيفية، والذي شهدته الجزيرة العربية في أوساط وثنى قريش عشية الإسلام، كان يرتبط عميقاً بحقيقة أن تراجع النصرانية، اتخذ في هذه الأونة من التاريخ، صورة عودة إلى عقائد وشرائع عربية، ولدت في الأصل من رحم الديانة الإبراهيمية. ومن هذه العقائد عقيدة الحنيفية التي سوف تتبلور داخل بيئة وثنية في صورة دين توحيدى «غامض» إلى حد ما.



تُخَوِّصُ في جدال لا يهدأ حول شخصية المسيح وجوهه.

ولم يكن أمام النصرانية العربية المراجعة بطبيعة الحال، إلا أن تنزوي داخل الجزيرة العربية حاضنتها القديمة، وتتخفى بعض فرقها وشيعها عن أنظار المشتبهين بها في صورة «أحناف»، زهدوا في الدنيا ولكنهم كانوا لايزالون في مسوح الرهبان. وفي الواقع لم يعد بوسع النصراني العرب آنذ، أن يفرضوا على أتباعهم أى شكل من التمييز، بين دين عيسى ابن مريم والمسيحية الجديدة، لأن الأخيرة راحت على أيدي مبشرين ورهبان وقساوسة كانوا يجوبون أرض الجزيرة العربية طولا وعرضا، تفرض رؤاها وتصوراتها النهائية عن طبيعة المسيح.

في هذا الإطار العمومي المشحون بالصراع والرؤى والأحداث، سوف يبدو تاريخ مملكة الحيرة، ومن زاوية العلاقة بين انتشار النصرانية ثم تراجعها وبين الدور الذي اضطلعت به، وكأنه تاريخ مجهول بالفعل، بينما تشكل الأساطير «تاريخاً بديلاً» حاضراً بقوة، نظراً لضخامة التراث الذي تركه لنا القدماء من مروييات وقصص وحكايات، كانت بوجه الإجمال، تروى بأشكال وشروط السرد الكلاسيكي والتقليدي، كيفية تحول القبائل والملوك إلى «النصرانية»، بل وظروف دخول القبائل في قلب جدل فلسفى محتدم سرعان ما تحول إلى صراع سياسى. إن إعادة بناء الرواية التاريخية استناداً إلى هذا التراث، ستكون خطوة أولى ولكن ضرورية للغاية، حتى يكشف باطن الأرض عن كنوزه من النقوش الضائعة التي خط فيها النصراني العرب بعضاً من سطور هذا التاريخ. وبالنسبة لقارئ التاريخ القديم، فإن مملكة الحيرة (غربي الفرات العراقي) مثلما سجل الإخباريون العرب بعض فصول ازدهارها وتلاشيها عن المسرح، وتناقلوا قصصها وأحداثها في مؤلفاتهم؛ ستبدو لا محالة، بفعل التشابك والفوضى في سرد الأخبار، مثل كرة خيوط رقيقة سقطت من الرف ثم راحت تتدحرج، فتشابكت الخيوط والتف بعضها على بعض، حتى تشكلت عندئذ، عقد لا حل لها. ولذلك سيبدو هذا التاريخ لشدة تراكم وتعدد أحداثه - مراراً وتكراراً - بالنسبة للقراء العاديين وحتى لأهل

التاريخ وبناء روايته، تتطلب الاستعداد والقدرة معاً، لتقديم معالجة راديكالية وفعالة للنصوص القديمة. وفي أرجاء هذا التاريخ كما سنرى، ترددت بشكل متواتر ومثير، أسماء مدن ودويلات مدن وملوك ورهبان وقساوسة ومبشرين، يصعب أو يستحيل تجاهلها حتى وإن بدت وكأنها من تلفيق الرواة. ومن غير شك، فإن مساعدة وتمكين القراء من التفاعل، والمساهمة أيضاً في إعادة تركيب «تاريخ قديم» ضائع أو مفقود من السجلات، وتمكينهم كذلك، من التنقيب عنه كما لم يفعل المنقبون ولم يبحث فيه الباحثون من قبل؛ سوف تعنى أن هؤلاء القراء يمكن أن يصبحوا شركاء في البحث عن تاريخ منسى روته الأساطير بأكثر مما رواه كتاب التاريخ. ولأجل ذلك كله، فسوف يقوم الكاتب بعرض وتحليل أهم أسطورة عربية قديمة تداولها سكان الحيرة، ومعهم عرب الجزيرة العربية على مر العصور، نعنى أسطورة جذيمة الأبرش ومصرع النديمين (المهرجين) بوصفها الأسطورة الكبرى، والمؤسسة لسلسلة من الأساطير والتصورات السائدة عن تاريخ هذه المملكة ونصرانية ملوكها العرب. إن أسطورة «نديمى جذيمة الملك» مثلها مثل أسطورة «تنصر النعمان» ذات صلة حميمة بالمسيحية العربية والصراع البيزنطى - الفارسى في المنطقة. لقد أصبح انتشار المسيحية في وقت ما، هو الإطار الحقيقي للصراع الذى خاضته الإمبراطوريتان القديمتان بضراوة، وبذلك ما ترددت أصداؤه بقوة في قلب الجزيرة العربية التى كانت تتقرب آنذ، لا مصيرها، بل ومستقبل العالم القديم بأسره. وفي لحظات الترقب هذه، عاشت واختمرت فكرة الإسلام العظيم من قبل أن يولد في مكة.

وأخيراً؛ فإن أساطير الحيرة التى روت أشياء كثيرة لا يعرفها المؤرخون عن النصرانية الأولى، هى من بين أثمن ما امتلك العرب من أساطير. ولأنها على هذا القدر من الأهمية كما نرى، فسوف نقوم بتفكيكها في سياق إعادة بناء رواية متماسكة عن تاريخ المسيحية العربية، بالتلازم مع استكشاف مجاهل تاريخ هذه المملكة التى طمرت تحت ركام من المروييات الشعبية المفعمة بالخيال. ■

شخصيات حقيقية أو واقعية. ومن أجل تسهيل مهمة القارئ ومساعدته على فهم هذه الأساطير، فهماً خلاقاً واستيعاب دلالاتها بتأمين أقصى قدر من التفاعل مع جهازها السردى المعقد، حيث يتشابك التاريخ مع الأسطوري، وتمكينه في الآن ذاته من التعرف على جغرافيات القصص والأشعار والروايات، حيث دارت فوق مسرحها ذات يوم أحداث مروعة ومأساوية، فإن المؤلف سيعرض بعض التعريفات المقتضية للأماكن والشخصيات الواردة في الكتاب. والمثير للاهتمام في هذا النطاق، أن أساطير مملكة الحيرة ارتبطت بشكل وثيق بمسألة انتشار المسيحية الجديدة في الجزيرة العربية (وليس دين عيسى بن مريم كما عرفه العرب).

وهذا أمر يستدعى التعريف، لا بالأماكن والمدن والدويلات القديمة وحسب، وإنما كذلك بالفرق والمذاهب والتيارات والأفكار العقائدية الكبرى. إن الباحث عن صلة ما، بين ظهور ثم انتشار المسيحية في العراق القديم والجزيرة العربية، وبين انتشار هذه الأساطير التى أعاد سردها الإخباريون العرب في مختلف العصور؛ سيجد نفسه مضطراً إلى رسم إطار تاريخى فضفاض، الغرض منه تأمين وسيلة مناسبة لفهم الإشارات والرموز على أكمل وجه.

إن السعى إلى إعادة بناء الأساطير من داخل هذا التاريخ المتشابك، وليس من خارجه، هو الوسيلة الوحيدة التى نملكها اليوم، لإنجاز فهم عميق لكل ما يبدو لنا مجرد أخطاء أو فوضى ضربت هنا أو عصفت هناك، ذلك أن إعادة قراءة

الاختصاص من معالجي النصوص الأسطورية والقديمة على حد سواء - كما لو كان تاريخاً أسطورياً متشابكاً يستحيل فهمه، أو التعرف عليه من دون نزع بعض الخيوط من الكرة، أو تمزيقها والتخلص منها دون تردد. لقد تعاقب على رواية تاريخ النصرانية وتاريخ مملكة الحيرة كذلك، وبصورته المزينة هذه، رواة أعطوا لأنفسهم وإلى أبعد حد متخيل، حق وحرية التصرف في تقرير مصائر شخصياته وأبطاله، وربما تقرير عدد السنوات التى حكم فيها الملوك في الحيرة من غير تدقيق في صحة وجودهم؟ ولذلك أيضاً، يبرز تاريخ الحيرة كما كُتب على هذا النحو، بوصفه سلسلة متصلة من الأساطير والروايات الإخبارية التى تعج بأسماء مدن، هى فى خاتمة المطاف دويلات مدن قديمة وزائلة، ازدهرت وحاربت ثم ذوت، ولكن من دون أن تترك أى أثر حقيقى يثبت حضورها فى السجلات المكتوبة. وهكذا، فقد ترددت فى أرجاء هذا التاريخ الصاخب، وعلى نحو غير مألوف وباستمرار، أسماء ملوك نصارى لا يعرف عنهم المؤرخون وعلماء الآثار أى شئ، كما ترددت فى دهاليزه المظلمة، أسماء ملوك آخرين يبدوون لأول وهلة، كما لو كانوا أشخاصاً حقيقيين وتاريخيين بالفعل، بينما البعض الآخر لا وجود له فى مسرح التاريخ، فيما تصعب بالنسبة لآخرين البرهنة على أنهم



إن السعى إلى إعادة بناء
الأساطير من داخل هذا التاريخ
المتشابك، وليس من خارجه، هو الوسيلة
الوحيدة التى نملكها اليوم،
لإنجاز فهم عميق



رواية لأديب مصري فى المهجر



محمد يوسف عدس

العالم الذى

احترام مشوب بالخشية من انتقاداته المستمرة لهم، ومن تعليقاته اللاذعة على تصرفاتهم.. صغرت أو كبرت، كأنه رقيب عتيد يحصى عليهم الأنفاس.. ربما كانت هذه طريقة مبطنة لبسط سيطرته على الآخرين. إذا نظرت إلى سى نادر من الخارج لا تملك إلا الإعجاب به؛ فهو رجل هادئ رابط الجأش شديد الثقة بنفسه، لا يسمع له صوت مرتفع مهما كانت درجة غضبه، له قدرة على الإقناع والنفاذ إلى العقول بكلام هادئ رصين.. شديد العناية بمظهره وأناقته.. ولكنه ينفق دخله كله من وظيفته المرموقة على مطالبه الشخصية، ومتعه الخاصة، التى تدور حول اللبس المتميز، وارتياذ السينما والمطاعم الفاخرة مع أصدقائه من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع. ولذلك يضطر إلى اللجوء إلى والدته يطلب منها قروضا لا ترد.. مقيم فى بيت الأسرة المزدحم ولكنه لا يسهم بشئ من النفقة فيه. لقد أمعن فى بلوغ سن الزواج، ولكنه لا يقبل عليه جادا، قد يستجيب لإلحاح والدته وأبيه، فيقدم على خطوبة فتاة، يبدى نحوها فى أول الأمر شيئا من الحماس، ولكن سرعان ما ينطفئ هذا الحماس وينسحب من الخطوبة فجأة، مُتمحلاً بعض الأعذار الواهية والمبررات التافهة..

استسلم الجميع على مضض لقرار سى نادر بحرمان سميحة من مواصلة التعليم إلا سميحة نفسها، التى أسقط فى يدها، ولم تجد أحداً ينهض لنجبتها فى مواجهة هذا القرار الغاشم، سوى أصغر إخوتها طارق، الذى كان ينظر إلى سلوك أخيه الأكبر فى جملته باستغراب شديد وعدم رضا، وقد تفجر غضبه بقوة بعد قراره الظالم الذى لم يعبأ بتفسيره أو تبريره للآخرين، كأنما كان يتوقع من الجميع الإذعان والاستسلام بلا مناقشة، على اعتبار أنه يصدر قراراته عن حكمة وترو.

تجرأ طارق فناقشه فى الأمر مُحْتَجاً، ففوجئ نادر ولم يستطع أن يقدم إجابة منطقية، بل حاول صرفه بسخرية واستعلاء، قائلاً له: ما أنت إلا

المباشر، بل يصف الواقع مغموساً برؤيته الخاصة للشخصيات والأحداث، وما تمثله هذه الشخصيات من قيم وتأثيرات على مجرى الأحداث والوقائع، فى سياق درامى يدمج القارئ فى تياره بطريقة طبيعية لا افتعال فيها، فإذا به مثلاً يتعاطف مع شخصيات بعينها، لا يملك إلا أن يمنحها مشاعره.. أستطيع أن أصف شعورى الخاص مثلاً تجاه شخصية سميحة وهى شخصية محورية فى هذه الرواية، يتفاعل حول مشكلتها أفراد الأسرة جميعاً، وتتشكل مواقفهم، وتوتراتهم بعضهم مع بعض..



سميحة هى أصغر أفراد الأسرة، وجدت نفسها فجأة محرومة قهراً من مواصلة الدراسة.. لم يكن ذلك عن ضيق ذات اليد، فالأسرة واحدة من أسر الطبقة المتوسطة.. ميسورة الحال فى ذلك الزمن، عائلها فى وظيفة لا بأس بها، ذات دخل كافٍ ليجعلها أسرة مستورة، وتملك الأم بضعة أفدنة من أرض زراعية ورثتها عن أبيها، وهى لا تبخل بإسعاف الأسرة بالمال عندما تطرأ ظروف تستدعى مساعدة إضافية. كل إخوة سميحة وأختها الأكبر منها، واصلوا تعليمهم حتى المرحلة الجامعية، بعضهم تخرج، وحصل على وظائف محترمة وبعضهم مازال يواصل تعليمه بلا انقطاع.. ولم تكن سميحة متخلّفة فى دراستها ولا راغبة عنها، بل كانت مقبلة على الدراسة بحماس، ومتفوقة على قرياناتها فى المدرسة.. والغريب أن والدها -وهو رب الأسرة المسئول- لم يكن هو الذى اتخذ قراراً بوقفها عن مواصلة الدراسة، وإذن فمن صاحب هذا القرار المشنوم؟ إنه الأخ الأكبر «سى نادر» هكذا كان يخاطبه الجميع داخل الأسرة.

«سى نادر»، هذا مكانة متميزة بين جميع الإخوة والأخوات؛ فالجميع يعملون له ألف حساب؛ شعورهم نحوه مزيج من الاحترام والاعتزاز.. ولكنه

الصحى، كان هو السائد المستقر فى مصر.. وأن الذى يحدث الآن من اضطرابات بين المسلمين والمسيحيين، تعددت وتيرة حدوثها وعلا صداها فى الصحافة والإعلام بشكل غير مسبوق، مما يعكّر الأجواء المتوترة بين المواطنين المسيحيين والمسلمين.. لا بد أن يكون عنصراً دخیلاً.. تغذيه مصالح سياسية مشبوهة.. وليس جزءاً طبيعياً من العلاقات الأصيلة بين المصريين، وتاريخهم الطويل والعريق فى التفاهم والتسامح.

تغطى الرواية فترة تمتد على مدى عقدين من الزمن، وبالتحديد سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين.. والذين عاصروا هذه الفترة بوعى، وهم الآن قلة قليلة، يعلمون أنها كانت فترة حافلة بالأحداث الجسام والتحوّلات الكبرى فى تاريخ مصر.. لقد شهدت هذه الفترة تغيرات هائلة وصراعات واضطرابات خطيرة على المستوى المحلى والعالمى على السواء، وقد انعكس هذا كله على حياة المجتمع المصرى بأسره.. يطرحها المؤلف فى روايته فيبرز ملامحها وأثارها العميقة فى وقائع حية تشكل فى حقيقة الأمر الخلفية الاجتماعية والفكرية لكل ما يجرى من أحداث وتطورات درامية فى محيط أسرة السيد المصرى: فى حياة أفرادها وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وعلاقاتهم بالآخرين فى المجتمع، وبصفة خاصة مشاركة بعض أفرادها فى الحركة الوطنية، وتعرضهم لاضطهاد السلطات الحاكمة بسبب هذا النشاط.

هذه إذن رواية واقعية، بمعنى أنها تصف واقعا حقيقيا لأسرة مصرية محددة، يعرف المؤلف أفرادها معرفة حميمة، يعرف أوضاعهم ويحس بمشاعرهم ويشاركهم فى أفراحهم وهمومهم، ويعانى معهم صعوباتهم ومشاكلهم الطارئة والمزمنة، وهى مشكلة حقيقية وليست متخيلة، ومن هنا جاء صدق الرواية، وأصالتها، ولكن المهم أن المؤلف لا يلجأ إلى السرد التاريخي

■ ■ هذه رواية تصوّر حياة أسرة مصرية من الطبقة الوسطى تعيش فى القاهرة، ولكن لها أصول ريفية فى بعض قرى الدلتا بمحافظة الدقهلية.. فنحن أمام أسرة وُلد أبناء الجيل الثانى فيها وعاشوا حياتهم فى المدينة بعيداً عن القرية، وأسرّة أو أسر ريفية تمثل جذور الأب والأم.. هما إذن مجتمعان أو عالمان مختلفان كثيراً؛ فى أساليب المعيشة.. وفى سلّم القيم السائدة.. وفى نظرة كل منهما إلى العالم وإلى الناس. ومع ذلك نجد أن أعضاء هذين المجتمعين حريصون على ألا تنقطع وشائج الصلة فيما بينهم، بل نجد علاقات حميمة تقرب بعضهم من بعض، يفهم كل منهم الآخر، ويقدر ما بينهم من اختلافات، سواء كانت اختلافات فكرية أو سلوكية.. وسنرى أن هذه الاختلافات فى النظرة والسلوك ليست مصدر تباعد أو نفور بقدر ما هى مصدر تواصل وتكامل.. وفى كثير من الأحيان مثار تعليقات فكهة، وحكايات يتداولها الكبار والصغار، بمزيج من الدهشة المعلنة والفخر المكنون..

يرجع المؤلف إلى ذكريات طفولته الأولى فى الزقازيق فيروى لنا أطرافاً من حياة الأسرة فى مجتمع هادئ مستقر تجرى فيه علاقات أخوية وجوار بين الأسر المسلمة والمسيحية، كعنصرين متلازمين فى المجتمع من قديم الزمن.. قد يضطرب هذا المناخ السلمى أحياناً وتتعكر المياه فى أجزاء من مجراه بسبب حدث طارئ، عادة ما يكون مصدره شائعات بين بعض الجهلاء، ولكن مثل هذه الأحداث نادرة الوقوع، سرعان ما يتم احتواؤها فى جو ودى، من خلال قنوات التواصل بين العقلاء من الجانبين.

ولعل المؤلف هنا يحاول أن يلفت نظرنا إلى أن هذا المناخ الاجتماعى

Fathy Fares,
A World He left Behind,
Sid Harta Publishers,
Melbourne, 2009.

نحن أمام أسرة وُلد أبناء الجيل الثانى فيها
وعاشوا حياتهم فى المدنية بعيدا عن القرية

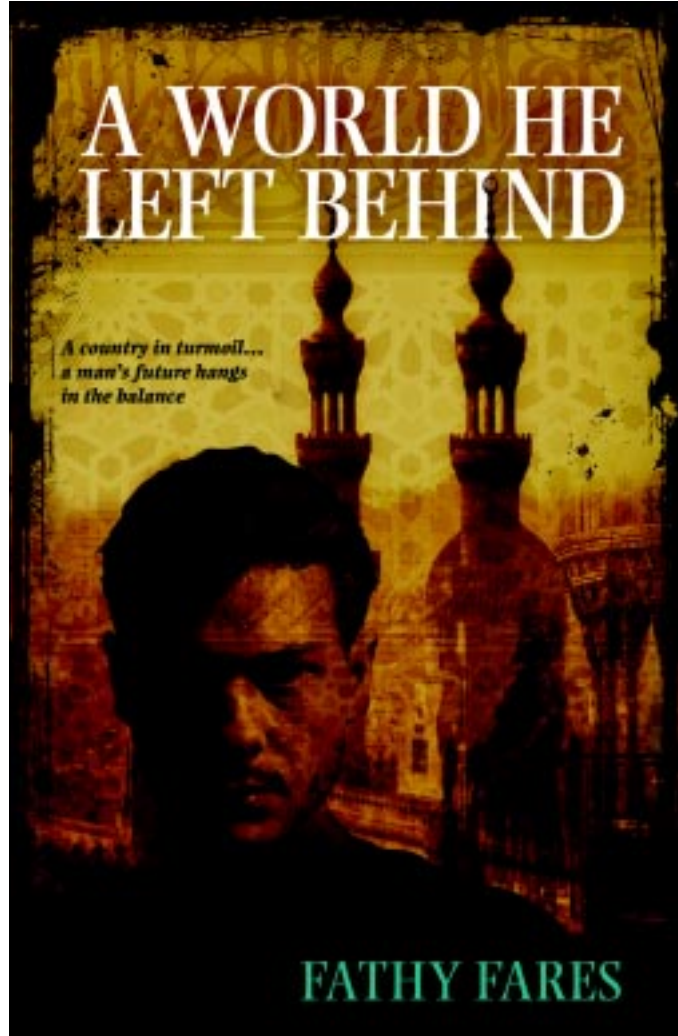


هما إذن مجتمعان أو عالمان مختلفان كثيرا؛
فى أساليب المعيشة.. وفى سلم القيم السائدة

خلفه وراءه!

يتحملوا جموحه، وأخطاه إن حدثت!
فهو لا يعترف أبدا بأن له أخطاء.. حتى
وهو يعيش عائلة على أبويه، ولا يساهم
فى تكاليف الأسرة بشيء من راتبه وهو
قادر.. إنه يرى الخطأ دائما فى جانب
الآخرين من أفراد الأسرة.. وهو لا يكف
عن توجيه انتقاداته وسخريته من
سلوكهم وأفكارهم.. فأصبح كل واحد
منهم يتوارى بعيدا عنه، حتى لا يواجه
سخريته وانتقاداته التى يرى فيها
تعرية له من كرامته الشخصية
وخصوصياته.. أصبح سى نادر شخصية
متسلطة يريد أن يسيطر على الجميع،
وأن يسخرهم فى خدمته.. وكان طارق
يكره كل ذلك منه.. لم يكن ليستسيغه
أو يستوعبه.. ولم يفهم لقرار سى نادر
بالإلزام سميحة بالبقاء فى البيت أى
مبرر مقنع.. فهو لا يصدق زعمه بأن
الأم فى حاجة إلى من يساعدها فى
حمل جزء من الأعباء المنزلية.. فقد كان
فى البيت خادمتان تقومان بالعمل
اللازم كله.. ولم يكن هناك سوى تفسير
واحد عند طارق: أن هذا الرجل الأنانى
يريد خادمة خاصة نظيفة ومتعلمة يثق
فيها وتكون طوع أمره، وعند إشارته..
وكانت ضحيته هى هذه الأخت المسكينة
التي لم يعبأ بإنسانيتها أو بحقوقها
ومصلحتها.. ولم يرحم ضعفها وصغر
سنها وقلة حيلتها.

حاولت الأم أن تفهم سر هذا القرار
من سى نادر فلم يقدم لها سوى عبارة
مبهمة قائلا: «ألا ترى أنها بلغت سن
الخامسة عشرة وأصبحت ناضجة.. ولا
ينبغي لها أن تختلط بالشبان خارج
البيت..؟» حاولت الأم أن ترضيه فقالت
له: «إن كنت تخشى عليها من شيء
نرسل معها أختا من إختها ليوصلها
كل يوم إلى المدرسة.. وهى لا تمنع فى
ذلك.. بل ترحب بهذا الحل إن كان
يرضيك..» ولكن سى نادر صمم على
موقفه وطلب من أمه ألا تفتاحه فى هذا
الأمر مرة ثانية.. بل زاد فى عنته تجاه
أخته.. وأصبح يراقب حركاتها ويعد
عليها أنفاسها وهى فى
البيت.. فعلى إثر مناقشة



التدليل، فلم يكن يعبر عن رغبته فى
شيء إلا سارعا إلى تحقيقها له، مهما
كلفهما ذلك من مشقة.. فهو الابن
الأول الذى رزقا به بعد عناء وطول
انتظار.. وقد أصيبت أمه عقب ولادته
بمرض شديد غريب كادت أن تفقد
حياتها بسببه.. كانت نتيجة هذا النوع
من النشأة أن تحورت شخصية نادر حول
ذاتها، فهو أنانى شديد الأنانية لا يرى
سوى نفسه، ولا يعبأ بمشاعر الآخرين
أو مصالحهم، يشعر بأن الجميع ينبغي
تسخيرهم فى تحقيق مطالبه ورغباته،
ويرى أن هذا حق شرعى لا ينبغي أن
يشاركه فيه أحد، وعلى الجميع أن

لمشكلتك حلا يرضيك ويريحك...» ولكن
هذا الحل لا يأتى أبدا.. فهل فى المسألة
سر لا يعرفه أحد..؟ أم أنهم يعرفون السر
ولا يجروؤن على المكاشفة والحديث
عنه..؟

مسألة حيرت طارق كثيرا بل
شغلت كثيرا من وقته حتى أصبحت
همّة الأول يبيت ويصبح فيه.. يقلب
الأمر على وجوهه المختلفة، حتى وصل
إلى اقتناع بأن أصل المشكلة كلها يكمن
فى عقل سى نادر.. فى تركيبته
الشخصية.. التى صبغت كل مواقفه
تجاه الأسرة جميعا: فهذا الأخ الأكبر
نشأ مدبلا.. أسرف عليه والداه فى

تلميذ صغير لا تدرك من هذه الأمور
شيئا.. اذهب واعتن بدروسك.. ثم أمسك
به وحاول طرده من غرفته، فاستشاط
طارق غضبا ولطمه على وجهه بجمع
يده، وكانت هذه الواقعة أول صدام عنيف
فى تاريخ أسرة السيد المصرى، ومن هنا
بدأت العلاقات فى الأسرة تتوتر،
وتتصارع الإرادات ووجهات النظر، لا
فيما إذا كان قرار سى نادر هذا صحيحا
أو خطأ.. فالجميع يدرك أنه قرار
خاطئ.. ولكن فى كيفية مواجهة سى
نادر بهذه الحقيقة، والأسلوب الأمثل
لحملة على تغيير قراره، لتعود سميحة
إلى المدرسة، وتستعيد حقها فى التعليم
الذى حرمت منه قسرا، وهى تشعر
بالقهر والذهول؛ فهى ترى أن أختها
الأكبر منها أكملت تعليمها.. فشغلت
إحدهما (فريدة) وظيفة طبية، أما
خديجة فقد تزوجت ممن أحببت،
وتفرغت لتربية أطفالها رغبة.. وقد
غمرها زوجها كمال بإنفاقه الكريم
فاغناها عن الوظيفة..

حتى سميحة نفسها رغم حزنها
العميق، وشعورها بالظلم الفادح الواقع
عليها، كانت تتحاشى أن تكون مشكلتها
سببا فى معاناة الأسرة لأى اضطراب أو
توتر، وكلما شعرت ببوادر اضطراب، كانت
تعتكف فى غرفتها وتبكي بدموع حارقة
على حظها العاثر، لم تستطع أن
تستوعب هذا الجور على حقوقها.. ولم
تفهم سبب هذا الصمت الذى يحيط
بمشكلتها.. ولا هذا الشلل الذى أصاب
أبويها وإختها تجاه هذا القرار.. كان
قلبها يحترق فى صمت.. وتفيض بها
مشاعر الغضب المكبوت أحيانا عندما
تنفرد بأمها، فتعبر عن آلامها الدفينة..
تقول والدموع تنهمر من عينيها: «لماذا
أنا وحدى دون الجميع..؟ ألا أننى خلقت
بنثا..؟ لماذا لا أذهب إلى المدرسة مثل
بقية البنات من زميلاتى..؟ لماذا يحرم
على سى نادر حتى الخروج إلى الشارع..
لم كل هذا الظلم..؟» لم تكن سميحة
تتلقى أى إجابة من والدتها الحزينة
سوى محاولات لطمأنتها، ونصيحتها:
«اصبرى يا ابنتى إن شاء الله سنجد





وبالوجبات اليومية التى يجتمع حولها أفرادها يتبادلون أطراف الحديث فى سرور وإقبال واضحين، يصفها بتفصيل شديد ويشير إلى مكوناتها ومذاقاتها المختلفة، ومهارة الأم فى تجهيز الوجبات الشهية.. ومعرفتى الشخصية بالمؤلف تؤكد لى أن هذه الحفاوة بالطعام وتنوع مذاقاته هى بعض سماته الشخصية التى أسبغها على شخصية طارق.. كأنه يصف نفسه.. فلا شك أن شخصية طارق ومواقفه ودوره فى الرواية بصفة عامة تعكس السمات الجوهرية لشخصية المؤلف نفسه.. بحيث تبدو لى أحيانا أنها سيرة حياته الخاصة فى قالب روائى.



من أفراد هذه الأسرة الكبيرة سيتعرف القارئ على شخصيات الأبناء: أحمد ومجد وحمدى وحسن.. وسيرى أن كل واحد منهم عالم قائم بذاته: فأحمد ضابط فى الجيش يقضى معظم وقته منذ التحاقه بالكلية العسكرية بعيدا عن البيت والأسرة، فلا يرونه إلا لماما، وغالبا ما يكون هذا فى إجازة قصيرة أو على مائدة الطعام، ومع ذلك فهو معنى بأحوال الأسرة ومشكلاتها.. وكثيرا ما يناقشها مع أخته الكبرى خديجة وزوجها كمال، وقد توصلا معا إلى حقيقة أن سى نادر يعانى من مرض نفسى، وأن شيئا ما لا بد من عمله لمواجهة هذا الوضع.. ولكن انشغاله بعمله، والأحداث الدرامية المتلاحقة التى وقعت فى محيط الأسرة صرفت النظر إلى أمور أخرى، وأجلت المواجهة إلى أجل غير مسمى.

فإذا أتينا إلى حمدى وجدنا شخصية مجتهدة فى الدراسة، ولكنها منسحبة منطوية على ذاتها؛ فهو دائما منكب على الاستذكار، حريص على أن ينأى بنفسه بعيدا عن المناقشات الأسرية، سواء فى الشأن العام أو الخاص، لا يحب التصادم مع الآخرين.. فإذا شعر ببوارد نقاش يوشك على الاحتداد، نراه ينسحب بهدوء ويذهب إلى مكان آخر ليقرأ كتابا.. أما ماجد فلا يقبل على قراءة الكتب، وقد تراه أحيانا يصلح راديو قديما.. وهو غير معنى بالأمور السياسية، ولا بأى شأن جاد؛ فهو يرى الناس والأشياء والمواقف من منظور كاريكاتيرى.. إنه لمأح شديد الذكاء ترى ذلك فى لمعة عينيه.. يميل إلى التخاطب، ولكن من يقترب منه يدرك أن له قلبا طيبا يكره إيذاء الآخرين أو الإضرار بهم، وإنما هو يميل بطبيعته إلى التنكيت، ورسم المواقف المثيرة

أشباح هزيلة غير قادرة على التماسك أمام التجريف المستمر لرصيداها الذى أنجزته فى الماضى، وتحت الضربات القاصمة المتلاحقة التى تتلقاها من أنظمة قمعية دائمة العمل على تجفيف ينباعها الروحية والفكرية والاقتصادية.. فلم يعد حديث هذه الأسر يدور حول هموم الوطن الكبرى وإنما تتمركز مشاغلها اليومية حول غلاء المعيشة والحصول على رغيف الخبز، وإذا تطرقت إلى شىء من هموم الوطن فالشعور السائد هو اليأس من إصلاح الأوضاع الفاسدة فى السياسة والاقتصاد، ونهب المال العام، وفضائح رجال المال والأعمال والبطالة والبلطجة الأمنية، والانحياز المهيمن لأعداء الأمة.. يقدم فتحى فارس مؤلف الرواية مشاهد وأوضاعا للطبقة المصرية الوسطى، وللأسرة المصرية خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى، شديدة الاختلاف عما نألفه اليوم سائدا فى المجتمع المصرى.. خصوصا فى هذا الجيل الذى ولد وعاش - خلال العقود الثلاثة الأخيرة - فى مجتمع يمكن أن نطلق عليه مجتمع قانون الطوارئ.. وفى هذه الناحية تكتسب الرواية أهمية خاصة بالنسبة للمؤرخين وخبراء علم الاجتماع وعلماء النفس السياسى، وللقارئ المثقف بصفة عامة؛ فبالإضافة إلى ما أسلفنا من التحام الأسرة المصرية بالشأن الوطنى.. وتطلعها إلى مستقبل أفضل تتخلص فيه البلاد من الاحتلال البريطانى والملكية الفاسدة، لم تكن هذه الأسرة تعاني ولا تشغل كثيرا بمشكلات الأسعار وضيق العيش والبطالة.. وإطلالة القارئ على مائدة أسرة السيد المصرى ووجباتها الغنية بكل ما طاب من أنواع الطعام - كما يصفها المؤلف - يدرك هذه الحقيقة.. فهو حفى بمائدة الأسرة،



المؤلف هنا يحاول أن يلفت نظرنا إلى أن هذا المناخ الإجتماعى الصحى، كان هو السائد المستقر فى مصر



أمام شخصية قوية جريئة، تشعر بتحمل المسؤولية فى سن مبكرة.. هذه الشخصية هى فى الواقع مدار الحدث الدرامى الذى يتطور ويتعقد ويتصاعد حتى يؤدى إلى رحيل صاحبه خارج الوطن، ليستكمل دراسته الجامعية أولا، ثم ينتهى به الأمر إلى هجرة دائمة بعيدا عن الوطن.

كذلك ألحنا إلى اسم الأختين الكبيرتين: فريدة الطبية وخديجة المتزوجة من الأستاذ كمال، وسيعرف القارئ أن ثمرة هذا الزواج الأولى هى الطفلة عزيزة الشقية، التى كان لحضورها المفاجئ فى المواقف الساخنة دور مهم فى تبريد أجواء المناقشات عندما ترتفع حرارتها، وإعادة الجو المتوتر إلى أوضاعه الطبيعية بين الفرقاء من أفراد الأسرة.. فقد كانت الأحداث السياسية والاجتماعية مدار نقاش مستمر بينهم على اختلاف منازعهم وتعدد وجهات نظرهم...



يبدو أن المؤلف كان حريصا على أن يقدم إلينا نموذجا للأسرة المصرية من الطبقة الوسطى فى ذلك الزمن، وقد استطاع فى الحقيقة أن يصور هذه الأسرة بمشكلاتها وهمومها واهتمامها بشئون الوطن السياسية والاجتماعية والفكرية، ومشاركتها الفعالة فى النشاط الوطنى، وتضحياتها فى هذا السبيل.. وأرى أن التعرف على هذا الجانب بالغ الأهمية فى المقارنة بين نموذجى الأسرة المصرية من الطبقة المتوسطة فى مجتمع الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وبين الأسرة المصرية فى هذا العهد؛ فقد تقلصت الطبقة المتوسطة، وتحولت إلى

حادة انضغلت فيها سميحة وشعرت بحرارة تتصاعد من صدرها إلى رأسها ففتحت نافذة الغرفة لتستنشق هواء باردا، فقفز نادر نحو النافذة وأخذ يتطلع إلى نوافذ العمارة المواجهة ليرى إن كان هناك شبان ينظرون نحو أخته.. ثم شبك مصراعى النافذة، وعنّفها بشدة قائلا لها: «ألم أنهك عن الاقتراب من هذه النافذة.. وألا تفتحها لأى سبب من الأسباب..».

من هذه المواقف تأكد لدى طارق أن هذا الرجل فى عقله شىء من الخلل غريب، ولا ينبغى الاستسلام له بل تجب مواجهته.. ولم ير أى مبرر أن تظل الأسرة تحت رحمته.. ولا أن تتحمل بقاءه فى البيت دون مبرر، بل يجب أن يستقل بمسكنه بعيدا عن الأسرة، فهو موظف قادر على الزواج والاستقلال.. ويكفى ما عانته الأسرة على يديه من منغصات، وما تلاقيه أختهم الصغرى من اضطهاد وتعنّت مريض...! اكتشف طارق أيضا أن موقف أبيه السلبى تجاه بقاء نادر فى البيت وعدم تكليفه المشاركة فى نفقات الأسرة أنه يريد أن يمكن نادر من ادخار بعض المال من مرتبه يساعد على نفقات الزواج الذى يرتقبه الجميع.. كما أن السيد المصرى كان مستعدا لتحمل الكثير من أخطائه، حتى لا يثير غضبه، وحتى لا يبدو أمام الآخرين أنه يطرد ابنه الأكبر من بيت الأسرة، ولعل هذه بعض سمات باقية من نشأته على القيم الريفية التقليدية، لم يستطع رغم علمه وثقافته أن يتخلص منها...

كانت هذه الخواطر والتوترات تتفاعل فى عقل طارق.. وتجول فى عقول أفراد أسرة السيد المصرى، وتصنع التيار التحتى المستمر فى جهازها العصبى.. فيلقى بظلاله الكئيبة على حياة الأسرة، دون أن تجد له حلا.. إذ تبدو مشلولة الإرادة، عاجزة عن المصارحة والمواجهة.. يحاول طارق أن يستوعبها، ولا يجد لها مبررا ولا نهاية، فيزداد غضبه وتحتد مواقفه تجاه الأخ الأكبر، الذى يبدو سادرا فى غيه، بهدوء عجيب...!

يقدم لنا المؤلف شخصيات روايته بأسماء مستعارة، فقد اختار السيد المصرى اسما لعميد الأسرة، وأطلق على الأم اسم أم نادر، عادة ريفية قديمة فى نسبة الأم إلى ابنها البكر.. وعرفنا سميحة كشخصية محورية فى الرواية، كما عرفنا شيئا عن طارق وهو فى الحقيقة الشخصية الرئيسية فى الرواية.. عرفناه من خلال موقفه من سى نادر، وانحيازه إلى قضية أخته الصغرى المظلومة.. مما يوحي لنا بأننا



تسارعت الأحداث فى مشاهد مروعة: بدأت بحل جماعة الإخوان المسلمين واعتقال الآلاف من قادتها وأعضائها والزج بهم فى السجون.. ثم تلا ذلك مقتل النقرشى باشا، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تم اغتيال المرشد العام للإخوان الشيخ حسن البنا.. وعادت حكومة الشعب المنتخبة إلى السلطة مرة ثانية، يترأسها النحاس باشا زعيم حزب الوفد ليطلق سراح المعتقلين.. بعد تبرة المحكمة لهم من التهم التى وجهت إليهم.. وعاد الاستقرار إلى البلاد، فقام النحاس باشا بإلغاء معاهدة الصداقة مع بريطانيا.. وكان هو نفسه الذى وقع عليها سنة ١٩٣٦، وتشتعل الحمى الوطنية ضد الاحتلال الإنجليزي، فتبدأ حركة المقاومة الشعبية ضد معسكراتهم على طول قناة السويس..

كان معظم الفدائيين من طلاب الجامعات، وكانت قصص عملياتهم الجريئة فى اقتحام معسكرات الجيش الإنجليزي وتدميرها تجرى على كل لسان، وفى غضون ذلك تتصدى قوات الشرطة بأسلحتها الخفيفة- للقوات البريطانية دفاعا عن مبنى محافظة الإسماعيلية الذى استهدف الإنجليز احتلاله، فاستشهد العديد من رجال الشرطة والضباط، واعتصم رجال الشرطة المصرية فى كل موقع، احتجاجا على هذا المسلك الهمجى لقوات الاحتلال.. وفى اليوم التالى اندلع حريق القاهرة المروع، الذى تحير الجميع فى أسبابه: فقد قيل إنه من تدبير الملك نفسه، وقيل إنه من تدبير الإنجليز، لوقف المقاومة الوطنية فى قناة السويس.. أخذ الملك زمام الأمر بيده فأسقط حكومة الوفد المنتخبة، وعين سلسلة من الحكومات الهزيلة الواحدة بعد الأخرى، فلم تستطع أى واحدة منها إعادة الاستقرار أو احتواء الاضطرابات.. ولم تستمر آخر هذه الحكومات فى السلطة أكثر من ثمانى عشرة ساعة فقط، انتهت بقيام الثورة. فى أثناء ذلك كانت الفوضى مستشرية فى البلاد.. وكان الجو كله معبأ بالغضب الشعبى، والتربح لانطلاق حدث جلل يقلب هذه الأوضاع المتردية كلها.. وفى أثناء الترقب والانتظار، وبينما الناس يضربون أخماسا فى أسداس، أعلن السادات من إذاعة القاهرة البيان الأول لانقلاب عسكرى ضد النظام الملكى فى صباح يوم ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢...

توالت الأحداث المثيرة بعد ذلك: حيث أجبر الملك على التنازل عن العرش لابنه الطفل أحمد فؤاد..

ثم طرد الملك من البلاد،

محكوما بأوضاع وقوانين تمنع الإفراط فى استخدام العنف.. وتضع خطوطا حمراء أمام قوات الأمن لا ينبغي عليهم تجاوزها..! فقد ألمح المؤلف وهو فى سياق وصفه لمظاهرة قادها طارق فى الجامعة، أن أفراد الشرطة كانوا يراقبون المظاهرات الجامعية من خلف أسوار الجامعة ولا يجرؤون على دخولها.. لا خوفا ولكن لأن القانون فى ذلك الوقت كان يمنعهم من الدخول إلى حرم الجامعة كأنه حرم مقدس..

إن فتحى فارس لم يشهد الأوضاع التى تردت إليها الجامعة اليوم، فلم ينتهك رجال الأمن بأقدامهم الحرم الجامعى فحسب، بل أصبح تدخلهم، يشمل تعيين العمداء ورؤساء الجامعات، وإلقاء القبض على الأساتذة الناشطين فى الاتحادات الأكاديمية، والتدخل فى كل حركة لطلاب الجامعة وفى السكن الجامعى، وانتخابات الاتحادات الطلابية.. وأصبحت الحرية الأكاديمية مجرد أسطورة قديمة تحكى فى القصص.. فلا غرابة أن ينتهى التعليم الجامعى إلى أوضاعه المزرية التى نشهدها اليوم...

تعكس هذه الرواية إذن صورة واقعية لمصر والمجتمع المصرى، وما جرى فى مصر من أحداث جسام منذ الحرب الفلسطينية حتى انطلاق الثورة؛ فقد شهدت مصر فى هذه الفترة عنفوان حركة شعبية حاولت حكومة عميلة للملك أن تشكها، فتعمدت فتح كوبرى عباس الذى يربط الجيزة بمنيل الروضة، أثناء مرور مظاهرة طلابية عليه، متجهة إلى قصر عابدين، وكانت حادثة مروعة قتل فيها وجرح مئات من الطلاب غدرا، وقد أصبحت كارثة كوبرى عباس جزءا من تاريخ النضال الوطنى والتضحيات التى تكبدها المصريون فى سبيل الحرية والاستقلال...



تغطى الرواية

فترة تمتد على مدى

عقدين من الزمن، وبالتحديد سنوات

الأربعينات والخمسينات

من القرن العشرين



يرى أن المهمة الأساسية لمصر هى التخلص أولا من الاحتلال البريطانى، والتخلص من الحكم الملكى الفاسد، وأنه لا سبيل لإصلاح مصر وتقدمها إلا بتحقيق هذين الهدفين.. وكان طارق رغم حداثة سنة يرى فى نفسه زعيما وطنيا قادرا على حفز الجماهير وقيادتها نحو تحقيق هذه الأهداف.. فمن الناحية البدنية كان فارغ الطول ممشوق القوام حسن المظهر... وكان نضجه المبكر ووسامة منظره وطلاقة لسانه مؤهلات قوية لأداء دور الزعامة، حتى وهو لا يزال طالبا فى المدرسة الثانوية، وقد رأى فيه زملاؤه من الطلاب زعيما جريئا موثوقا به، فتبعوه وحملوه على أكتافهم فى المظاهرات.. وكانت المظاهرات العارمة، سمة يومية فى ذلك الوقت تجتاح مدينة القاهرة، كما تجتاح جميع المدن المصرية الأخرى، تهتف بسقوط الاحتلال الإنجليزي وسقوط الملك الفاسد.. كان الحماس الوطنى للشعب المصرى على أشده.. وكان دور الطلاب فيه هو الأبرز، والأكثر أثرا.. وقد استمر طارق يؤدى دوره القيادى هذا بحماس أشد ونضج أكثر بعد أن انتقل إلى الجامعة..



وما يصفه المؤلف من حراك سياسى وحرية فى التعبير عن الرأى، والتظاهرات الحاشدة فى تلك الفترة، يصور مجتمعا مصريا يقظا حيا فعلا، ممتلئا بالحماس والثقة بالنفس.. على عكس الصورة البائسة التى تحول إليها المجتمع المصرى فى أيامنا هذه.. كانت الظروف الموضوعية أيضا لها تأثيرها الحاسم أيضا.. فقد لاحظت فى ثنايا الرواية أن تدخل الشرطة فى ذلك الوقت لفض المظاهرات كان

للضحك، ولديه قدرة عجيبة على صك الأسماء والصفات التى تلخص شخصيات كل من حوله من الناس فى المنزل أو خارجه.. كأنه يرسم صورا كاريكاتيرية لهم.. فسى نادر مثلا بجلالة قدره هو «خنفس».. وعادة ما يحتفظ ماجد بهذه الأسماء الكاريكاتيرية لنفسه سرا، فلا يطلع عليها إلا أقرب الأصدقاء.. وقد تتسرب هذه الأسماء بالصدفة أحيانا لتصل إلى أصحابها، ولكنهم لن يعرفوا مصدرها ولا من أطلقها عليهم أبدا.. يقول المؤلف تفسيرا لهذا السلوك: لعل ماجد كانت تلح عليه رغبة قوية أن يلفت النظر إليه فى المدرسة وخارجها.. فقد كان هذا شيئا يفتقده فى بيت الأسرة!..

بين هؤلاء جميعا تبرز شخصية حسن متميزة بخصائصها؛ فهو طالب مجتهد قوى الإيمان بالله سمح الوجه لطيف الشمائل، على أهبة الاستعداد دائما لمساعدة الآخرين.. إنه ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين، ويعتقد أن طريقة حسن البنا فى الإصلاح السياسى والاجتماعى هى أصوب طريقة لإنقاذ الأمة والدفاع عنها فى مواجهة أعدائها بما فى ذلك الاحتلال البريطانى لمصر، والأطماع الصهيونية فى فلسطين.. فى سنة ١٩٤٧ كانت الأحداث المأساوية تتسارع فى الأرضى الفلسطينية تمهيدا لتمكين اليهود فيها بمساعدة الانتداب البريطانى، فكان حسن من أوائل الشبان الذين لبوا نداء الدفاع عن فلسطين، حيث تطوع فى صفوف الفدائيين، وأبلى بلاء حسنا فى الحرب الفلسطينية. ذهبت الجيوش العربية إلى فلسطين وهى على غير استعداد للحرب؛ إذ كانت تعاني من قصور شديد فى التسليح والتدريب، وكان هذا من أبرز أسباب النكبة الفلسطينية الكبرى، ولولا بسالة الفدائيين الذين استطاعوا إحراز انتصارات مبهرة على القوات الإسرائيلية المتفوقة فى السلاح والتدريب والتنظيم، لتحولت الحرب إلى مجزرة للقوات العربية، ويعترف بهذه الحقيقة اللواء المواوى قائد الجبهة المصرى فى حرب فلسطين..

من الأحداث الكبرى الأخرى التى تميزت بها تلك الفترة غير الحرب الفلسطينية حرب الفدائيين ضد قوات الاحتلال الإنجليزي فى قناة السويس، وقد اشترك فيها حسن أيضا فأبلى بلاء عظيمًا، مستفيدا فى ذلك بخبراته السابقة فى حرب فلسطين..

أما طارق فقد كان له مسلك آخر فى تعبيره عن حماسه الوطنى، فقد كان



جسيم من الرعب والتهديد والاضطهاد...

استقبل المصريون الثورة فى أول الأمر بالترحاب، وفرحوا بمقدمها وبقراراتها الإصلاحية فرحا غامرا، ولم يكن فرح أسرة السيد المصرى بأقل من فرحة الآخرين، ولكن لم يمض أكثر من عامين حتى كشفت الثورة عن وجهها الآخر.. ابتدا بتنحية محمد نجيب من رئاسة الجمهورية، والانقضاض على جماعة الإخوان المسلمين.. حيث أصيبت الأسرة بتغييب اثنين من أبنائها فى أقبية السجون المصرية سيئة السمعة.. لقد تم الإفراج عن طارق فى المرة الأولى بعد بضعة أشهر.. ثم أعيد إليه مرة أخرى.. وفى كل مرة كانت توجه إليه تهمة مختلفة: مرة بأنه من الإخوان المسلمين ومرة بأنه شيوعى.. ولم ينقذه من الاستمرار فى السجن إلا الاشتباه فى الاسم واضطراب تقارير الأمن حول التهم الموجهة إليه..

فلما تم تسريحه من السجن فى المرة الثانية بدأ يواجه ألوانا أخرى من الاضطهاد والمشكلات.. فقد اكتشف أنه مفسول من الجامعة.. وكان بالسنة الأولى فى كلية الهندسة، فبذل محاولات مستميتة للعودة إلى الدراسة، وكان بالجامعة أساتذة يتعاطفون معه، وقد أفهموه أن التقارير الأمنية ترفض عودته رفضا قاطعا.. شعر طارق بأن الأبواب أصبحت مغلقة فى وجه مستقبله التعليمى.. ولم يعد أمامه أمل سوى أن يرحل عن مصر..

استطاع فى ستة أشهر أن يتقن اللغة الألمانية.. وأن يرسل بعض الجامعات فى ألمانيا حتى تمكن من الحصول على مقعد فى إحدى هذه الجامعات.. كما استطاع الحصول على جواز سفر.. سحبتة المباحث مرتين وكافح لاسترداده.. شرح ظروفه الخاصة للجامعة الألمانية التى تعاطفت معه وتأزرت مع السفارة الألمانية بالقاهرة فى الضغط على السلطات المصرية لتسمح له بالسفر.. وكانت مصر فى ذلك الوقت على علاقة وثيقة بألمانيا.. تحظى منها بمعاملات خاصة مالية وفنية متعددة الأشكال.. ومن ثم تجنبت تعكير صفو هذه العلاقة بالمعاندة فى موضوع طالب مصرى مقبول للدراسة فى جامعة ألمانية فأعتقته.

صعد طارق إلى السفينة من ميناء الإسكندرية قاصدا ألمانيا عبر ميناء نابولى بإيطاليا.. ودعته أسرته بالدموع.. ولكنها لم تفقد الأمل فى عودته إليها يوما ما.. كانت لحظات الوداع المشحونة بمشاعر الألم ولوعة الفراق هى خاتمة الرواية.. انتهى الزمن عند نقطة رحيل

الباطشة، فهاجمت الشرطة بيت الأسرة وأخذت طارق رهينة.. فلما سويت الأمور بين السلطة والإخوان وكفّت يدها عنهم فى هدنة مؤقتة- أطلق سراح طارق من السجن.. وظهر حسن ليمارس حياته المعتادة، ثم أعيدت الكرة مرة أخرى على نطاق أوسع وبوطأة أشد بعد حادث المنشية، فاختفى حسن مرة أخرى تحت الأرض فى مكان لا تعلم الأسرة عنه شيئا.. ولكنها تعرضت لأبشع أنواع التنكيل، فقد تم اعتقال طارق مرة أخرى، وأودع فى سجن القلعة.. لبقى فيه عدة أشهر، أما رب الأسرة فقد أجبر على الاستقالة من وظيفته، مصدر رزقه الوحيد.. أحيل إلى المعاش قهرا، ونقل نادر إلى أسوان.. وبين الاعتقالين الأول والثانى كانت الأسرة قد أصيبت بكارثة شخصية أخرى كادت أن تغطى على جميع الأحداث والمصائب التى تلتها: ففى صباح أحد الأيام دق ضابط الشرطة باب مسكن السيد المصرى وقال له: «أسف لدينا أخبار سيئة لكم.. لقد توفيت ابنتكم الدكتورة فريدة فى حادث صبح هذا اليوم..» شق الأب من وقع الخبر وهو لا يكاد يصدق ما يسمع، وكادت الأم أن تفقد عقلها من هول الصدمة.. فأخذت تهرول فتفتح أبواب الغرف كلها.. لعلها ترى ابنتها نائمة هنا أو هناك.. ثم فتحت فمها لتطلق صرخة مدوية ولكن خائها الصوت الذى احتبس فى حلقها، فأغمى عليها.. وأطبق الحزن الكئيب على أسرة السيد المصرى..!

فى هذه الأجواء المكفهرة عاشت أسرة السيد المصرى تجتر أحزانها ومآسيها المتلاحقة: ألقى القبض على اثنين من أبنائها هما حسن وطارق، وتعرضت بقية الأسرة لاقتحام قوات الشرطة.. ولزيارات الضجرات التى أصبحت تقليدا راسخا لهذه القوات.. وهكذا تحولت حياة أسرة السيد المصرى إلى

القصف العشوائى بالرصاص الحى.. وتحت تأثير المفاجأة وأمام هذا الغضب العارم الذى تفجر بين الجماهير، أسرع رجال الثورة باستقدام محمد نجيب لتهدة الحشود الغاضبة، وتطمينها على أن مطالبهم قد أُجيب.. وأن الأمور قد عادت إلى سابق عهدها..

لم تكن قيادة الثورة لتستسلم لضغوط الجماهير بهذه السهولة، فسرعان ما أعيد اعتقال محمد نجيب، وتولى جمال عبد الناصر رئاسة الجمهورية.. وتم تدبير حادثة المنشية بالإسكندرية فى ٢٦ أكتوبر من نفس العام (١٩٥٤)، حيث أطلق أحدهم رصاص مسدسه تجاه عبد الناصر، وهو يلقي خطابا فى ميدان المنشية، ولكنه أخطأ هدفه.. واتهم الإخوان المسلمون بتدبير حادث الاعتقال، فحُلّت جماعتهم وسيق الآلاف من أعضائها مرة أخرى إلى السجون، وحوكم قادتها أمام محاكم عسكرية، وتم إعدامهم، وكان على رأسهم المستشار عبد القادر عودة وكيل الجماعة، الذى قاد المظاهرات الشعبية الحاشدة أمام قصر عابدين...!



فإذا عدنا مع المؤلف إلى انعكاسات هذه الأحداث على أسرة السيد المصرى لنشهد آثارا مروعة على حياة هذه الأسرة الوطنية، التى لم يرتكب أى فرد فيها جريمة سوى أن ابنها حسن عضو فى جماعة الإخوان المسلمين.. وأن أخاه الأصغر عبر عن رأيه وهو يخطب فى مظاهرة طلابية..! فى المحاولة الأولى للقضاء على الجماعة فى فبراير ١٩٥٤ اختفى حسن تحت الأرض لفترة من الوقت حتى لا يقع فى يد السلطة



هذه إذن رواية واقعية،
بمعنى أنها تصف واقعا
حقيقيا لأسرة مصرية محددة،
يعرف المؤلف أفرادها
معرفة حميمة



وأُلغى النظام الملكى، حيث تولى محمد نجيب رئاسة الجمهورية، وتبع ذلك سلسلة من القرارات والقوانين الثورية من أهمها: تحديد الملكية الزراعية، والإصلاح الزراعى، ومجانية التعليم الجامعى، وكان التعليم فى المراحل الأولى مجانية فى عهد وزير المعارف طه حسين فى حكومة الوفد الأخيرة..

كان التعاون بين الإخوان المسلمين ورجال الثورة واضحا منذ قيام الثورة.. حتى إن عبد الناصر ذهب إلى قبر حسن البنا وألقى عنده خطابا يعد فيه بإعادة فتح ملف التحقيق فى حادثة اغتياله، وإحضار الجناة للمحاكمة.. ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الفريقين وأعلن جمال عبد الناصر فى يناير ١٩٥٤ حل جماعة الإخوان المسلمين، واعتقال أعضائها، بتهمة التآمر على الثورة مع محمد نجيب رئيس الجمهورية، فتمت إزاحته ووضعه تحت الاعتقال المنزلى.. كان محمد نجيب رمزا شعبيا للثورة، محبوبا من الجماهير، ولم يكن أحد يعرف فى ذلك الوقت شيئا عن جمال عبد الناصر، ولا حقيقة دوره فى تدبير الثورة وقيادتها، سوى أنه أحد أبرز أعضاء مجلس قيادة الثورة..

يصف المؤلف كل هذه الحقائق مفصلة تفصيلا دقيقا.. ويصف انطباعات الناس عنها.. وانعكاساتها أولا بأول خلال المناقشات الدائرة فى إطار أسرة السيد المصرى، وتأثيرها على طارق، الذى خيبت الثورة رجاءه.. فذهب غاضبا إلى الجامعة ليلقى بخطبة ملتية، ويهتف بحياة محمد نجيب وسقوط الدكتاتور عبد الناصر.. وتوجه الطلاب المتظاهرون من جامعة القاهرة والجامعات الأخرى إلى قصر عابدين للانضمام إلى المظاهرات الشعبية العارمة التى توجهت إلى القصر.. وهم يهتفون بحياة محمد نجيب ويطالبون بعودته الفورية إلى السلطة..

يبدو أن مجلس قيادة الثورة كان - حتى تلك اللحظة - عازما على تبديد هذه الحركة الشعبية، ومصمما بصفة خاصة ألا يسمح بانضمام جموع الطلاب إلى الحشود المتوجهة إلى قصر عابدين، ومن ثم حاصرتهم قوة عسكرية مدرعة بعد مرورهم من كوبرى قصر النيل، وأمطرتهم بوابل من الرصاص الحى من مدافع لانكستر.. تفرقت المظاهرة فى كل اتجاه، ولكن بعد ساعة تجمع الطلاب مرة ثانية قرب قصر عابدين، ودخلوا الميدان فى عاصفة غاضبة وهم يرفعون بأيديهم مناديل مغموسة فى دماء إخوانهم الذين سقطوا صرعى وجرحى، من جراء

كتاب الزاوية



عندما يتحدث أردوجان

(٤)

تركيا كانت دوما مع السلام فى الشرق الأوسط وقد ساهمت فى الأمن والاستقرار الإقليميين.

كذلك كانت تركيا فى الماضى القريب الدولة الوحيدة التى بذلت الجهد من أجل تطبيع العلاقات بين إسرائيل وكل من فلسطين وسوريا ولبنان. إن إسرائيل الآن تتخذ مواقف تجعلها فى مواجهة أحد أهم المدافعين عن السلام فى المنطقة.

يجب على إسرائيل أن تتخلى عن تبرير أفعالها الجائرة بالمسوغات الأمنية وعن مجونها فى إيضاح ذلك بانتقاداتها لـ "اللاسامية". لقد بلغ السيل الزبى.

على الساحة الآن مفهوم إدارة اتخذت من العنف سياسة وأباحت لنفسها الظلم ولا تتورع عن إراقة الدماء.

لقد بلغت ممارسات الإدارة الإسرائيلية غير المكرثة بالقانون حدا لا يمكن بعده سترها أو تأويلها أو التغاضى عنها.

آن الأوان للمجتمع الدولى لكى يقول كفى. إن إسرائيل تصر على رفضها الاعتراف بقرارات مجلس الأمن الدولى التى تزيد عن المائة. لذا يجب على الأمم المتحدة أن لا تكتفى بقرار الإدانة الذى اتخذته. كذلك عليها أن تقف وراء مطلبها.

لا نستطيع أن نترك إسرائيل التى تدمر أرضية السلام فى الشرق الأوسط مع أفعالها وندع لها الحبل على الغارب. لا نستطيع أن نقول لها: افعلى ما تشائين. إن لكل شئ ثمنا. إن فهمنا لا يحترم حق الحياة لا يمكنه أن يحترم الحقوق وأن يتخذ مواقف موالية للسلام. إن فهمنا لا يولى أهمية لحياة الإنسان لا يمكنه أن يحترم الإنسان وحقوق الإنسان.

إن دولة تريد الأمن لشعبها لا يمكنها أن تتجح فى ذلك عن طريق اكتساب كراهية وعداوة الدنيا.

إن الدولة لا تعطى أهمية لشعب غير شعبها لا يمكن أن يكون السلام همها. إن إسرائيل تدمر التروس الدفاعية من حولها الواحدة تلو الأخرى وتفقد نقاط التحالف الواحدة تلو الأخرى وتدفع بنفسها إلى العزلة.

الإدارة الإسرائيلية تسف السلام الإقليمى بنشرها الكراهية فى الشرق الأوسط وتتحول إلى بؤرة تشر الاضطراب حولها.

ناصية التعبير باللغة العربية.. ثم أتاحت له الفرصة لإجادة اللغتين الألمانية والإنجليزية حديثا وكتابة.. كما كنت أعلم أنه عضو فى اتحاد الكتاب بفكتوريا، وأنه يعكف منذ سنوات على تسجيل مذكرات حياته، ولكن أقصى ما كنت أتوقعه أن يكتب سيرة ذاتية ضافية وصادقة ولكنه فاجأنى بعمل درامى من طراز رفيع..!

تأخذ هذه الرواية قارئها إلى أعماق القلب المصرى حيث تمتزج الحكمة بالجنون.. وترتفع روح الفكاهة الأصيلة بالإنسان المصرى على أحزانه وآلامه.. فى أعماق هذا القلب المصرى الزاخر بالمشاعر والأحاسيس المتضاربة من الأفراح والأتراح والآلام.. فالرواية تمثل مسرحا مفعما بالحياة والحيوية لأسرة مصرية ومجتمع مصرى، تتفاعل فيه مختلف النزعات والعادات والتقاليد، مجتمع تسود فيه عناصر القلق والطموح والتعصبات اللا منطقية، والتدين الرشيد منه والمتشدد.. مع نزعات أخرى، من الرغبة فى الانفلات من قيود الدين والتزاماته الجادة.. سترى الحياة فى المسجد وتفاصيل عن الصلاة والوضوء وتلاوة القرآن لأناس يعيشون الحياة الروحية التى يبعثها المسجد فى أرواحهم.. ويرطب بها وجداناتهم.. وستجد وصفا مفصلا لمجموعة أخرى من البشر عاكفين على حلقات الذكر.. يهتزون على نغمة رتيبة، وآخرين يرقصون على الدف فى حلقة زار لإخراج الجن الذى استولى على أجسامهم.. وغيرهم.. وغيرهم من أنواع البشر.. يشاركون جميعا فى أنواع مختلفة من الأنشطة.. حياة خصبة ملونة بكل ألوان المشاعر، والأحاسيس والأفكار المتضاربة.. كأنك تشاهد خليطا من شعوب متباينة لا شعبا واحدا.. ولكنك لا تعدم مع هذا الخليط المائج نوعا من التمازج، تشده خيوط ثقافة واحدة مشتركة.. مغلفة بروح من النكتة والفكاهة، لا تعدمها فى كل موقع وفى كل موقف.. كأن المصريين قد اتخذوا من النكتة آلية من آليات الدفاع عن النفس، وتحصينا للذات من التصدع..!

إلى جانب ذلك كله يستشعر القارئ تيارا فكريا متغلغلا فى ثنايا الرواية، واضحا فى حواراتها، يؤكد على قيمة كونية جوهرية، قوامها التعارف والتسامح بين الناس، والتفاهم المتبادل بين الثقافات.. وهى قيمة يعتقد المؤلف أن افتقادها يقف اليوم وراء معظم الاضطرابات والحروب والإرهاب وكل ما يزعزع الأمن والسلام فى المجتمعات الإنسانية... ■

طارق بإقلاع سفينته من ميناء الإسكندرية.. وعادت الأسرة إلى القاهرة تطوى فى جوانحها هما ثقيل.. ولتجتر مأساة ابنها الآخر الذى ابتلعه سجون مصر لخمس عشرة سنة أخرى من حياته..

رحل طارق الشاب المصرى الذى أثر الفرار بحريته والعيش بكرامة خارج وطنه، بدلا من البقاء مع المعاناة والاضطهاد وامتهان الكرامة.. كان قلبه ساعة الرحيل ممزقا بين حبه لأسرته ووطنه وعلاقاته الحميمة بأهله وأصدقائه من ناحية، وبين رغبته فى الانعتاق إلى الحرية واستكمال دراسته الجامعية من ناحية أخرى.. إنه يمثل فى حقيقة الأمر نموذجا لآلاف الشباب المصريين الذين هاجروا من مصر ولا يزالون يخاطرون إلى اليوم بحياتهم للهجرة إلى بلاد أخرى، قد يحظون فيها بالحرية وكرامة العيش الذى يفتقدونه فى وطنهم الأم.. فلنودع طارق عند هذه النقطة الفاصلة، لنتحول إلى فتحى فارس مؤلف الرواية فهو البطل الحقيقى لهذه الرواية...

نقول: لقد طالت رحلة فتحى فارس وتحولت إلى هجرة دائمة، بدأت فى ألمانيا حيث أتم تعليمه الجامعى، وتزوج من ألمانية أنجب منها أيمى أول أبنائه، ثم استقرت الأسرة فى ملبورن بأستراليا حيث أصبح أستاذ فى كلية الهندسة بجامعة موناش.. وزادت الأسرة ابنتين هما نادية وأميرة.. فكان حريصا على أن يتيح لهما فرص التعليم إلى أقصى المدى.. كأنه كان يعوض فيهما حرمان عمتهما سميحة قهرا من فرصة استكمال تعليمهما كما رغبت...!

قصة رائعة.. ممتعة وأصيلة.. مستوحاة من حياة حقيقية وتجارب واقعية عاشها المؤلف بنفسه وعاناها بحلولها ومرها.. ولأننى أعرف المؤلف وأسرتة لسنوات طويلة أراه ماثلا أمامى منذ كنا فى المدرسة الابتدائية بالزقازيق.. وقد ظلت علاقاتنا متصلة فى القاهرة حتى رحل إلى ألمانيا.. ثم استؤنفت مرة أخرى فى أستراليا ولم تنقطع رغم انتقالى وأسرتى إلى كانبيرا، وظل هو وأسرتة فى ملبورن.. ثم فوجئت بعد ما يقرب من عشرين سنة بخطاب منه مرفقا به أصول رواية من تأليفه، طالبا منى كتابة تقرير عنها كشهادة يقدمها للناسر الأسترالى.. قرأت الرواية وأنا مذهول، فما كنت أتصور أن صديقى فتحى فارس أستاذ الهندسة يمتلك هذه الموهبة الأدبية ليكتب رواية بديعة ومثيرة إلى هذا الحد..! كنت أعلم أنه خطيب مفوه وناظم للشعر فى المناسبات.. يملك

فى الهجرة إلى

حسن أبشر الطيب

[١]

■ الروائى العالمى المبدع الطيب صالح، شأنه شأن شاعره الأثير أبى الطيب أحمد بن الحسين الملقب بالمتنبي، ملأ الدنيا وشغل الناس، وتوطدت مكانته فى الآفاق العربية والأعجمية. ومن آيات ذلك أن الكثرة الغالبة من النقاد رأت فى أعماله الروائية فتحاً جديداً فى عالم الرواية العالمية. وتلمس شاهداً على هذه المكانة الرفيعة التى تبوأها بجدارته، وهذا الصيت الرحب الواسع الذى حققه باقتدار، بعلمك أن أعماله الروائية نُشرت وقرئت فى أكثر من أربعين لغة حية. كما عدت روايته ذاتعة الصيت «موسم الهجرة إلى الشمال» من بين أفضل مائة رواية منذ بداية تاريخ الرواية كجنس فى الأدب. ووصفت أيضاً بأنها أفضل رواية عربية فى القرن العشرين.. فتأمل!

الأستاذ الطيب صالح جدير بهذا الاحتراف، وأكثر، وبهذه المكانة الرفيعة التى تسنمها بحق وجدارته، فأنت تقرأ أعماله الروائية وغير الروائية فتلمس هذه القدرة على التأليف الأدبى الإبداعى المتكامل الذى يعنى بالشكل والمضمون فى آن. إنك تعيش فى كل أعماله هذا الفيض الزاخر من الأفكار والأطروحات المبتكرة المتجددة، وتطرب فى الوقت ذاته لعذوبة لغته الشاعرة التى تتسم بالقدرة الباهرة فى التشكيل اللغوى الموحى، والنسيج الشعري الشجي المرهف الذى يكتسى وهجاً وفناً صادقاً أخاذاً، وقدرة عالية على الإيحاء. وهو فى كل ذلك يعبر عن قدر وافر من التجارب، احتضنها وتأمّلها واستكشف معانيها، وصاغها عملاً جديداً مبدعاً خلاقاً، فيه ملامح الواقع ولكنه ليس الواقع الذى يمكن أن تنقله آلة التصوير الصماء بأى حال من الأحوال. إنه واقع أرحب وأعمق وأكثر تعبيراً عما يعتمل فى نفس المؤلف من أفكار ومشاعر.

[٢]

إن القارئ المتأمل لكل من أعمال الطيب صالح الروائية، لا جدال، سيعيش هذا الثراء الفكرى والفنى المبنى على أصالة الفكر، وثراء التجربة الإنسانية، واستقراء وتحليل واستجلاء واستنباط دقائق الحياة، ورحابة الخيال وحب الاستبصار، والتعبير عن كل ذلك بلغة شاعرة تتميز بالرصانة والجزالة والوجدانية المتفردة الموحية.

لقد امتلك الأستاذ الطيب صالح أدوات فنه الروائى المبدع. وشهدت له الكثرة



الطيب صالح

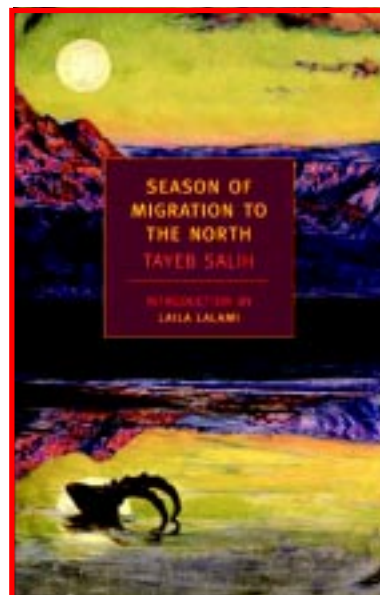
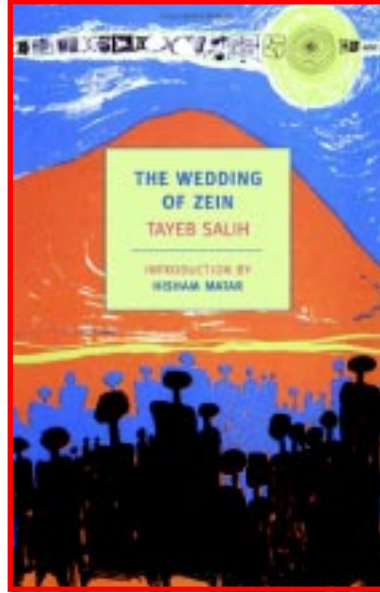
” جدير بهذا الاحتفاء، وأكثر، وبهذه المكانة الرفيعة التي تسنمها بحق وجداره “

فنياً للطيب صالح في جميع أعماله الروائية. ذلك مذهب يدفعه إليه طبعه وذوقه وقدراته الباهرة على التعبير بالقدر الذي جعل الشعر حاضراً وبصورة جلية في كل ما كتب. يقول الأستاذ الطيب صالح مؤكداً هذه الحقيقة: «ربما قد يكون الشعر حاضراً في ما كتبت منذ البداية، ويظهر هذا بوضوح في أسلوبى الذى نميته وتعودت عليه والذي يكشف عن حبي للشعر، ويؤكد أيضاً محبتي للغة العربية التى هى لغة شعرية بطبيعتها. وإذا اعتنى الكاتب - أى كاتب فى اعتقادي - باللغة، بلغته، فلا مفر من أن يجد نفسه يكتب كتابة يمكن أن توصف بأنها شعرية. وأعتقد فى هذا الشأن أن الأدب بمجمله يحتفل هذه الشعرية. وخاصة الأدب العربى، لأن الشعرية نظرة إلى الحياة تختلف عن النظرة العادية. وهذه الشعرية بطبيعة الحال تظهر فى كل كتابة كاتب يهتم بالشعر مثلى، وينظر إلى الدنيا بغير المنظار المألوف»^(١).

[٤]

إن العمل الإبداعي ينبني في شكله وفي مضمونه على درجة كبيرة من الإدراك والفهم المتكامل للظاهرة التي يعنى بها، وتلك حال لا تتأتى إلا بالاستئناس بها وبالتفاعل بما تنطوي عليه من ثراء. ومن هنا يبرز إلى موقع الصدارة أثر البيئة السودانية الريفية في أدبيات الطيب صالح، فهو يتمثلها في معظم المواقف، شكلاً وموضوعاً. ولعل ذلك يعود إلى ثلاثة أسباب رئيسية: أولاً: تلك الذكريات الدافئة الحميمة التي التصقت بذاكرته عن سنوات طفولته وصباه الباكر التي نعم فيها بالحياة في قريته تلك الوداعة الهائلة بين أحبائه وأترابه.. قرية تماثل ود حامد في الشكل والجوهر. وثانياً: إن غربته لسنوات طوال قد عمقت في ذاته هذا الالتصاق الحميم ببيئته وكثفت اعتزازه بها لانتمائه الصادق لها ولما رأى من تناقضات لا تماثل طبعه وذوقه في بيئات أخرى. وثالثاً: إن غربته قد منحتة الفرصة للنظر من بعد بغية استقرار واستجلاء دقائق الحياة في بيئته تلك البريئة الوارفة الظليلة بعطائها الوافر ومواطنيها الطيبين.

لواحد من هذه الأسباب، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة، ظل الأستاذ الطيب صالح حفيظاً ولصيقاً ببيئة قريته الوداعة الخيرة المسترخية على شاطئ النيل، وهو يتمثلها



هذه العناية باللغة قد جعلت كل أعمال الأستاذ الطيب صالح شهادات سامقة في استكشاف عبقرية اللغة العربية. إن أسلوبه يتسم بالقدرة الباهرة في تأهيل الكلمات، وحسن توظيفها، واستدراغ معانيها المتجددة، وانتقاء ما يتسق مع بعضها البعض في الجرس والنغم، معتمداً في كل ذلك على امتلاك ناصية اللغة ومحفوظ كبير من الشعر العربى، وذوق رفيع في تمثله، وبراعة في نسج المواقف بالكلمات الحبلية. ولهذا فإن الكثير من المقاطع في روايات الطيب صالح أقرب إلى الشعر منها إلى النثر حيث إنك تشعر وتلمس وتعيش هذا الأسلوب الأدبي المبدع، وما يستكشف من إحياءات بكر وصور موحية. لا ينقل لك صوراً من الأشياء كما تراها أو كما تنقلها آلة التصوير، إنما يعبر لك عن قدر من التجارب، صاغها في نفسه عملاً جديداً مبدعاً خلاقاً فيه ملامح الواقع ولكنه ليس الواقع بحال من الأحوال.

القارئ المتأمل لكل من أعمال الطيب صالح الروائية يجد شاعراً كبيراً يمتلك في اقتدار أدوات فنه بالقدر الذى جعل له أسلوبه المميز وطريقته المتفردة في التعبير التي تتسم بالثراء الفكري والفنى.

ولقد عبر الأستاذ جلال العشرى في مقالته: زوربا السودانى أو البحث عن الذات الأفريقية، أفضل ما يكون التعبير عن هذه الشاعرية النادرة الأصيلة التي يتميز بها أسلوب الطيب صالح الروائى حيث قال: «على أن ملكة هذا الكاتب لا تقتصر على إدراك أصول اللغة ومعرفته قواعدها؛ بل تتعدى ذلك إلى تفجير ما فى اللغة من طاقات وممكنات. فهنا الصورة الحسية التي تحرك قوة الخيال، والبصر الموحى الذي يثير كوامن النفس، واللقطة الجزئية العابرة التي تفضى بنا إلى المعنى الكلى اللامحدود، وكلها صفات شاعرية استعارها الكاتب من أصالة هذه اللغة الشاعرة ليطعم بها نثره الفنى، فإذا هو نثر فياض بالصور، ثرى بالأضواء والظلال، ملئ بالشحنات الوجدانية الموحية، والعبارات الوصفية الرشيق، والاستعارات المجازية المنتقاة، وهى جميعها بمثابة الخطوط والألوان التي تتألف فيما بينها وتتكامل فى لوحة حية كبيرة رائعة، كل ما فيها يصرخ من فرط الحياة، وكل ما فيها يستهدف وحدة الموضوع وقوته وإبراز ما فيه من أبعاد وأغوار»^(٢).

إن بناء الأفق الشعري للنثر وما يصحب ذلك من التعبير الروائى فى لغة مشبعة بالحركة والخيال قد كان مذهباً

الغالبية بهذه القدرات المتميزة على بلورة الفكرة رويداً رويداً، وتشبيد هذا البناء المتكامل الذى يتداخل فيه الواقع بالخيال، وتتمازج فيه الأحلام مع الواقع الماثل، وتتناغم فيه كل المشاعر على اختلاف منابعها وتوجهاتها. هنا يبرز إلى موقع الصدارة السؤال الهام: ماذا نعنى بالإبداع؟ وما هى أدوات الفن الروائى المبدع التي امتلكها هذا الروائى المتميز الذى أشادوا به، ووصفوه بعبقري الرواية العربية؟

إن الإبداع لغة يعنى إنشاء أو ابتكار أو تأليف الجديد، وهو لذلك يستبطن كثيراً من عناصر الرغبة فى الكشف وارتياح آفاق غير مألوفة، وإثارة تساؤلات تستوحى إجابات بكر تنبنى على الجدة. لهذا فإن المفكر المبدع صاحب مقدرة متميزة فى إدراك العلاقات - على تعددها وتنوعها وتشابكها وتناقضها - فى إطار وحدة متكاملة تتسم بالتفاعل والتمازج العضوى المتكامل، تلك هى البصيرة النافذة Insight التى تمثل الركن الأساس للمقدرة الإبداعية القائمة على الرؤية الشاملة، ثم اتخاذ المبادرة لإعادة تشكيل الواقع على نحو غير مسبوق فى إطار عمل إبداعي يجسد رؤية وفلسفة المفكر أو الفنان فى أطروحة أو رواية أو قصيدة أو لوحة فنية تشكيلية أو غير ذلك من ألوان الإبداع. جوهر القضية أن العمل الإبداعي بحكم ريادته لا يتبع الطرق النمطية المعروفة الثابتة فى عرض أو تحليل الظواهر أو حلها، إنما تتمثل فى القدرة على تجاوز الإشكاليات الماثلة واستشراف آفاق أرحب حبلى بمعطيات مستقبل أجمل وأفضل.

[٣]

إن التأليف الأدبي الإبداعي المتكامل يعنى بالشكل والمضمون فى آن معاً. إن الذوق اللغوى وقدرته على التعبير الموحى الخلاق يمثل الإطار الإبداعي الذى تتجسد فى منظومته وتداعياته الأفكار والأطروحات المبتكرة المتجددة. يقول الطيب صالح - فى أحد الحوارات الصحفية - مؤكداً أهمية هذا المنظور الذى يعطى للشكل أو الأسلوب أهميته وقيمته الحقيقية: «اللغة مهمة جداً جداً.. فى فترة، عندنا فى العالم العربى حصل لبس بين الشكل والمضمون. بعض الكتاب ظنوا تغليب المضمون يعنى إهمال الشكل، حتى إن كتاباً كباراً جيدين يكتبون بأسلوب أقل ما يقال فيه إن فيه الكثير من الإهمال. اللغة مهمة جداً جداً»^(٣).



الطيب صالح الروائية. يأتى فى طليعتها الزين ومصطفى سعيد. كما نتفاعل أيضاً مع شخصيات: محجوب، سيف الدين، الطريفى ولد بكري، ود الرئيس، بت مجذوب، عبد الحفيظ، ود البصير، الطاهر ود الرواسى، سعيد البوم، شيخ عبد الصمد، محميد، قطومة، إبراهيم ود طه، شيخ على، والإمام، ومريود، وغيرهم.

ولك أن تتأمل هذه القدرة البارعة التى مكنت هذا الفنان الروائى المبدع من رسم شخصيتين متناقضتين، لكل منهما تفردا وخصوصيتها وأثرها الباقي: الزين ومصطفى سعيد.

لم يكن الزين جميلاً. كان يحمل وجهاً مستطيلاً. لم تكن له حواجب أو أجفان. وتحت هذا الوجه رقبة طويلة. كان بدرجة من الدرجات درويشاً مجذوباً. يعرفه أهل ود حامد مهذاراً يكاد أن يكون أبله، غير أن روحه مفعمة بالمحبة وغامرة بالفرح.

فى المقابل كان مصطفى سعيد رجلاً وسيماً مكتمل الخلقة، يمتلك عقلية فذة، لكنه يتحرك برؤية ومشاعر قلب أجوف، تدفعه نزواته الجنسية والمادية، ولا يضىء أركان حياته التعاطف أو الحنان.

كان الزين براً حفيماً بموسى الأعرج وعشمانة الطرشاء. كان عالماً بوحدة بين كل العوالم المتناقضة فى قرية ود حامد، يحتضنها جميعاً بمحبته. ولهذا اجتمعت فى عرسه كل تناقضات قرية ود حامد. كان فرحاً كأنه مجموعة أفراح.

فى المقابل فإن مصطفى سعيد - النقيض من الزين - فقد نعمة القدرة على الحب والانتماء والعطاء. اغترب عن بلاده، ولم يراوده الحنين للعودة، فلم تعن بلاده بالنسبة له شيئاً. كانت: «مثل جبل ضربت خيمتى عنده، وفى الصباح قلعت الأوتاد، وأسرجت بعيرى، وواصلت رحلتى». حتى علاقته بأمه كانت كعلاقة مع شخص غريب، جمعته به الظروف صدفة، ولهذا فعندما بلغه نبأ وفاتها وقد كان مخموراً قال: «لم أشعر بأى حزن، كأن الأمر لا يعنينى فى كثير أو قليل». ولكل ذلك فقد أدرك القاضى أن المأساة الحقيقية لمصطفى سعيد تكمن فى عدم قدرته على التعاطف الإنسانى والمحبة أو حتى الإستجابة لها، فقال له: «إنك يا مستر سعيد رغم تفوقك العلمى، رجل غبى. إن فى تكوينك الروحى بقعة مظلمة. لذلك فقد بددت أنبل طاقة يمنحها الله للناس.. طاقة الحب».

هنا بيت القصيد... هنا تكمن

الكثير من القراء، وما كان ذلك إلا لقدرة المبدعة على رسمها رسماً مشبعاً بالحياة والحركة. وتلك سمة تميز بها الكثير من الأعمال الروائية والمسرحية الناجحة، سواء منها ما كتب باللغة العربية أو اللغات الأجنبية. تذكر ذلك فتحضرك شخصية هاملت فى مسرحية شكسبير، والسيد أحمد عبد الجواد وأمينه فى ثلاثية نجيب محفوظ، وعبد الهادى فى الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى، وعزيزة فى الحرام ليويسف إدريس، وما ذلك إلا غيض من فيض. غير أنه من الأهمية بمكان التأكيد على أن شخصيات الطيب صالح الروائية، كما هو الحال فى كل عمل روائى إبداعى خلاق، ليست بصور لشخصيات حقيقية فى الواقع المعاش. إنها شخصيات روائية. هى بمثابة نماذج لها أصل وشبيهه فى الحياة، لكنها فى الرواية غير هذا الأصل الحياتى الواقعى، فالروائى المبدع يعيد خلقها فى الرواية ويرسمها فناً مبدعاً يأخذ من صورة الواقع بطرف ومن رؤية وخيال الفنان بطرف آخر. يقول الأستاذ الطيب صالح: «قد يظن القارئ أن عرس الزين قد حدث بالفعل، وأن أشخاصها أحياء، وأن الزين شخص حى يرزق. أما بالنسبة لى فإن شيئاً من ذلك لم يحدث، والرواية عالم من تصورى، وأنا المسئول عنه. أما التفاصيل فربما يكون بعضها حقيقياً اعتمدت فيه على واقع استلهمته من ذكريات بعيدة للمكان الذى نشأت فيه»^(٤).

هذا ضرب من الفن الروائى الرفيع لا تستطيعه إلا قلة من الروائيين المبدعين الذين يمتلكون هذه القدرة الباهرة على بناء ورسم الشخصيات. وذلك قول يؤمن به الطيب صالح إذ يقول: «كل كاتب يستحق اسمه لأبد أن يكون قادراً على خلق شخصياته، وابتكار أجواء وأشكال من حياة ليست بالضرورة مستقاة من حياته الشخصية»^(٥).

نعيش ونسعد بلقاء الكثير من الشخصيات النابضة بالحياة فى أعمال

هكذا يكون الالتصاق الحميم بالبيئة، والقدرة على تمثيلها، والتعبير عن هذا العشق للوطن باستكشاف مواطن الجمال والحسن فيه، بهذه اللغة الشاعرية المبدعة المتفردة.. فتأمل!

[٥]

وتبرز قدرة هذا الفنان البار على توظيف هذه اللغة الشعرية الموحية لاستكشاف أبعاد مبدعة للعمل الروائى فى رسمه شخصيات نابضة بالحياة، مشبعة بالحركة، قادرة على التفاعل سلباً وإيجاباً مع مقتضيات المكان والزمان. وهو من بعد ومن قبل لا يقدم لنا هذه الشخصيات فى أسلوب سردى تقريرى مباشر، بل يجعلنا نتعرف عليها، ونأنس إليها فى معظم الأحوال من خلال تفاعلها مع مجرى الأحداث وتطورها فى الرواية. يفعل ذلك بمقدرة متميزة تحتفظ لكل من هذه الشخصيات بلغتها الخاصة. ولا جدال أن ذلك لا يتأتى إلا بقدرته على استبطان العالم النفسى لكل من هذه الشخصيات الحية استبطاناً مكنه من تجسيد الرؤى والتصورات والأنفعالات الساذج منها والمعقد، الفطرى منها والفلسفى المركب، وعكس كل ذلك فى تفاعلها مع المواقف والأحداث. وحتى فى الحالات القليلة النادرة التى يلجأ فيها الأستاذ الطيب صالح إلى الوصف المباشر لمواقف بعض شخصياته، فإنه يفعل ذلك فى اختزال، وفى لغة مكثفة، كقوله عن بنت عبد الله، التى استهلكت الزغاريد فى عرس الزين: «صوتها عذب وصرختها قوية من كثرة ما زغردت فى أعراس الآخرين. ظلت عانساً عمرها فلم تتزوج، لكنها تفرح لأفراح كل أحد فى الحى».

وأبادر إلى القول بأن العديد من شخصيات الطيب صالح الروائية قد أصبح لها وجود حى ماثل فى نفوس

فى الكثير من المواقف فى كل أعماله الروائية.

ويبدو أثر البيئة بيناً فى أسلوب الطيب صالح حيث إنه لون وتصدير مقاطع شاعرية موحية وكان نبعاً ثراً لإيحاءات بكر، وتشبيهات مبدعة، وتصوير بارع مفعم بالشفافية والقدرة على تجسيد الاستعارة، والاستعارة كما قال أرسطو هى دليل العبقرية. اخترت لك هذه الومضات الإبداعية الخلاقة، دليلاً على التصاق الأستاذ الطيب صالح الحميم بالبيئة السودانية وقدرته على استكشاف عبقرية اللغة العربية للتعبير عنها:

● جاء فى عرس الزين: «رائحة الأرض.. تملأ أنفك، فتذكرك برائحة النخل حين يتهيأ للقاح. الأرض ساكنة مبتلة، ولكنك تحس أن بطنها ينطوى على سر عظيم. كأنها امرأة عارمة الشهوة تستعد للملاقاة بعلمها.

الأرض ساكنة ولكن أحشاءها تضج بماء دافق، هو ماء الحياة والخصب. الأرض مبتلة متوشية، تنهيا للعطاء.. وكما يضم رحم الأنثى الجنين فى حنان ودفاء وحب، كذلك ينطوى باطن الأرض على حب القمح والذرة.. وتتشقق الأرض عن نبات وثمر».

● ونقرأ فى موسم الهجرة إلى الشمال: «وتفتح جمالها فجأة كما تنتعش النخلة الصبية حين يأتيتها الماء بعد الظما. كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة قبل الحصاد». «ثم رفع وجهه إلى السماء وتمعن فيها دون إحساس، كأنها قطعة أرض رملية لا تصلح للزراعة».

● ولك أن تتأمل فى هذا التصوير المبدع الذى جاء فى بندر شاه: «كان القمر يبتسم بطريقة ما، وكان الضوء كأنه نبع لن يجف أبداً، وكانت أصوات الحياة فى ود حامد متناسقة متماسكة تجعلك تحس بأن الموت معنى آخر من معانى الحياة لا أكثر. كل شىء موجود وسيظل موجوداً. لن تنشب حرب ولن تسفك دماء.. وسوف تلد النساء بلا ألم والموتى سوف يدفنون بلا بكاء».

ولعلك تسمع بفضل روعة هذه اللغة الموحية أصوات وأنغام الضح البهيج ليلة زواج ضو البيت: «الليلة كل شاب عاشق، وكل امرأة أنثى، وكل رجل أبوزيد الهلالى. الليلة كل شىء حى، فاح العبير، وتم السرور، وشعشع الضوء ولذت جيوش الكدر بالفرار، كل غصن تثنى، وكل نهد ارتعش، وكل طرف كحيل، وكل خد أسيل، وكل فم عسل، وكل خصر نحيل، وكل فعل جميل، وكل الناس ضو البيت».

يبرز إلى موقع

الصدارة أثر البيئة

السودانية الريفية فى أدبيات الطيب صالح،

فهو يتمثلها فى معظم

المواقف، شكلاً وموضوعاً





[٦]

وحوش في بطن حوش.. وبدل بيوت ود حامد من القش إلى الجالوص.. وهناك أيضاً شخصية بلال في رواية مريود: «كأنه نزل فجأة من السماء أو انشقت عنه الأرض، أو كأنه طلع من النيل، شخصاً كامل الهيئة والتكوين، فلا إنسان من أهل البلد يذكره طفلاً، ولا أحد يعلم من رياه، ولا أحد يقول لك رأيت بلالاً أو سمعت بلالاً إلى أن ظهر فجأة.. إننا نعيش في كل أعمال الطيب صالح الروائية، أو قل في هذه الملحمة أو إذا شئت «الإلياذة»، هذه القدرة للتعبير الروائي في لغة شاعرية متجددة، ثرية بالواقعية الفنية، حافلة بالخيال الجامح المتفرد، غنية بهذه الشخصيات النابضة بالحياة.

أناقة اللغة ورشاقتها وشاعرية التعبير، وعدوية جرس الكلمات وإيقاعاتها الداخلية، وشفافية المعنى والمضمون، سمات واضحة تشكل نسق التأليف الروائي الإبداعي للأستاذ الطيب صالح. وتظل الحقيقة ماثلة إن العمل الإبداعي يتميز بالرغبة المتنامية في الارتياح والكشف عن قضايا ملحة، وإثارة تساؤلات غير مسبوق، وابتداع إجابات غير نمطية تتصف بالجدة Novelty على هذه التساؤلات. لكل هذه السمات فإن العمل الإبداعي يعنى بتحقيق الرؤية Vision باتخاذ المبادرة لإعادة تشكيل الواقع على نحو أفضل وأرحب. وبالتالي يمكن القول إن العمل الإبداعي يبرز كوعى للمستقبل، ويمتلك القدرة على تجاوز الإشكاليات الفكرية والعملية الماثلة لوضع محاور لمستقبلات بديلة تمهد لغد أفضل. وفقاً لذلك فإن الإبداع ليس خيالاً صرفاً بل تفكير جاد ورحب.

[٧]

إن مسرح الأحداث لكل أعمال الطيب صالح الروائية قرية ود حامد في شمال السودان. ود حامد هي الشيء الوحيد الثابت بما تكتنز من رمز لعالم البراءة والعلاقات الدافئة المعافاة والوشائج الإنسانية الفطرية، وما يدخل على كل ذلك من مؤثرات الخير والشر.

إن ثبات قرية ود حامد كمسرح دائم للأحداث يرجع كما يثبت الطيب صالح - في حواراته - إلى أنه بذلك يقيم جسراً بينه وعالم جميل عاشه في طفولته وفي صباه يقول: «أعتقد أن الشخص الذي

يطلق عليه كاتب أو مبدع يوجد طفل قابع في أعماقه،

مفارقات وملح وعبارات مترعة بالسخرية لها دلالات اجتماعية وسياسية. أتذكر قول ود الرواسي: «قلت لي حاج سعيد: إذاعة السجم دي تنبج طول اليوم أصلها حسها دا ما ينغرش. إنت يا حاج العمال والفلاحين ديل بلدهم وين؟ قال لي: يا مغفل العمال والفلاحين مو ياهن نحن. قلت: أنا أخوك هسع نحن اسمنا العمال والفلاحين. قال لي: أيوه.. طيب أها وزيادة الإنتاج يعنى شنو؟ قال لي: الإنتاج موياهو السجم البنسوى فيه دا، وزيادة الإنتاج يعنى تخت السجم فوق الرماد». لقد استطاع هذا الفنان البارع بحسن توظيفه للحوار الذي يعبر عن كل شخصية بلسانها، وبالنظر إلى هذه الشخصيات بعيون الآخرين الذين يتفاعلون معهم، وباستخدام لغة شاعرية مكثفة عند وصف مشاعره وخواطره نحوهم، أن يبني وينمي علاقات من الألفة والمحبة بيننا وهذه الشخصيات النابضة بالحياة التي تحفل بها كل رواياته.

هذه الشخصيات النابضة بالحياة، المتعددة الأمزجة والقدرات والمواهب، تبرز إلى موقع الصدارة قدرة الأستاذ الطيب صالح على ابتداع شخصياته الروائية. ولعله من المدهش والمفرح في آن بعض هذه الشخصيات جاء من لا مكان. إذ هو نتاج هذا الخيال الجامح للمؤلف، خيال لا يؤمن بالحوجاز أو الحدود، بل يطلق للفكر والمشاعر العنان فتبدع بالصورة التي تراها لإثراء الرواية. إنك لتسعد بنتاج هذا الخيال المتفرد بشخصية ضو البيت في بندر شاه: «الذي خرج من الماء. أبيض اللون، طويل القامة، عيونه خضر. وهو الذي اشغل كأنه شيطان من نسل إبليس لا يفتر ولا يكل، وطول الليل والنهار لا تجده أبداً قاعداً ولا راقداً. دائماً واقف أو منحني فوق المعول أو الطورية. يعمل عمل جيش من البشر. بنى فوق القلعة بيت داخل بيت، وديوان وراء ديوان،

قد استعان الطيب صالح في رسم شخصياته، في أحيان أخرى، بالنظر إليهم بعيون الآخرين الذين يتفاعلون معهم، ويعبرون عن مشاعرهم - سلباً وإيجاباً - نحوهم. ولربما كانت شخصية الإمام أكثر الأمثلة شهادة على هذا الذي ذهبنا إليه. لقد كان الإمام بصفة عامة رجلاً مترمناً، كثير الكلام، ازدواجي التفكير. ولهذا فقد انقسمت قرية ود حامد في التعامل معه إلى ثلاث جبهات: الجبهة الأولى: يمثلها كبار السن وهم يعاملون الإمام بشيء من الود الذي يشوبه التحفظ، يدعونه للغداء كل يوم جمعة بعد الصلاة ويدفعون إليه بصدقة الفطر في عيد رمضان. أما الجبهة الثانية: التي تضم الشباب فلا يودون الإمام مطلقاً ويظهرون له العداء فهو في رأيهم رجل صناعته تذكير الناس بالموت. أما الجبهة الثالثة: فهي عصابة محجوب، الذين يرون الإمام شراً لا بد منه. والإمام من بعد ومن قبل يعيش قدراً كبيراً من ازدواجية حيث تتجدد في حياته بصورة متواترة وملحة رغبته في الالتزام بقناع من التزمت، ولهذا يحرص على زجر المصلين في خطبة يوم الجمعة، وكأنه ينتقم لنفسه بهذا الكلام الفصيح عن الحساب والعقاب. في الوقت ذاته الذي تنطوي عليه نفسه من شبق ورغبات جنسية مكبوتة. فلما رأى من الراقصة سلامة ساقها اليمنى وجزءاً من فخذيها الممتلئ وقد رفع عنه الثوب.. «عاد بوجهه إلى محدته وكانت عيناه مريدتين مثل الماء العكر». تأمل كيف استطاع الأستاذ الطيب صالح أن يجسد أمامنا هذه اللحظة بما فيها من ضعف إنساني يهزم صلف وتزمت الإمام!

وانك لتسعد بقدر وافر من المتعة الفكرية، وأنت تعيش حوار هذه الشخصيات النابضة بالحياة، وما يحفل به هذا الحوار في أحيان كثيرة من

الرسالة الأساسية التي يبثها الأستاذ الطيب صالح في كل أعماله الروائية.. قضيته الجوهرية هي تأصيل المحبة والوثام والتسامح. ولعلك كلما ازددت إمعاناً في شخصية الزين ونقيضه مصطفى سعيد في رواية موسم الهجرة إلى الشمال ازددت إعجاباً بهذه القدرة على تجسيد المعاني الموحية لرسالة المحبة والتعاطف الإنساني، بل لعل في حديث الطاهر ود الرواسي لمحييمد ما يؤكد حرص المؤلف على تجسيد رؤياه للمعاني الظليلة الوارفة المعطاءة لمعاني المحبة: «الإنسان يا محييمد.. الحياة يا محييمد ما فيها غير حاجتين: الصداقة والمحبة. وما تقول لي لا حسب ولا جاه ولا مال. يوم الحساب.. يوم يقف الخلق بين يدي ذي العزة والجلال شايلين صلاتهم وزكاتهم وحجهم وصيامهم وتهجدهم وسجودهم، سوف أقول يا صاحب الجلال والجبروت.. عبدك المسكين الطاهر ود بلال ولد حواء بنت العربي يقف بين يديك خالي الجراب منقطع الأسباب، ما عنده شيء يضعه في ميزان عدلك سوى المحبة».

إن مسرح الأحداث لكل أعمال الطيب صالح الروائية قرية ود حامد التي تتمثل فيها ملامح القرى الساكنة على شاطئ النيل في الجزء الشمالي من السودان. والمتأمل في أعمال الطيب صالح الروائية، وهي بترتيب صدورها: عرس الزين، وموسم الهجرة إلى الشمال، وبندر شاه بجزئيه ضو البيت ومريود، يجد شخصياته تنمو وتتجدد وفقاً لمتغيرات ومقتضيات الزمان والمكان. فنجد مثلاً شخصية سعيد اليوم الذي كان مصدر سخرية في رواية عرس الزين وهو القائل لزوجته: «إنها امرأة جيضة.. امشي خدي دروس من بنات الناظر» نجده في بندر شاه، بعد أن دار الزمان دورته قد أصبح سعيد عشا البايئات بعد أن كان «بوما»، وتزوج بنت الناظر، وصار يعتلى مئذنة الجامع داعياً إلى الصلاة، وتغير أسلوب حديثه واهتماماته، وأصبح القائل: «أنا سعيد ود زايد ود حسب الرسول، عربى حر، على اليمين أهلى في سودرى يحجبوا ضوء الشمس. مالى أنا مسلم موحد الله». تأمل هذه القدرة الإبداعية المتفردة التي يمتلكها هذا الروائي الفنان الذي استطاع أن يجسد صورة حية لسعيد اليوم وعشا البايئات في مرحلتين مختلفتين من عمره. ولقد تحدث سعيد في كل حالة بلسانه وفق ما تستوجبه مستوجبات الزمان والمكان.



لكل هذه الأسباب،
ظل الطيب صالح حفيماً ولصيقاً
ببيئة قريته الوادعة الخيرة المسترخية على شاطئ
النيل، وهو يمثّلها في الكثير من
المواقف في كل أعماله الروائية





[٩]

«اجتمعت النقائض فى عرس الزين».
«جوارى الواحة غنين ورقصن تحت سمع
الإمام وبصره. كان المشايخ يرتلون القرآن
الكريم فى بيت، والجوارى يرقصن فى بيت.
بيت، والمداحون يقرعون الطار فى بيت.
كان فرحاً كأنه مجموعة أفراح. وتقاطر
عرب القوز وفريق الطلحة. وجاء الناس
من بحرى وقبلى، وغنت فطومة ورقصت
سلامة. لم تبق امرأة لم تزغرد ولا رجل
لم يهتز ويطر.. وكانت الدائرة تتسع
وتضيق، والأصوات تغطس وتطفو،
والطبول ترعد وتزمرجر، والزين واقف فى
مكانه فى قلب الدائرة، بقامته الطويلة،
وجسمه النحيل، فكأنه صارى المركب».
الزين أصبح صارياً للمركب يحفظ الاتزان
النفسى والروحى ويدفع المركب إلى الأمام
بالمحبة.. فتأمل! هكذا أراد الطيب صالح
أن تكون أسطورة الزين قوة دافعة لتحقيق
التوازن الروحى بين متناقضات قرية ود
حامد، وقوة دافعة لتأمين المحبة والوثام
وتأصيل مبادئ الوفاق والتسامح.

وتتناول رواية موسم الهجرة إلى
الشمال فى تصورى قضيتين مهمتين:
أولهما تكمن فى مأساة مصطفى سعيد،
فهو على النقيض من الزين يحمل قلباً
أجوفاً لا يضىء أركانه المظلمة حب أو
حنان، لذلك فقد بدد حياته كلها فى
نزواته الجنسية والانتقامية. وفقد نعمة
العطاء والمشاركة. أما القضية الثانية
وهى التى تعبر عن المحور الرئيسى
لرواية فتتمثل فى معالجتها معالجة
جديدة ومبتكرة لمشكلة سبق أن عالجه
قبله بعض الروائيين العرب بصورة
مختلفة. تعالج رواية موسم الهجرة إلى
الشمال القضية التى عبر عنها من قبل
توفيق الحكيم فى روايته عصفور من
الشرق، ويحيى حقى فى روايته قنديل
أم هاشم، وسهيل إدريس فى روايته الحى
اللاتينى. إنها مشكلة الصراع الدائم
المباشر والمستتر بين الشرق والغرب.
الطيب صالح ابتدع لروايته مدخلاً
جديداً وزاوية مختلفة. فى حين تناول
من سبقه من الروائيين هذه العلاقة من
مدخل رومانسى يتسم بالدهشة وبدرجة
من الإعجاب لما رأوا فى الحضارة الغربية،
فقد تناولها على أساس أنها علاقة صدام
ومواجهة.

هذا المدخل الجديد لرواية «موسم
الهجرة إلى الشمال» كان موضع إعجاب
النقاد المتميز الأستاذ رجاء النقاش حيث
قال: «وفى الرواية فوق ذلك كله امتزاج
خصب أصيل بين فضائل الرواية
التقليدية مثل التصوير الدقيق العميق
للشخصيات وخلق الحكاية الممتعة التى
تشد الأنفاس حتى النهاية، وفضائل

نستطيع من جانب آخر أن نلمس
كيف استطاع الطيب صالح فى اقتدار أن
يقدم إجابات جديدة مبتكرة للإشكاليات
الماثلة، وبالتالي بناء رؤية شاملة تطرح
بدائل مستقبلية أفضل، عندما نتأمل فى
مضمون أعماله الروائية.

لقد كانت البداية دومة ود حامد
حيث عايشنا الجدل والصراع بين
الحكومة وأهل قرية ود حامد، وقتئذ
أصبح مزار دومة ود حامد رمزاً ليقظة
الشعب ضد استكبار الحاكم. وهنا جادت
قريحة المؤلف الإبداعية بأن الجدل لا
معنى له والصراع لا مبرر له، حيث إنه
قد غاب عنهم جميعاً أن المكان يتسع
للدومة وللضريح ولمحطة الباخرة،
وبالتالى ليس هناك معنى أو مبرر لإلغاء
وجهة النظر الأخرى. المكان يتسع
للجميع، وكذا النفوس ينبغى أن تكون
أكثر رحابة وسعة لتحقيق كل الرغبات
والآمال والطموحات.

فى عرس الزين تتبلور الرسالة
الأساسية للمحبة الطيب صالح المتطلعة
إلى تأصيل المحبة والوثام والمصالحة
والتسامح. الزين يحمل حبا غامراً غمر
كل أرجاء قرية ود حامد. لقد استطاع
المؤلف أن يعطى الزين نبضاً أسطورياً
خاصاً مليئاً بالأسرار. ولعلك تلمس ذلك
منذ البداية حين يحدثك عن الحدث
الخارق للعادة الذى صلب ميلاد الزين.
الأطفال حين يولدون «يستقبلون الحياة
بالصرخ. هذا هو المعروف، ولكن يروى أن
الزين - والعهد على أمه والنساء اللاتى
حضرن ولادته - أول ما مس الأرض انفجر
ضاحكاً، وظل الزين على حاله هذا
ضاحكاً مهذاراً مفعماً بالفرح والمحبة لكل
أهل قرية ود حامد. لهذا كان عرس الزين
جامعاً لكل العوالم المتناقضة فى ود حامد،
تناست هذه العوالم صراعاتها وتناقضاتها
وجاءت لتشارك الزين فرحته وبهجته
التي هى صورة من فرحها وبهجتها. يقول:



شخصيات الطيب صالح

**الروائية، كما هو الحال
فى هى بمثابة نماذج لها أصل وشبيه فى الحياة،
لكنها فى الرواية غير هذا
الأصل الحياتى الواقعى**



فى كل ذلك بعمق، وامتلاكه أدوات التعبير
التي تجعل القارئ يعيش كل ذلك ويأنس
له ويتفاعل معه.

وتعبر «موسم الهجرة إلى الشمال»
عن مذهب آخر فى التكنيك الفنى، حيث
نجد الأزمنة متداخلة بين الماضى
والحاضر والمستقبل. ولهذا يجد القارئ
نفسه فى خضم العديد من الأحداث
المتعددة والمتنوعة التى يمثل الماضى منها
تجربة ما كان، ويعبر حاضرها عن الأثر
الفاعل للواقع الماثل، وبينما يمثل
المستقبل محاولة استقرار أو استشراق
ما سيكون. هنا تتداخل الأزمنة وتتمازج
التصورات التى يختلط فيها الواقع
بالرغبات، والذكريات القديمة بالأحلام،
والمناجاة بأصدااء الأصوات المعبرة عن
تفاعلات الحاضر.

أما بندر شاه بجزئيه «ضوء البيت»
و«مريود» فتعد فتحاً جديداً فى التكنيك
الفنى الروائى، حيث نجد المؤلف يبلغ
قمة التعبير الروائى الذى تتداخل فيه
الأزمنة بين الحقيقة والوهم، وبين
الواقع والحلم، وبين عالم الشعور وعالم
اللاشعور. منحه فنى مبتكر وغير مسبوق
يتسم بالتألق والوهج المتميز. يقول
الأستاذ الطيب صالح: «إن فى «بندر شاه»
شيئاً جديداً بالنظر، وفيها ما يؤكد ما
ذهبت إليه من اشتغالى كعالم أثرى، ففى
«بندر شاه» هذا المكان خلطت بين
الأسطورة، والحلم، والواقع، والتاريخ،
فأريد أن أفهم لماذا هذا المكان؟ وما
خصائصه، وأنا أتقصى أيضاً فى قضية
العلاقة بالسلطة، لأن بندر شاه - كما
تعلمين - بندر المدينة، وإشكالية الحلم،
والمشكلة بالنسبة لنا هى المدينة بمعناها
الواسع كيف تدار؟ وكيف تحكم؟ وليس
المدينة ذات الأبنية الشامخة، وذلك
بالرغم من أن الوجوديين يرون أن منزلة
الفرد فى المدينة تجسم المنزلة البشرية،
وأن فضاء المدينة يغذى شعور الإنسان
بالغربة، ويعمق اقتناعه بعبثية
الحياة»^(٨).

[٨]

والإبداع نفسه ربما فيه البحث عن هذه
الطفولة، والأدب برمته بحث عن فردوس
ضائع، وقد كان عالم الطفولة بالنسبة
إلى فردوساً، كان هو العالم الوحيد الذى
أحبته دون تحفظ، وأحسست فيه
بسعادة كاملة، والحسرة الكبرى فى
حياتى أن طفولتى فى القرية لن تعود
مرة ثانية!!^(٩).

ومن جانب آخر، فإن ثبات قرية ود
حامد كمسرح دائم للأحداث تفسره
رغبته فى صنع إلياذة. يقول الطيب
صالح: «استهدفتنى رغبة خلق
ميثولوجيا فى ما سعيت إلى كتابته من
سرد قصصى وروائى، وقد زعمت - فى
بعض ما قلته وصرحت به فى عدة
مناسبات، وعساه يكون زعماً مقبولاً -
تحويل شخصيات المنطقة التى عشت
فيها إلى شخصيات ميثولوجية
ملحمية على غرار شخصيات
هوميروس، لأننا كما نعلم شخصيات
هوميروس كانت شخصيات عادية، كانوا
رعاة ومزارعين، فى بلاد اليونان، ولم
أجد أى سبب يمنع من فعل ذلك بدورى،
أى تحويل شخصياتى إلى شخصيات
ملحمية على غرار الشخصيات التى
عرفتها فى شمال السودان، وإن كان من
عرفتهم شخصيات عادية»^(١٠). عندما
تقرأ هذا الرأى الحصيف تقفز إلى
ذاكرتك حقيقة أن عظماء الكتاب فى
كل الحضارات كانوا دائماً على التصاق
حميم ببيئاتهم المحلية، استلهموا من
وحيها إشرافاتهم الإبداعية، وأجادوا
برؤيتهم النافذة الثاقبة فى عكس هذه
البيئات المحلية لتكون فى مصاف الفكر
والأدب الإنسانى العالمى الذى لا يقف
اختلاف اللغات حاجزاً عن فهمه وتدوقه
والتفاعل معه. هنا تبرز القيمة
الجوهرية لأدبيات الطيب صالح الذى
استطاع أن يضع قرية ود حامد، وأن
يضع بالتالى السودان فى دائرة الاهتمام
ليس العربى فحسب بل العالمى. والمتتبع
لترجمة رواياته إلى كل اللغات الحية
يؤمن على هذا الذى نقول.

ولك أن تتأمل هذه البراعة فى انتقاء
التكنيك الفنى المناسب لكل من أعماله
الروائية. تمثل رواية «عرس الزين» نموذجاً
رفيعاً لرواية الحدث أو الحركة التى تقوم
على السردية البارعة، المعنية بكل
التفاصيل كبيرها وصغيرها، معتمدة فى
ذلك على دقة نظره، وملاحظته
للأشخاص وللمواقف وللمعالم، وتأمله



عندما يتحدث أردوجان

(٥)

إخوتي الأعزاء

اليوم يوم جديد، إنه ميلاد.

من الواضح تماماً أنه لا شيء يمكن أن يستمر على حاله. لا يمكن لدولة عدائية تمارس الجرائم والمجازر علناً أن ترفع بصرها إلى المجتمع الدولي وتتنظر في وجهه وتتمكن من شرح موقفها ما لم تتقدم وتساؤل نفسها عما فعلت. تلك السفن كانت سفن رحمة وحمولتها الضمير الإنساني.

إن اعتراض سفينة مدنية تبعد ٧٢ ميلاً عن المياه الإقليمية وفي المياه الدولية تماماً واحتجاز السفينة وركابها هو جريمة في حد ذاته.

سئمنا من أكاذيبكم

الهجوم المسلح على الناس الأبرياء، إراقة الدماء، القيام بمذابح هو إرهاب دولة بشكل واضح. هم ينكرون ذلك قائلين: لقد أطلقوا علينا النار. لقد سئمنا من أكاذيبكم هذه سئمناها... كونوا صادقين، صادقين.

لا أحد يستطيع تصوير المتطوعين ومن معهم من النواب الأوروبيين والصحفيين الستين وبالطبع ذلك الرضيع البالغ من العمر عاماً واحداً مع أمه والذين كانوا على متن السفن، على أنهم يستهدفون غاية غير إنسانية.

مرة أخرى تجلى بوضوح كيف أن إسرائيل ترى في الظلم غير الإنساني لفلسطين وغزة أمراً مقبولاً لسنوات عديدة.

لقد أظهروا للعالم مرة أخرى - كما سبق أن قلته - من قبل في وجوههم - أنهم يعرفون القتل جيداً.

إنه قيدوا أيدي الأبرياء الذين أصيبوا بجروح خطيرة جراء طلقاتهم النارية، هل يمكن تبرير ذلك؟ هل رأيتم منظر الجريح على النقالة وهو مكبل؟ هل يمكن تبرير هذه المشهد على ضوء المبادئ الدولية؟ لن يمكنهم أبداً أن يشرحوا للعالم بعد الآن كم هو نصيبهم من الإنسانية.

وما جرّوت على احتوائه من مضامين متعددة متداخلة ومتوازية.

[١٠]

كُتب عن أعمال الأستاذ الطيب صالح الروائية الكثير، ولكن بالرغم من كثرة ما كتب على تعدده وتنوعه وعمقه وأهميته، فلا تزال هذه النصوص الروائية قابلة لإعادة القراءة، وللمزيد من التأمل والتحليل لاستشراف الجديد من الأبعاد الرحبة والغنية التي تقف شاهدة على فرادته وإبداعه وتميزه.

إن طرائق الأستاذ الطيب صالح في الحكى والسرد غير التقليدي، ومزجه بين الواقع الماثل والأسطورة والخرافة في سياقات وأزمنة متداخلة، واستشراف مضامين متنوعة ومتجددة وغير مسبقة وحيل بأفكار وأطروحات متجددة، والتعبير عن كل ذلك في لغة شاعرية أنيقة مترعة بالإيقاعات والأنغام الداخلية، يضعه موضعاً متميزاً مفكراً وروائياً مبدعاً، وهو لكل ذلك رائد من رواد الرواية الحديثة لا في العالم العربي فحسب وإنما في العالم. ■

هوامش

(١) محيي الدين صبحي: الطيب صالح روائياً وناقداً، حوار مع الأستاذ الطيب صالح، في كتاب الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، دار العودة بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٤، ص ١٢٠.

(٢) جلال العشري: زوربا السوداني أو البحث عن الذات الأفريقية، في كتاب: الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، دار العودة بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١، ص ١٥٣.

(٣) هكذا حدثني الطيب صالح، حوار أجراه بشير القمري مع الأستاذ الطيب صالح بمناسبة تكريمه في أصيلة في ١٤/ أغسطس ١٩٩٤، في كتاب الطيب صالح، منتدى أصيلة رقم ١٣، ص ٨.

(٤) تقرير وكالة الأنباء الفرنسية، الطيب صالح يكتشف ذاته، صحيفة الوطن، ١٩ يناير ١٩٨٩، العدد ٤٩٩٩، ص ٦.

(٥) الطيب صالح للوطن الثقافي، حواره عبد الستار خليف، صحيفة الوطن، ٢٤ يناير ١٩٩٥، ص ٣.

(٦) سوسن الدويك، حوار مع الأستاذ الطيب صالح، في كتاب: بعد الرحيل، في تذكّر المريد الطيب صالح، تحرير الدكتور حسن أبشر الطيب، الطبعة الأولى يونيو ٢٠٠٩، ص ٨١٠.

(٧) هكذا حدثني الطيب صالح، نفسه ص ١٠.

(٨) سوسن الدويك، نفسه ص ٨١٦.

(٩) رجاء النقاش: الطيب صالح.. عبقرية روائية جديدة، في كتاب الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، دار العودة بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١، ص ٩٨.

(١٠) هكذا حدثني الطيب صالح، نفسه ص ١٥.

الرواية الحديثة التي تعتمد على تصوير الأحلام والعالم الداخلي للإنسان. لقد استخدم الطيب صالح في روايته جميع الأساليب المناسبة في مزيج فني سليم خصب وأصيل. ولذلك جاءت روايته في النهاية رواية عصرية من ناحية، ولكنها من ناحية ثانية تفوح بالأصالة والارتباط بالتراث الروائي العربي والعالمي معاً. إنها عبارات أخرى «رواية عربية متطورة، تمثل خطوة جديدة في أدبنا الروائي، بل وتفتح في تاريخ الرواية العربية صفحة جديدة مشرفة... إنها علامة من علامات الطريق في أدبنا العربي المعاصر»^(٩).

نجد مصطفى سعيد يدرك أن هناك مواجهة وصداماً بين الشمال والجنوب تكمن مسبباتها الأساسية ودوافعها المتجذرة في تاريخ الاستعمار الغربي. يقول الطيب صالح: «أسعى دائماً إلى أن أبدأ أي عمل روائي لي وأنا أمتلك أطروحة، أطروحة قد يؤيدها العمل الروائي أو ينفيها، وذلك يساعدني على خلق محور بيني وبين العمل الذي أكتبه. بدأت موسم الهجرة إلى الشمال بافتراض أن العلاقة بين العالم العربي الإسلامي والعالم الغربي علاقة تقوم على العنف، وليست علاقة رومانسية في أي شيء كما خيل للبعض أو كما كان يعتقد من هذا الجانب أو ذاك. موسم الهجرة أكد لي هذا الافتراض»^(١٠).

يكفي العمل الإبداعي الهادف أن يثير هذه التساؤلات، وأن يبرز إلى موقع الصدارة أهمية استكشافها وطرحها سعيًا إلى تحقيق الإجابات الموضوعية في إطار ظروف ومقتضيات الزمان.

أما القضية الجوهرية لرواية بندر شاه بجزيئها فتتمثل بشكل بين في العبارة التي تكررت في ضو البيت: «لقينا شيئاً وضاع شيء». ذلك النهار لا ندرى البكاء على إيش ولا إيش، على اللقيناه ولا على الضاع». ولعل القارئ يرى في هذا أن القصد هو استكناه إشكاليات الصدام الحضاري وأطروحات التغيير وما يترتب عليها من نتائج إيجابية وسلبية.

إن جميع أعمال الطيب صالح الروائية ذات سياقات وأزمنة متداخلة، ومغممة بالأسطورة وطيف الحاضر الماثل في آن، غير أن هذه السمات تصل أعلى ذراها في رواية بندر شاه بجزيئها، الوضع الذي يستوجب من القارئ الأناة والتأمل، وإعادة النظر لكي يستكشف الأبعاد الموحية والمتجددة التي تجعلها بحق فتحاً جديداً في عالم الرواية العربية لما تميزت به في جانب التكنيك الفني

تتهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات. ٦٦

النظام القضائي

لطيفة محمد سالم
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠، جزأين



هو المتمم للجزء الأول، حيث يحمل العنوان نفسه ويتابع مباشرة الحقبة الزمنية التالية، والتي تحظى، إذ ارتبطت بالكفاح ضد الإمبريالية بنوعياتها المتعددة والتي منها التسلط القضائي، كما ارتبطت بالاحتلال البريطاني الذي أخذ على عاتقه الدفاع عن مصالحه، واستخدم الطرق جميعها من أجل ذلك.

وفي تلك الأثناء مر القضاء والتشريع بمراحل ثلاث: مرحلة استكمال سياسة القضاء المختلط والقنصلية الخاصة بالسيطرة التقليدية، ومرحلة الانتقال بين اتفاق مونترال ١٩٣٧ وسقوط القضاء المختلط وتحجيم القضاء القنصلي عام ١٩٤٩، ثم مرحلة التحول وإسباغ السلطة القضائية على القضاء الوطني الذي أصبح سيد موقفه على الأرض المصرية بعد أن حمل مهمة الولاية القضائية ونجح في أدائها. ولم يكن ذلك بالأمر الهين وإنما استغرقت المجهودات المضنية سنوات كثيرة من أجل تحقيق استقلال ووحدة القضاء المصري.

رواية «درالبحر»: سيرة الشريف يوسف روبيونسون

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
تأليف: جون لويس بيركهارت
تحقيق وتقديم وتعليق: عبد الله الدحيات
٢٠١٠
١٤٠ صفحة



بقيت مخطوطة حكاية درالبحر سيرة الشريف يوسف روبيونسون، التي كتبها الرحالة الشهير جون لويس بيركهارت باللغة العربية الدارجة في مدينة حلب السورية التي كان يقيم فيها عام ١٨١٠م، طي النسيان إلى يومنا هذا،

حيث لم يتم ذكرها أو الإشارة إليها من أي باحث أو في أي مرجع كان؛ ولهذا، فإن ما قام به الدكتور عيد الدحيات من تحقيق لهذه المخطوطة وجعلها في متناول الباحثين والدارسين في ميدان المعرفة الإنسانية يعد عملاً غير مسبوق في هذا المجال.

وحكاية درالبحر هذه مبنية - كشكل أساسي - على رواية روبيونسون كروزو لدانيال ديفو، التي ظهرت أول طبعة منها عام ١٧١٩ في مدينة لندن. وتعد أول رواية في الأدب الإنجليزي. وقد أبان المحقق، في المقدمة، أوجه التشابه والاختلاف بين العاملين، كما قام بتوضيح الأسباب التي جعلت بيركهارت يختار روبيونسون كروزو لتكون الأساس الذي بنى عليه حكاية الشريف روبيونسون. كما شرح في الهوامش الكلمات الغريبة والإشارات الصعبة التي وردت في هذه المخطوطة.

الصحراء العربية: ثقافتها وشعرها عبر العصور

قراءة أنثربولوجية
سعد عبد الله الصويان
الشبكة العربية للأبحاث والنشر
٢٠١٠
٨١٩ صفحة



إن هذا الكتاب هو محاولة لربط الحاضر بالماضي من خلال تركيزه والتفاتة إلى المصادر الشفهية وموروثات الثقافة التقليدية. وهو بذلك يسعى إلى التركيز على أهم المصادر التي تمثل واقعنا الثقافي والاجتماعي، التي قلما تنبه لها من يدرسون التاريخ الاجتماعي والثقافي والأدبي واللغوي في الجزيرة العربية.

ولما كان البدو يشكلون غالبية سكان الجزيرة العربية، خصوصاً في الوسط والصحراء، فقد سعى الدكتور سعد العبد الله الصويان إلى التعامل في كتابه مع شعر البادية من جهة، وثقافة الصحراء في الجزيرة العربية من جهة ثانية، باعتبارهما امتداداً طبيعياً للعصر الجاهلي من حيث شعره ولغته وثقافته. فالشعر هو مرآة تعكس واقع الحياة الطبيعية والاجتماعية عموماً، ومجتمع البادية وثقافة الصحراء خصوصاً، وهذا بدوره يؤكد الترابط بين الباحث اللغوية

والأدبية والمباحث الاجتماعية والثقافية، فيتضافر الشعر الجاهلي مع الشعر النبطي ويشكلان مادة ترسم صورة متكاملة لثقافة الصحراء العربية على مر العصور.

إن هذا الكتاب هو مساهمة حقيقية لتصحيح الصورة المشوهة التي تحملها النخب العربية عن التنظيم القبلي وطبيعة الحياة البدوية... بصورة موضوعية وحيادية وعلمية بحثة تستند إلى منهجية جديدة قائمة على مستحدثات العلوم الإنسانية والاجتماعية وموروثات ثقافية تاريخية بعيدة عن السطحية وأقرب إلى الحقيقة والمنطق.

تحولات الخطاب السلفي الحركات الجهادية - حالة دراسة ١٩٩٠ - ٢٠٠٧

مروان شحادة
الشبكة العربية للأبحاث والنشر
٢٠١٠
٣٥٠ صفحة



هذا الكتاب هو دراسة جادة تُعنى بالتعريف بحركات الإسلام السياسي عموماً، وبالحركات الجهادية الجديدة خصوصاً، وإلقاء مزيد من الضوء على مجمل الأفكار والعقائد المؤسسة لخطابها، وتحاول الوقوف على مدى انتشارها ونفوذها في العالمين العربي والإسلامي، عبر رصد وتقويم مسار تحولات الخطاب السلفي الذي سعى لتغييره «تنظيم القاعدة» بشقيه الديني والسياسي من الناحية النظرية والعملية، وأثر هذا التغيير في بنية العلاقات الدولية.

لذا جاء هذا الكتاب ليحكي قصة قدرة أتباع ومؤيدي الحركات الجهادية على التصدي «للمشروع الأمريكي» الذي يهدف إلى التوسع والهيمنة والسيطرة، ويحاول الإجابة عن السؤال: هل فشلت تلك الحركات في تحقيق أهدافها القريبة والبعيدة وعلى رأسها إقامة الدولة الإسلامية «الخلافة»، والحق الهزيمة بالولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل على المدى القريب والبعيد؟ نحن اليوم، كعرب ومسلمين، بحاجة

ماسّة إلى إعادة النظر في تجديد الخطاب الإسلامي، وبلورة مفاهيم قادرة على النهوض والتجديد، آخذين بالاعتبار مجمل التطورات والتقدم الذي حصل في حقل العلوم الإنسانية التي تمكننا من التخلص من عمليات البتر والتجزؤ لمكونات التراث الإسلامي والحداثة، في سبيل ترسيخ منظومة فكرية إسلامية قوامها الحوار والاختلاف، وبناء فكر إسلامي تداولي محرر على شروط العقلانية المعاصرة، يقيها آفات العنف والجمود والتطرف الذي صبغ حياتنا الاجتماعية والسياسية، وأصبح من أبرز مكونات ثقافتنا العربية الإسلامية. والكتاب في الأساس رسالة علمية قدمت استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في العلوم السياسية من معهد بيت الحكمة في جامعة آل البيت/الأردن.

بالخط العريض

شاكر النابلسي
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
٢٠١٠
٢٣٠ صفحة



هذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة مقالات مجمعة تم تقسيمها إلى ثلاثة أبواب.

«أولاً يوميات الإرهاب» وفيه: هل للقمع الجنسي علاقة بالإرهاب؟ فلسطين بين فكى الأصولية الإسلامية واليهودية.

والباب الثاني «يحدث في العالم العربي»، وفيه: العرب.. من الدكتاتورية السياسية إلى الفاشية الدينية. الفقر وسوء التعليم علّتان عربيتان. التوطن بين الرغبة الإمبريالية والممانعة القومية. ماذا استفاد العرب من ثورة المعلومات؟ بؤس الحقيقة في العالم العربي. دور الديمقراطية في ترسيخ دعائم المجتمع المدني. نواقيس.. نواقيس.. ولا من مجيب. هل حسبتم أنكم في العصر العباسي؟ قضاة السلطان يشوون سعداً على السفود. أيتها الجماهير الحمقاء! وأما الباب الثالث فقد جاء تحت عنوان «نحن والغرب». وفيه: لماذا أصبح السلام واقعاً دولياً؟ الرسالة الأمريكية في

إخوان العراق



الإخوان المسلمون في العراق

مجموعة باحثين
مركز المسبار للدراسات والأبحاث
٢٠١٠

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات التي تتناول دراسة حركة الإخوان المسلمين على الصعيد العراقي العربي والتركمانى، وممثلها في الوقت الحاضر «الحزب الإسلامى العراقى» عربياً و«حزب العدالة» تركمانياً، بعد الاكتفاء بما ورد عن الاتحاد الإسلامى الكردستانى فى كتاب الإسلامى الكردية.

بدأ الكتاب بعرض حركة الشيخ محمد محمود الصواف بالأزهر والتي كانت سبيل حركة الإخوان المسلمين إلى العراق، حيث عاد الصواف بعد اللقاء بالشيخ حسن البنا ليبدأ بتأسيس فرع الحركة العراقى، وكيفية عمل فروع الإخوان لا تبدأ الجماعة بتشكيل حزب سياسى، إنما العمل عبر الجمعيات الخيرية، لكنها فترة وجيزة ويحاول الصواف وجماعته الحصول على إجازة لتأسيس حزب سياسى، وقد رفض هذا الطلب طوال فترة العهد الملكى (١٩٢١-١٩٥٨).

وفى العهد الجمهورى أعيد الطلب، ليرفض، بسبب الانتماء إلى جماعة عاملة فى دولة أخرى هي مصر، التي كانت على خلاف شديد مع العراق، بعدها قبل الطلب عن طريق المحاكم، ومنحت الإجازة لتأسيس الحزب الإسلامى كواجهة سياسية للإخوان المسلمين، إلا أنها فترة وجيزة ويزج بقيادة الحزب فى السجن، وذلك بسبب تعرضهم للسلطة بقوة، ودعوة الحزب لإسقاط الحكومة وإقامة حكومة تتقيد بالشريعة الإسلامىة.

كتب هذا الملف بأقلام عراقية، ومن داخل العراق فقط، مما يجعله يستطيع أن يعكس واقع الحال بصدق، فالشأن العراقى مازال يكتنفه الغموض على البعيد عن ساحته.

فى هذا الكتاب بحث على وتوت فى صيرورة الإخوان المسلمين، بعد مقدمة وافية عن الإسلام السياسى العراقى السابق، ثم حدد الظهور السياسى للجماعة بالحزب الإسلامى العراقى، ماراً على تاريخ العراق السياسى المعاصر وظروف إقامة الدولة الحديثة وطبيعة المجتمع العراقى، خاتماً بسرد مواقف وعلاقات الإخوان السياسىة.

ومن جانبه بحث قحطان أحمد الحمدانى بمادة مهمة وموثقة فى تاريخ الحزب الإسلامى العراقى، كدراسة فى الفكر والتنظيم الحزبى وتبيان المواقف التي تعرض لها الحزب فى مسيرته السرية والعلمية، وقد حدد الفترة (١٩٦٠-١٩٦٣)، وهى فترة التأسيس الحزبى، والمواجهة السياسية الحادة، باستغلال ليونة السلطة آنذاك، ذاكراً بالتفصيل الجذور التاريخية لوجود الحزب، متعرضاً لجماعة الإخوان المسلمين.

كما كان بحث خميس دهم حميد «الحزب الإسلامى... دراسة فى التنظيم والأفكار والمواقف» دراسة معمقة فى تاريخ الحزب، بداياته السرية، وعمله العلنى، ثم ما تعرض له الحزب من مواقف بعد سقوط النظام، وتراجع عدد أعضائه، حسب ما يرى الباحث، بدخول مجلس الحكم، ومن المعلوم أن وسطه السنى، بأغلبيته، لا يرى فى ذلك المجلس سوى صنعة أمريكية، وبالتالي فإن العمل السياسى تحت ظل الاحتلال هو خروج عن الثوابت التي دعا وعمل من أجلها الحزب، وجماعة الإخوان المسلمين عامة.

وفى دراسة لحواد كاظم البيضانى يظهر دور الحزب الإسلامى العراقى فى المعارضة السياسىة، منذ بداية التأسيس وعروجاً إلى ما بعد حرب الخليج الثانية، حيث فى التسعينيات، من القرن الماضى، أعلن الحزب معارضته الصريحة، ليكون قطباً من أقطاب المعارضة، لكن من دون تبنى مشروع من مشاريعها، أو طرقها فى إسقاط النظام السابق، مثلما حدث فى أبريل (نيسان) ٢٠٠٣. كذلك فى تاريخ ومسيرة الحزب الإسلامى العراقى كتب مازن لطيف حول المشهد العراقى المعاصر والحزب الإسلامى.

أما عزيز صمانجى، وهو سياسى تركمانى عراقى، فكتب عن مشاهدته، وأخذ المعلومة من أصولها، عن فرع الإخوان المسلمين التركمانى فى العراق، ألا وهو حزب العدالة، ذلك الحزب الذى يعد امتداداً لجماعة الإخوان بكركوك، حيث الكشافة السكانية التركمانية، وظهر الحزب إلى الوجود بعد ٢٠٠٣، وتحت هذا الاسم، شارحاً تفاصيل نشأة جماعة الإخوان فى كركوك منذ ١٩٤٧، مؤكداً أن تلك الجماعة امتدت إلى القوميات العراقية الثلاث: العرب والكرد والتركمان، أى من أهل السُّنة.

هذا، ويختتم الكتاب، بدراسة شايع الوقيان تحت عنوان «معنى سؤال التخلف»، يحاول فيه الكاتب شرح السؤال، والوقوف على الحدود بين التطور والتخلف، وماهى عناصر كل منهما، ومن له مقايضة ذلك وتحديده.

الدكتور زياد بن عبد الله الدريس وهو باحث متخصص فى سوسيولوجيا الثقافة ويحمل شهادة الدكتوراه من جامعة موسكو. وهو يشغل الآن منصب مندوب دائم للمملكة العربية السعودية لدى منظمة اليونسكو فى باريس منذ عام ٢٠٠٦.

حكايات قهوة كتكوت

محمود السعدنى
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠، ٢٢٢ صفحة



ولأنى حمقرى (مزيج من الحمار والعبقرى) فقد كنت أظن أن كل رجل ضاحك رجل هلاس.. ولأنى حمقرى كنت أرفع شعاراً حمقرىاً «أنا أضحك إذن أنا سعيد»، وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن العكس هو الصحيح، واكتشفت أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تفرقع على لسانه تفرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ضحكة ترتسم على شفثيه تنحدر دمعة داخل قلبه.. ولكن هناك حزن هلفوت، وهناك أيضاً حزن مقدس.. وصاحب الحزن الهلفوت يحمله على رأسه ويدور به على الناس.. التقطية على الجبين، والرعدة فى أرنبة الأنف، والدمعة على الخدين.. يالالى! وهو يدور بها على خلق الله يبيع لهم أحزانه، وهو بعد فترة يكون قد باع رصيده من الأحزان وتخفف، ويفارقه الحزن وتبقى آثاره على الوجه، إكسسواراً يرتديه الحزين الهلفوت ويستزرق..

لكن الحزن المقدس حزن عظيم، والحزن العظيم نتيجة هموم عظيمة، والهموم العظيمة لا تسكن إلا نفوساً أعظم.. والنفوس الأعظم تغلق نفسها على همها وتمضى.. وهى تظل إلى آخر لحظة فى الحياة تأكل الحزن والحزن يأكل منها، ويمضى الإنسان صاحب الحزن العظيم. ككل شئ فى الحياة. يأكل ويؤكل، ولكن مثله لا يداع له سر، وقد يمضى بسرّه إلى قبره! ولذلك يقال: ما أسهل أن تبكى وما أصعب أن تضحك.

ولكن هناك أيضاً ضحك مقدس، وهناك ضحك هلفوت.. الضاحك إذا كان حزيناً فى الأعماق صار عبقرياً، وإذا كان مجدياً من الداخل أصبح بليانثو يستحق اللطم على قفاه! ونحن أكثر الشعوب حظاً فى إنتاج المضحكين.. مصر العظيمة كان لها فى كل جيل عشرات من المضحكين. ولقد استطاع بعضهم أن يخلد ولمع بعضهم حيناً ثم فرقع كبالونة

الديمقراطية العراقية. هل ما زالت أمريكا تسعى إلى إقامة شرق أوسط جديد؟ هل أصبحت أمريكا دولة إسلامية جديدة؟ بين نابليون الفرنسى ونابليون الأمريكى. هل سيقود الغلاء إلى حرب عالمية؟ استقصاء مثير لمواقف الأغلبية المسلمة الصامتة. أرفع قبعتى تحية لهؤلاء الخنازير! سيراً على خطى بلاد الشمس إلى التقدم. وقال المفكر السورى/الفرنسى المعروف جورج طرابيشى عن هذا الكتاب: «قرأت هذا الكتاب بمتعة، بل وبتلذذ لأسباب ثلاثة:

أولاً، لجرائته وصدامه لموروث القارئ المستكين الى ما يعتبره بديهيات، لا تقبل إعادة النظر.

وثانياً، للجديد الذى يأتى به الكتاب فى العديد من المقاربات.

وثالثاً، لأسلوب الكاتب فى طرق الحديد وهو محمى، الى درجة قد لا يحتملها القارئ المدجن.

لقد قضيت بضع ساعات ممتعة مع هذا الكتاب.. ولا أكتف القول أننى فى بعض الأحيان، كنت أتمنى بينى وبين نفسى ككاتب، لو أنى أملك أسلوباً متدفقاً كأسلوب شاعر نابلسى.

مكانة السلطات الأبوية فى عصر العولمة

د. زياد بن عبد الله الدريس
عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر
٢٢٤ صفحة



يكشف الباحث فى هذه الدراسة كيف سارعت قوى العولمة إلى اختراق الحصون التربوية مستندة فى ذلك على إضعاف البعد الفلسفى للتربية وحصرها فى المنحى الاقتصادى للتعليم وتوجيه المعرفة العلمىة بحسب القوى التى تملكها.

ويقول عنه الباحث والأديب السعودى عبد المقصود خوجة:

أوقات ممتعة قضيتها فى معية هذا الكتاب، إذ لم يقتصر على السلطة الأبوية فى دائرتها العائلىة بل شمل دور مؤسسات التربية والتعليم ودور المدرس / المربي بما كان عليه وما حاق به عصر العولمة.. مع ربط كل ذلك بالهوية والثقافة والتطور الاجتماعى والاقتصادى.

كما قالت عنه صحيفة الاقتصادية: يناقش الكتاب تأثيرات العولمة على الهوية من منظور كوني عام، ثم تضيق دائرة المنظور لتتناول تأثيرات العولمة على الهوية العربية والإسلامية.

تلك هى الطبعة الثانية من كتاب

انهيار العولمة وإعادة اختراع العالم

جون رالستون
ترجمة: محمد الخولى
الدار المصرية اللبنانية
٢٠١٠



«انهيار العولمة وإعادة اختراع العالم» هو الكتاب الفائز بجائزة خادم الحرمين الشريفين عبد الله بن عبد العزيز آل سعود العالمية للترجمة، في دورتها الثالثة ١٤٣٠ هجرية - ٢٠٠٩ ميلادية، في مجال «العلوم الإنسانية من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية».

يهتم جون والستون سول في هذا الكتاب بتحليل تاريخ الحضارة، وهيكل السلطة في الغرب، وما يتفرع من هذه الظواهر من قضايا ثقافية ومعرفية خصوصاً فيما يتعلق بما لحق هذه الأوضاع من فساد، تحولت به النظم السياسية إلى خدمة جماعات المصالح واحتكارات القوة على حساب الصالح العام لأوسع قطاعات المواطنين. يذكر أن المؤلف حذر من تكريس النشاط المالى على حساب الإنتاج ومن اعتبار النقود أصولاً أساسية، بدلاً من اعتبارها وسائل للتعامل، وأداة للتبادل، وهو ما أفضى إلى الأزمة المالية التي أصابت دوائر وول ستريت في أمريكا، وما برحت تداعياتها تتردد في أركان شتى من عالمنا.

كما أن المؤلف نبه أيضاً إلى خطورة تحويل العولمة من ظاهرة في التطور الاقتصادي والإعلامي إلى ما يشبه الأيديولوجية أو العقيدة الدينية: حيث المبالغة في الانفلات من النظم والضوابط، بدعوى تحرير التجارة والاقتصاد، فضلاً عن المغالاة في دور المديرين ورؤساء مجالس الإدارات على حساب دور الدولة بمؤسساتها وقوانينها التي تكفل في التحليل الأخير حماية النشاط الاقتصادي للمجتمع من أطماع الأفراد، وتطلعهم إلى الامتيازات المادية والمعنوية على حساب الصالح العام.

ومن أبرز أعماله غير هذا الكتاب الذي أصدرته الدار المصرية اللبنانية: الحضارة غير الواعية، أبناء فولتير غير الشرعيين، معادلة التوازن، كندا عند نهاية القرن العشرين، ثلاثية حقل (رواية)، الطيور الجوارح (رواية)، وهو مولود في كندا من أب كندى وأم بريطانية وقد حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة لندن.

الكاتب والمترجم الفائز محمد

ويبرسى زكريا كوكس مهندس الحدود الحالية، وصاحب القرار في مؤتمر العقيرم. الميجر كلايف كيرك باتريك ديلي: المعتمد البريطاني في البحرين من عام ١٩٢١ حتى ١٩٦٢م مع سجله نفتح ملف العشرينات السياسى ونقرأ عن «حكم ديلي».

الأوباش

خيرى شلبى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠، صفحة



في روايته الجميلة هذه، والتي صدرت للمرة الأولى عام ١٩٧٨، يكشف الكاتب الكبير خيرى شلبى صفحة من أسرار ريف الدلتا في بدايات الخمسينيات. حيث ينسج عالماً واسع الثراء عن «طلعت» الذي يبحث عن أبيه «القاضى» الذى زار بلدتهم لأيام تزوج فيها الأم «توحيد»، ثم اختفى ولم يظهر أبداً. وتتبع الشرطة والأهالى لحقبة «الحاج سليم» مقاول الأنصار التى اختفت من بيت عمدة القرية بما تحتويه من «كنز» هائل، أغلب الظن أنه من الحشيش، بعد مقتل المؤذن، الذى كان متوقفاً أن يصبح الشاهد الوحيد على السارق، فى الليلة نفسها. وبلغته التى تعرف هؤلاء الفلاحين، وتنتمى إليهم، وتقبض على حقيقتهم، يحكى لنا خيرى شلبى عما طال الفلاحين من قهر السلطة، ومكرها، وفساد الأفندية الذين يعملون من أجلها. فى «الأوباش» يأسر خيرى شلبى كلا من أبطاله وقرائه بحكايات أخاذة، وتحقيقات رسمية، وشكاوى كيدية، ونماذج لا تنتهى. فيصحبنا جميعاً إلى عالم ساحر نود لو بقينا فيه رغم ما فيه من آلام.

خيرى شلبى واحد من أهم كتاب الرواية فى العالم العربى. حائز على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ٢٠٠٥. له أكثر من سبعين كتاباً ما بين الرواية والقصة والمسرحية والدراسة، من أشهرها: «وكالة عطية»، و«صالح هيصبة»، وثلاثية «الأمالى»، و«زهرة الخشخاش»، و«نصف الأدمغة»، و«صحراء الممالك». وقد ترجمت أعمال خيرى شلبى إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والصينية والكورية والأردية.

العالم، وخصوصية فى تصويره وتصويره، وهذا منطق الرؤية الجديدة لتأويل النصوص الأدبية. فالنص وعى ووعاء، والعلاقة بينهما كالعلاقة بين وجهى العملة، لا وجود لأحدهما بمعزل عن الآخر.

إن حضور العقل فى مدونة المتنبي الشعرية ليس حضوراً عارضاً، إنه حضور جوهري يمكن من خلاله اكتشاف رؤية المتنبي للعالم وتصويره له، وإدراك لعبقريته فى التصور والتصوير، واكتشاف قوة التلازم بين الفكر واللغة، والرؤية والأداة.

المؤلف هو: حاتم بن عبد الله الزهرانى.

مواليد ١٩٨٢ م، مكة المكرمة. معيد فى قسم الآداب، بكلية اللغة العربية، فى جامعة أم القرى، ابتداء من ٢٠٠٦.

فاز بعدة جوائز شعرية داخل المملكة وخارجها.

شارك فى عدد من المهرجانات الفنية.

صدر له عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر أيضاً ديوان شعرى بعنوان «البياء يائى».

سيزاباد ورجال الدولة البهية

قصة السيطرة البريطانية على الخليج العربى

مى محمد الخليفة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الثانية ٢٠١٠



يحكى الكتاب تاريخ السيطرة البريطانية على الخليج العربى من خلال رصده لأدوار من يسمون برجال الدولة البهية

سيزاباد أى البقعة الخضراء: تسمية فارسى أطلقها المقيم البريطانى فيلكس جونز على دار المقيمة فى بوشهر ومن تلك الدار كانت تدار أحداث الخليج بساحليه العربى والفارسى

رجال الدولة البهية هم لويس بيلي: المقيم البريطانى فى بوشهر، من عام ١٨٦٢ وحتى عام ١٨٧٣م. له بحوث ميدانية ودراسات مهمة عن مدن سواحل الخليج تنشر فى هذا الكتاب لأول مرة.

والورد كرزون نائب الملك فى الهند، ومنظر السياسة البريطانية القائل: «إن بلاد الشرق الأوسط ما هى إلا قطع على لوحة الشطرنج التى ستحدد اللعبة عليها من الذى سيسيطر على العالم».

منتفخة بالهواء، بعضهم أصيل وبعضهم فالتصو، بعضهم مثل الذهب البندقى وبعضهم مثل الذهب القشرة.

حياة فى الإدارة

غازى القصيبى
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
٣٦٠ صفحة

الطبعة الرابعة عشرة ٢٠١٠



يقول الدكتور محمد جابر الأنصارى المفكر البحريني عن هذا الكتاب: «أنها مادة أساسية نادرة.... إضاءات دقيقة حياة لا أعتقد أن المؤرخين سيجدون فيها فى أى مصدر آخر فى التاريخ السعودى المعاصر». أما الصحفى السعودى محمد رضا نصر الله فيقول عنه: «يقتحم قلاع البيروقراطية ومنازلها التقليدية بكثير من الحيوية والشجاعة». وختاماً فإن الأستاذ فؤاد مطر الكاتب اللبنانى المعروف يقول عنه: «يتحدث عن الإنجازات بطريقة توغر صدور عشرات الذين تسلموا مناصب وزارية....»

شجاعة العقل

دراسة فى الفكر الشعرى والنسيج اللغوى عند المتنبي

حاتم بن عبد الله الزهرانى

الطبعة الأولى

٢٠١٠

٣٦٨ صفحة



يقول الأستاذ الدكتور صالح بن سعيد الزهرانى عميد كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة عن هذا الكتاب:

شجاعة العقل، مقاربة لنص فارس الشعر العربى أبى الطيب المتنبي الذى جسد فروسيته اللغوية بالقرطاس والقلم أكثر مما جسدها بالخيال والليل، وبأكورة أعمال باحث شجاع، لديه القدرة على الإضافة النوعية للمعرفة النقدية المعاصرة. تتأسس الدراسة على فكرة مركزية يتجلى فيها النص الشعرى موقفاً من

كتاب
الزاوية

عندما يتحدث أردوجان

(٦)

أنا أعلم أن كل شعوب الأرض تدين هذا الظلم الواضح، إلا أن الإدانات لا تكفي. يجب الوصول إلى النتيجة. يجب على كل شعوب العالم المطالبة بالعدالة. وأن يأتي اليوم الذي تسود فيه العدالة عوضاً عن القوة، نحن نريد هذا.

تركيا ستستخدم كافة الإمكانيات التي يتيحها القانون الدولي وستتحرك مع المجتمع الدولي في هذا المسار. أود أن ألفت انتباه الإنسانية جمعاء إلى النقطة التالية.

إن إسرائيل بسياساتها التي تريق الدماء لن تستطيع أن تبرر هذا العمل غير المشروع الذي قامت به. هذه جريمة، ولن تستطيع إسرائيل أن تتظف يدها من الدماء بأي مسوغ مهما كان.

إن المشكلة الناجمة عن هذا العدوان الدامي ليست مشكلة تخص البلدين فحسب بل تخص العالم كله. إننا نؤمن بأن أي دولة أو مؤسسة دولية تولى أهمية للقيم الإنسانية لا يمكنها أن تقف متفرجة على جريمة بهذه الأبعاد.

بعد هذه المرحلة يجب أن يعرف كل من يتغاضى عن هجمات إسرائيل الدامية أو يتعاضى عنها أنه شريك في الجريمة.

ماتفعلة اسرئيل بغزة ليس مكافحة للإرهاب بل هو يعتبر مجزرة في حق أهل مدينة بأكملها.

إنكم تقصفون أولئك الناس بالقنابل، وتجربون فيهم القنابل الفوسفورية،

وتقصفون المستشفيات والمساجد وتعتدون على المدارس وترمون القنابل في حدائق الأطفال بالإضافة إلى ذلك تهاجمون مكتب الأمم المتحدة!!!

ولا تكتفون بهذا القدر من «اللاقانونية» بل تحرمون أولئك الناس من سد كافة احتياجاتهم.

فضلاً عن أنكم تطبقون وحشيتكم على متطوعي المساعدات الخيرية الذين يحملون لأولئك الناس الأدوية والمواد الغذائية ومواد البناء.

ربما يغمض الجميع عيونهم إزاء هذه «اللاقانونية» وربما يقدم دعمه أيضاً بشكل خفي ولكنني أتكلم بصراحة وأؤكد أنه يجب على إسرائيل أن لا تخطئ في خلط تركيا بدول أخرى حيث إن ثمن هذا الخطأ سيكون باهظاً.

أنيس النقاش: أسرار خلف الأستار
صقر أبو فخر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
٢٠١٠ - (طبعة ثانية منقحة)
٢٢٤ صفحة



اسمه في حركة فتح «مازن» واسمه في عملية فيينا «خالد» أما اسمه الحقيقي فهو أنيس النقاش قال عنه كارلوس شريكه في عملية فيينا: إنه من الكوادر السياسية والعسكرية التي لا تضاهى... كان بطلاً حقيقياً، لم يتسم أنيس النقاش أي موقع أمني في حركة فتح لكنه ساهم في كثير من العمليات الخاصة. هذا الكتاب يكشف عن كثير من الأسرار التي عرفها أنيس النقاش، أو التي شارك في صنعها، ويفضح محاولات بعض أجهزة الاستخبارات العربية اختراق أمن المقاومة الفلسطينية في سبعينيات القرن العشرين، ويعيد رواية تفصيلات التحاقه المبكر بحركة «فتح» وصلته بياسر عرفات وأبو جهاد، وقصة «الكتيبة الطلابية» وحرس الثورة في إيران ودوره المباشر في تأسيس هاتين الجماعتين. ويكشف أنيس النقاش بعض خفايا الحرب الأهلية في لبنان ودوره في عدد من العمليات الخاصة التي خططها الدكتور وديع حداد مثل محاولة اختطاف مهدي التاجر، ومحاولة اغتيال دين براون، وعملية الاقتحام المثيرة لمقر مؤتمر الأوبك في فيينا سنة ١٩٧٥ التي قادها كارلوس وأنيس النقاش وآخرون، فضلاً عن كشف أسرار جمة عن المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني، وعن اختطاف الإمام السيد موسى الصدر، واغتيال كمال خير بك ومحمد صالح الحسيني، وعلاقاته بمنظمة «بدر ماينهوف» وبمؤسسى حرس الثورة في إيران. ثم يشرح، بالتفصيل، دوره في محاولة اغتيال شهيد بختيار في باريس وتجربة السجن الفرنسي.

هذا الكتاب سجل شامل لوقائع حارة صاخبة احدثت في بيروت إبان المرحلة العاصفة التي وسمت المنطقة العربية بميسمها الثوري، أي مرحلة ما بعد هزيمة ١٩٦٧. وهو، في الوقت نفسه، رصد للعوامل الاجتماعية والثقافية والسياسية التي جعلت جيلاً بيروتياً بكامله تقريباً ينخرط في النضال الفلسطيني بعدما انخرط في تيار القومية العربية بنسخته الناصرية.

هذا الكتاب لا يروي سيرة شخص ذي خبرة رفيعة في عالم الأمن والعمليات الخاصة والسياسات الدولية فحسب، بل سيرة مدينة شهدت أحداثاً مثيرة في زمن التحولات الكبرى.

الخولى، حسب البيان الذي أصدرته الدار المصرية اللبنانية هو كاتب صحفي خبير في القضايا العربية والشئون الدولية وعمل في منظمة الأمم المتحدة مترجماً دولياً، ثم كبيراً للمترجمين بمراكز الأمم المتحدة في كل من بيروت وبغداد وأديس أبابا ثم في الأمانة العامة للأمم المتحدة في نيويورك وعمل مديراً للإعلام في رئاسة مجلس الوزراء المصري، وشغل مناصب ومواقع إعلامية متعددة:

ومن أهم ترجماته: الحملة الأمريكية (دار الهلال - القاهرة)، القاهرة في الحرب العالمية الثانية (مؤسسة صوت العرب - القاهرة)، الإسلام والمسلمون في أمريكا (المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة)، جدول أعمال القرن ٢١ مؤسسة البيان - دبي)، أصوات العصر (دار البيان - دبي)، الشرق في الغرب (المنظمة العربية للترجمة - بيروت)، البحث عن ديمقراطية عربية - بالاشتراك (مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت)، انهيار العولمة وإعادة اختراع العالم (الدار المصرية اللبنانية - القاهرة).

الطنطورية

رضوى عاشور

القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠، ٤٦٠ صفحة

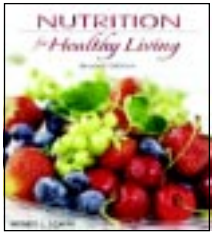


في روايتها الصادرة حديثاً «الطنطورية» (دار الشروق ٢٠١٠)، تتبّع الكاتبة الكبيرة الدكتورة رضوى عاشور مسيرة عائلة فلسطينية أخرجها الاحتلال من بلدها الأصلي «الطنطورة»، ليتلقفها الموت ومخيمات اللاجئين في بيروت والأردن، وذلك في مسيرة تتوازي مع التاريخ الفلسطيني والعربي الحديث. وتقدم الرواية مزجاً بين التاريخ وفن الرواية تتناول فيه إلى جوار سير الشهداء الفلسطينيين، وتاريخ المذابح الإسرائيلية، ذلك التاريخ الإنساني لعائلة فلسطينية كلما أفقدها الاحتلال فرداً في مذابحه المتتالية منذ ١٩٤٨ إلى بدايات القرن الحالي، أبدلته بجيل جديد. في أحدث روايات رضوى عاشور بقدر ما يكون القارئ مأخوذاً بالمحبة تجاه أبطالها بحكاياتهم اليومية وأغانيتهم الشعبية ومصائرهم المتدافعة، بقدر ما سيبقى في انتظار مفاجأة غياب أي منهم تحت سنانك جيش الاحتلال.

المتخصصين في قضايا الموارد المائية فضلا عن الطلاب الدارسين لإدارة الموارد المائية والتنمية المستدامة الذين سيجدون هذا الكتاب ذا أهمية بالغة بالنسبة لهم. المؤلف دوجلاس فيشر هو أستاذ للقانون في جامعة كوينزلاند للتكنولوجيا Queensland University of Technology بأستراليا.

Nutrition for Healthy Living

التغذية من أجل حياة صحية
Wendy Schiff
McGraw-Hill 2010 509pp
\$91.13

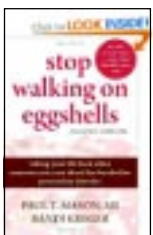


التغذية من أجل حياة صحية كتاب يقدم منهجا مبتكرا من أجل الاستمتاع بمباهج الحياة من خلال صحة ممتازة ناتجة من غذاء جيد يتم انتقاؤه بعناية لتحقيق مبدأ الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء. المؤلف ويندى شيف هو أستاذ مشارك في علم التغذية الطبية في كلية المهن الطبية بجامعة ولاية أوهايو وحاصل على شهادة الدكتوراة في التغذية من جامعة ولاية أيوا.

Stop Walking on Eggshells: Taking Your Life Back When Someone You Care About has Borderline Personality Disorder.

توقف عن المشي على قشر البيض: عد بحياتك إلى الوراء عندما كان شخص ما يهملك على حافة اضطراب في الشخصية.

Paul T.Mason ٢٠١٠ 260pp \$12.89
Randi Kreger
New Habinger
Pubns 2010



هل تشعر بأن الآخرين يتلاعبون بك أو يكذبون عليك أو يتحكمون فيك؟ هل أنت موضع عنف مكثف وغير منطقي؟

الجماعي المتوقع حين توضع هذه التقنيات العالية في التسلح في أيدي غير مسؤولة.

The Law and Governance of Water Resources: The Challenge of Sustainability (New Horizons in Environmental and Energy Law)

قانون وإدارة الموارد المائية: تحدى الاستدامة (آفاق جديدة في قانون البيئة والطاقة)

Douglas Fisher
Edward Elgar Publishing 2010 385pp \$165.00



يفتح هذا الكتاب آفاقا مستقبلية تركز على القانون والفقه القانوني في سياق سياسى أوسع للموارد المائية ويحلل مفهوم الاستدامة. إن تحقيق الاستخدام المستدام وتطوير الموارد المائية بشكل تحديا رهيبا للمجتمعات العالمية والمحلية على حد سواء. وهو يتطلب التزامات من جميع الفئات داخل المجتمعات الدولية والوطنية والمحلية بما لهذه الفئات من وجهات نظر قد تكون متضاربة أحيانا وبدون اتخاذ مجموعة من الترتيبات القانونية المتناسكة التي تهدف إلى ضمان الإدارة الفعالة للموارد المائية واستخدامها المستدام وكذلك التنمية المستدامة فلن يكون من المرجح تحقيق أى نوع من الفوائد. يبحث دوجلاس فيشر Douglas Fisher في الكيفية التي تطورت بها الترتيبات القانونية لإدارة الموارد المائية عبر القارات على مدى مئات السنين وهو يستكشف مدى أهميتها بالنسبة للمجتمع المعاصر، وكذلك يبحث الكيفية التي تمكن القواعد القانونية والدولية والوطنية للنظم الحالية من الاستجابة بشكل فعال لتنظيم التعامل مع هذه الموارد بشكل عادل ومنطقي ليقضى على أسباب الخلاف والنقطة بالغة الأهمية في هذا الصدد هي الكيفية التي يتم بها تنظيم الحقوق والواجبات القانونية لتحقيق الاستدامة في المستقبل. إن هذا التحليل النصي واللغوي للمذاهب والنصوص القانونية المتعلقة بموارد المياه يعد كنزا لا يقدر بثمن لمحلى سياسات الموارد المائية والدولية والوطنية وكذلك مديري الموارد المائية والمحامين

قارئه- لماذا تكون تنبؤات الأرصاد الجوية دقيقة وصادقة أحيانا وبعيدة تماما عن الواقع في أحيان أخرى، لماذا تتسبب شهادة أحد الشهود في الزج بأحد الأبرياء في السجن. يقدم الكتاب نصائح قيمة مثلا للكيفية التي تتذكر بها أين أخفيت أشياءك الثمينة، ويقدم شرحا لفداحة الأخطاء المركبة كما أنه يفسر السبب الذي يجعل الرجال يرتكبون أخطاء قد لا تقع فيها النساء. إنه كتاب يفتح عيون القارئ على الأسباب الكامنة وراء أخطائه وبالتالي سيمكنه هذا من تجنبها.

PEDDLING PERIL: HOW THE SECRET NUCLEAR TRADE ARMs AMERICA's ENEMIES

خطر للبيع: كيف تسلح التجارة النووية السرية أعداء أمريكا
David Albright
Free Press 2010 304pp
\$17.82



يقدم ألبرايت Albright وهو مؤسس ورئيس معهد العلوم والأمن الدولي عرضا ثميناً وغير مسبوق للتجارة غير المشروعة في التكنولوجيا النووية والتهديدات التي تشكلها على الأمن الأمريكي. في رحلته عبر التفاصيل والتي سبقه في خوضها من قبل جوردون كوريرا Gordon Corraera في كتابه شراء القنابل لعام ٢٠٠٦ يقدم ألبرايت الكيفية التفصيلية التي من خلالها كان التقارب بين المال السهل والتصدير الضعيف يشكل ضابطا يتحكم في بيع المعدات عالية التقنية التي تستخدم في التسلح النووي وأيضا يقدم الكيفية التي من خلالها تحول هذا الوضع إلى عاصفة استغللتها تماما كوريا الشمالية، وكذلك مؤسس البرنامج النووي الباكستاني عبد القدير خان الذي أنشأ شبكة من المهربين لبيع إمكانات الأسلحة النووية إلى إيران وليبيا وكوريا الشمالية. في هذا الكتاب يدرس ألبرايت الجهود التي تبذلها القاعدة من أجل الحصول على أسلحة نووية ولعبة القط والفار الجارية بين إيران والوكالة الدولية للطاقة الذرية حول طموح إيران النووي. بينما يعترف المؤلف بصعوبة اكتشاف ووقف الانتشار النووي فإنه يحذر من عواقب الهلاك

Why WE Make Mistakes: How We Look Without Seeing Forget Things in Seconds And Are All Pretty Sure We Are Way Above Average.

لماذا نرتكب الأخطاء: كيف نبدو حين نفتقد الرؤية وفي ثوان ننسى الأشياء وفوق ذلك نمتلك يقينا جميلا بأننا أناس فوق العادة.

Joseph T.Hallian
Broadway Books 2010 283pp
\$14.00



كثير منا ينسى كلمات السر «Passwords» الخاصة به، ويدفع الكثير للذهاب الى الصالات الرياضية بحثا عن جسد «قد لا يصل إليه»، وقد نعتقد بفوزنا بمزيد من السعادة إذا كانت معيشتنا في كاليفورنيا «وهذا لن يحدث» وقد نعتقد بضرورة توصيلنا للإجابات الصحيحة فور دخولنا أى اختبار «ولا يشترط ذلك»، لماذا نقع في الأخطاء؟ وهل نستطيع أن نؤدى بشكل أفضل ولو قليلا. إن الكمال للمخالف وحده ونحن البشر لدينا نقائصنا فقد تخدعنا عيوننا، وتغير لدينا القصص كلما أعدنا الحكى، ومعظمنا لديه ثقة متعاطمة في أنه فوق العادة. في سياق محاولة الكشف عن أسباب ارتكابنا للأخطاء رسم الصحفي جوزيف هالينان Joseph T.Hallinan الخطوط الرئيسية التي نبدأ من خلالها اقتحام علم الأخطاء البشرية الذي يتناول الكيفية التي نفكر بها ونتذكر وننسى وكيف يتيح ذلك لنا متابعة أخطائنا بشكل متكامل وخاصة الأخطاء صعبة المقاومة. في سعيه لفهم عيوبنا دلف هالينان إلى بهو واسع ضم بين جنباته علم النفس وعلم الأعصاب والاقتصاد وتوغل إلى علم الطيران وسلوك المستهلك والجغرافيا وكرة القدم واختيار الأسهم وفضلا عن ذلك فقد اكتشف هالينان أن بعض الصفات التي تجعلنا أكثر كفاءة هي نفسها تجعلنا في أوقات أخرى نقع في الأخطاء. لقد تعودنا على الحركة السريعة عبر العالم، إننا ندرك كافة النماذج ونعترف بها ولكن ذلك يتم بشكل فوقى بلا اقتحام للتفاصيل وهذا يفسر السبب الذي يجعل أطفالا في الثالثة عشرة من العمر يكتشفون أخطاء قد فاتهم على علماء ناسا NASA. إن كتاب «لماذا نرتكب الأخطاء» مدعم بقصص من الحياة الواقعية - تنعش ذهن

مؤسسات ومراكز أبحاث في دول عدة إحصاءات عن مؤشرات الفساد.

وهذه المؤشرات تتراوح بين قبول الرشوة لدى الموظفين الحكوميين وطلب العمولات غير الشرعية لمنح عقود للشركات الأجنبية والاقتلاسات وإهدار الأموال العامة وتعتبر هذه المنظمة الفساد والاقتلاسات أكبر عقبة أمام التنمية الاجتماعية والاقتصادية كما أصدر البنك الدولي بيانا يعرف فيه الفساد بأنه كالسرطان الذي لا تتمتع أي دولة بمناعة ضده سواء كانت غنية أم فقيرة. يعد كتاب عصابات طارحين السؤال قراءة شيقة في هذا الموضوع ويعالج مؤلفاه عالما الاقتصاد والمفكران فيشمان Fishman وميجل Miguel بعض قضايا التنمية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية طارحين السؤال التالي:

بعد عقود من الاستقلال والمليارات من المساعدات الأجنبية ما السبب الذي يجعل العديد من الدول النامية ما تزال قابضة في الفقر إلى الآن؟ يرجع المؤلفان السبب في هذا الوضع إلى عامل واحد هو الفساد وبالنظر إلى نماذج محددة يدرس فيشمان وميجل الأساليب والدوافع المختلفة للفساد وكيف يمكن مواجهتها وماذا تعني هذه الدوافع وفقا لطبيعة البشر ومصائر الأمم.

يوجز المؤلفان أسباب تفشي ظاهرة الفقر في الدول النامية في كبر حجم الأسرة والتضخم وسوء توزيع الدخل والثروات بأسلوب يزيد الأغنياء غنى والفقراء فقرا والنزاعات الداخلية والخارجية وتدنى المستوى التعليمي والبطالة والتوزيع غير العادل للثروات الوطنية حيث أصبح العالم «جزيرة من الأغنياء تحيط بها بحار من الفقراء» وفقا لقول رئيس جنوب أفريقي في أحد المؤتمرات وتشابه ظروف الفقر وعلاقته بالفساد في الدول النامية حيث ينشأ الفساد من خلال بيروقراطيات تتنامى بالتوازي مع طبيعة أنظمة الحكم منها البيروقراطية الملكية وبيروقراطية الحزب وبيروقراطية العائلة أو العشيرة ويؤدي الاستئثار بالحكم إلى حالة قصوى من الفقر الاجتماعي واستحالة وصول الدعم للفقراء. يرى المؤلفان أن الشواهد المدهشة للفساد كثيرة وهي تبدأ من المخالفات المرورية لتنتهي عند أبشع الجرائم إساءة في حق المجتمع. إن الفقر والفساد هما وجهان لعملة واحدة وبالرغم من ذلك يتوافر لدى المؤلفين أملا في الإصلاح فإن وجهة نظرهما أن الفقر ليس قضية مستعصية وأن الفساد بالإمكان القضاء عليه.

FDI in the Arab countries: Foreign Direct Investment Development Policies in the Arab Countries
سياسات تنمية الاستثمارات الأجنبية المباشرة في الدول العربية
Hussein Alasrag
VDM Verlag
Dr.Muller2010 104pp \$ 67.00



على الرغم من اتخاذ العديد من الإصلاحات في الدول العربية لجذب الاستثمارات الأجنبية المباشرة فإن هذه الدول تعتبر ضعيفة في هذا الشأن إذا ما قورنت بدول نامية أخرى مثل المكسيك والبرازيل وهونج كونج وسنغافورة حيث تجتذب هذه الدول نصيب الأسد من الاستثمارات الأمريكية على سبيل المثال في حين تحصل الدول العربية على نسبة ضئيلة من هذه الاستثمارات، علاوة على ذلك فقد كانت تدفقات الاستثمار الأجنبي في الدول العربية في الفترة بين عامي ١٩٩٢-٢٠٠٣ أصغر بكثير من هذه الاستثمارات في الصين في عام ٢٠٠٣ فقط. إن الهدف الأساسي من هذا الكتاب هو استعراض وتحليل الدوافع التي تحرك آلية تدفق الاستثمارات الأجنبية إلى الدول العربية.

Economic Gangsters: Corruption, Violence, and the Poverty of Nations.

عصابات اقتصادية: فساد، عنف، وفقر للدول

Raymond Fishman ٢٠٠٣ Edward Miquel
Princeton University Press
2010 256pp \$11.53



تحتفل الأمم المتحدة سنويا باليوم العالمي لمكافحة الفساد وتجري «منظمة الشفافية الدولية» التي تأسست عام ١٩٩٣ بالتعاون مع

الخالي من الربا. يعتبر يحيى عبد الرحمن مؤلف هذا الكتاب هو الأب الروحي للنظام المصرفي الخالي من الربا في أمريكا حيث مارس العمل المصرفي في أمريكا لأكثر من أربعين عاما وهو عالم وإمام للمساجد منذ عام ١٩٦٨ في أمريكا. بدأ عمله الشاق مع شركة (LARIBA) لتمويل في باسادينا بكاليفورنيا عام ١٩٨٧ ويعد هذا الكتاب هو الأول على الإطلاق في هذا المجال الذي يتتبع الأصول التي تحرم تأجير المال بسعر يطلق عليه سعر الفائدة وما يستتبع ذلك من الإفراط في الانغماس في الديون.

يستعرض الكتاب بتفصيل شامل الأسس اللاهوتية التي تحرم الفائدة في الكتاب المقدس اليهودي والكتاب المقدس المسيحي وفي القرآن الكريم. يناقش المؤلف بعد ذلك مسألة الأموال والكيفية التي نشأت بها النقود الورقية ودور مجلس الاحتياطي الفيدرالي والنظام المصرفي في الولايات المتحدة. يناقش الكتاب لأول مرة على الإطلاق جانبها هاما من النظام المصرفي الإسلامي الخالي من الربا وهو كيفية استخدام مقايضة تمويل للسلع الأساسية ووضع علامات على المواد التي يتم تمويلها للسوق وذلك من أجل تجنب المشاركة في «الفقاعات» الاقتصادية. يناقش المؤلف كيفية تحكم ذلك في سير العمل والكيفية التي يؤثر بها هذا الوضع في سلوك المستهلك وكيف يؤدي ذلك إلى تغيير دور كل من المصرفي والممول. يغطي الكتاب نموذجا جديدا ورائدا يقوم على قانون «الشريعة» وكيف يتم تطبيقها في كل معاملة من المشروعات المشتركة وإدارة المحافظ الاستثمارية لتمويل القروض العقارية والشخصية. يبين الكتاب كيف يمكن إدماج «الشريعة» في نظام التمويل والنظام المصرفي الأمريكي. يشير الكتاب إلى النظام المصرفي ونظام التمويل الإسلامي الخالي من الربا كطريقتين لتأكيد المسؤولية الاجتماعية في الاستثمار. إن كتاب «فن المعاملات المصرفية والمالية الإسلامية» يشتمل أيضا على مناقشة نشأة ثقافة التعاملات البنكية والمالية الخالية من الربا في الوقت الراهن، تلك التعاملات التي تقوم في الأساس على الروح الحقيقية للديانتين اليهودية والمسيحية والدين الإسلامي وهي فعالة للغاية إذا ما قورنت بنماذج القرن العشرين التي استخدمت الهندسة المالية وأساليب الهيكلية للتحويلات على القانون والشريعة. يتضمن الكتاب أيضا دراسات حالة قائمة على الخبرة الفعلية للمؤلف وتحليل مفصلة لنتائج متميزة تحققت من خلال تطبيق هذا النوع الجديد من الخدمات المصرفية في التمويل.

هل تشعر وكأنك تمشي على قشر البيض من أجل تجنب المواجهة القادمة؟ لو كانت الإجابات عن كل الأسئلة السابقة «نعم» فأنت على خط حدود الدخول في شخصية مضطربة إن كتاب «توقف عن المشي على قشر البيض» قد ساعد ما يقرب من نصف مليون شخص يعانون من اضطرابات في الشخصية عن طريق تعاون الأصدقاء والأهل معهم بمجرد فهمهم لهذا الاضطراب المدمر وذلك من خلال رسم الحدود التي تمكن من يحيونهم من تجنب السلوكيات المدمرة. يتضمن هذا الكتاب أحدث الأبحاث حول اضطرابات الشخصية كما يقدم منهجا لمهارات التواصل والتعامل مع الأشخاص الذين يعانون من هذه الاضطرابات حتى يتسنى مساعدتهم مع الرأفة بحالهم ويقدم الكتاب خطوات مبدئية للعلاج:

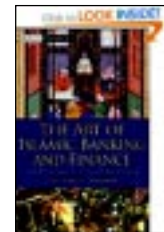
- اسحب نفسك خارج دائرة الفوضى.
- دافع عن نفسك وتأكد من احتياجاتك.
- انزع فتيل الحرج والصراعات.
- احم نفسك والآخرين من السلوك العنيف.

تساعد هذه الطبعة الحديثة والمنقحة من هذا الكتاب الأصدقاء وأفراد الأسرة على التعامل مع ذويهم ممن يعانون من اضطرابات الشخصية من خلال فهم حالتهم تماما والتكيف معها وهذه خطوة هامة على طريق العلاج.

The Art of Islamic Banking and Finance: Tools and Techniques For Community-Based Banking.

فن المعاملات المصرفية والمالية الإسلامية: أدوات وتقنيات المعاملات البنكية على مستوى المجتمع.

Yahia Abdul-Rahman
Wiley 2010 432pp \$44.10



بنظرة تفصيلية إلى هذا المجال سريع التنامي من النظام المصرفي والمالي الإسلامي نجد أن هذا النظام الإسلامي في الخدمات المصرفية والعمليات المالية قد بدأ الأخذ به ضمن اتجاه حديث في الولايات المتحدة نحو إدراجه ضمن التقنيات المصرفية والاستثمارية اليومية وذلك في ظل ما تحاول الولايات المتحدة إقراره من أنظمة مصرفية تتوافق مع كافة المعتقدات الدينية. يطلق على هذا النظام Riba- Free RF أي النظام

كتب فرنسية

Gaza

Le Livre noir

غزة

الكتاب الأسود
مراسلون بلا حدود
لاديكوفيرت: ٢٠٠٩/٩/١٧
١٧ يورو - ٢٠٨ صفحة



جمع مراسلون بلا حدود هنا هذه النصوص لمنحها تماسكا إجماليا: التقارير (الكاملة أو مجرد مقتطفات) والوثائق التي نشرتها المنظمات غير الحكومية الدولية لحقوق الإنسان (منظمة العفو الدولية، الفيدرالية الدولية، هيومن رايتس ووتش، أطباء بلا حدود، مراسلون بلا حدود)، وتلك التي نشرتها المنظمات الفلسطينية (اللجنة المستقلة لحقوق الإنسان، المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان) إلى جانب تقارير المنظمات الإسرائيلية (بتسيلم، إعلام، قيشف، أطباء من أجل حقوق الإنسان)، إضافة إلى مصادر أخرى (شهادات من الجنود الإسرائيليين، الأونروا... إلخ). هو كتاب ضروري لفهم أفضل للواقع الذي عانى منه سكان قطاع غزة خلال أسابيع الحرب الأخيرة على غزة، كما أنه يتيح فرصة تقديم المسؤولين عن الجرائم التي ارتكبت في غزة للمحاكمة.

8. Eat the Document

كل الوثيقة

دانا سبيتوتا

أكت سود: ٢٠١٠/٢/٣

ترجمه من الإنجليزية (الولايات المتحدة):

إلودي لوبلاه

٨,٢٢ يورو - ٣٦٥ صفحة

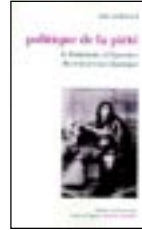


في وقت مبكر من سبعينيات القرن الماضي، اضطرت زوجان من الشباب الناشطين في النضال ضد الحرب في فيتنام للفرار، والحياة بهويات جديدة ومنفصلة إلى الأبد. بعد حوالي ثلاثين عاما تقريبا، تواجه ماري التي تعيش في الضواحي مع ابن في الخامسة عشرة من

Politique de la piété

Le féminisme à l'épreuve du
renouveau islamique

سياسة التقوى
الحركة النسوية في مواجهة الإحياء
الإسلامي
صبا محمود
لاديكوفيرت: ٢٠٠٩/١٠/٢٢
٢٦ يورو - ٣١٢ صفحة



منذ السبعينيات، والمجتمع المصري يشهد نهضة إسلامية (الصحوة). مستلهمة أعمال ميشيل فوكو، جوديث بتلر وبيار بورديو، تحاول صبا محمود تحليل ممارسات التقوى لدى المرأة القاهرية. حيث تضع «سياسة التقوى» تلك بعض من جوانب من النسوية الليبرالية، وبشكل أعم، النظرية الليبرالية السياسية، محل مساءلة.

Besancenot, l'idiote utile du sarkozysme

بيزانسينو الأحمق المفيد للساركوزية

رينو ديلي

بورين: ٢٠٠٩/١٠/٨

١٩ يورو - ١٦٠ صفحة



وفقا لرينو ديلي، فرض أوليفيه بيزانسينو نفسه باعتباره الابن البار للثورة. وفقا له أيضا، بدا في أعين اليسار، باعتباره أفضل منافس لنيكولا ساركوزي. إلا أنه في الواقع، كان أفضل حليف له من وجهة نظره. الرئيس قال إنه يريد جعل بيزانسينو «لويان اليسار». والشخص الذي يتلذذ بلعب دور الدمية «الغبي المفيد للساركوزية»، ودفعه للتحقق من خلال محاربة أعدائه الحقيقيين: الحزب الاشتراكي والنقابات المركزية الكبرى. ولكن وراء هذا التواطؤ الذي كان يستهدف، على ما يبدو، تدمير الحزب الاشتراكي، يختبئ، وفقا للكاتب، خطرا أعمق: حيث ينخر ساركوزي وبيزانسينو النموذج العلماني الجمهوري لفرنسا من كلا الطرفين.

هذا الموضوع، نقاط الخلاف بين المنظرين ولا تخفى صعوبة إيجاد توازن. ومن بين العديد من موضوعات الكتاب، تفند الحجة القائلة بضرورة إجراء إحصاءات حول الأصول العرقية المختلفة، لمكافحة التمييز، كما تفند تلك الحجة التي تفرق بين مناهضة العنصرية ومناهضة الاستعمار والاستبداد. وتلقى كارولين فوريسست الضوء على المفاتيح اللازمة لإيجاد فرنسا تقبل الاختلاف ولا تقع في كراهية الأجانب، ولا في التمييز الثقافي. إن إدراج هذا العمل في مناهج التربية المدنية لطلاب المدارس الثانوية قد يكون أمرا ضروريا إلا أن الأكثر أهمية هو إجبار أعضاء الحكومة على قراءته.

Bob Marley

Destin d'une âme rebelle

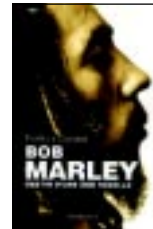
بوب مارلي

مصير روح متمردة

فرانسيس دوردور

فلاماريون: ٢٠٠٩/١٠/٢٨

٩,٢١ يورو - ٤٠٠ صفحة



بوب مارلي هو واحد من أبطال القرن العشرين، كان رمزا عالميا للريجييه (نوع موسيقى نتج عن عدة أساليب من الموسيقى الجامايكية الكاريبية الأفريقية). كان مصير نبى الراسا استثنائيا، مع بدايته في جيتوهات كينجستون (عاصمة جاميكا وأكبر مدنها) وحتى تألقه المستمر حتى الآن في العالم كله، بعد أكثر من عشرين سنة من وفاته عن ٣٦ عاما بسبب مرض السرطان. في سنوات قليلة، أصبح مارلي، بسبب تراثيله النضالية، المتحدث باسم العالم الثالث وجميع الأقليات. في هذه السيرة، يجمع فرانسيس دوردور بين عين المتخصص ووجهة نظره الشخصية باعتباره واحدا ممن أتاحت لهم فرصة مخالطته ليقدّم لنا (نوادير غير منشورة). ويزيح الستار عن أسرار مارلي (الهجوم الذي تعرض له قبل عام من وفاته، الجوانب المجهولة من شخصيته)، ويركز الكاتب على إظهار الجزء المخفى من الأسطورة. ويتساءل عن أسباب استمرار ظاهرة مارلي العالمية حتى الآن؛ والأسباب التي دفعت بالمغنى لإحداث ثورة حقيقية، لبنت القدسية في الدنس والسياسة في الترفيه. وكيف تحول من كونه مغنيا إلى نبى.

Albert Camus

Fils d'Alger

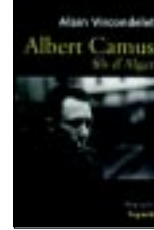
ألبير كامو

ابن الجزائر

آلان فيركوندوليه

فيارد: ٢٠١٠/١/٦

٩,١٩ يورو - ٣٨٥ صفحة



الجزائر ليست فقط البلد الذي نشأ فيه كامو، بل هي عالم كامل من خياله والتزامه. ومع معضلة النفى، تحولت نوعا إلى فردوسه المفقود، ملقية الضوء، على مر الزمن، على ذلك الجانب الحميم، الذي كان يعتبره «مظلم»، والذي أسف، قبل عام من رحيله، أنه لم يعره اهتماما أكثر من ذلك.

La Dernière Utopie

Menaces sur l'universalisme

اليوتوبيا الأخيرة

تهديدات في مواجهة التنوع

كارولين فوريسست

جراسيه: ٢٠٠٩/١١/١٢

٩,٢٠ يورو - ٢٨٧ صفحة



يعتبر صدور كتاب الآن عن التعددية الثقافية، حيث يحتدم النقاش حول الهوية الوطنية، والجدل حول المآذن في سويسرا، وارتداء النقاب في الأماكن العامة، أكثر من ضروري. تؤدي بنا النقاشات غير المجدية واختصار الحلفاء في نموذج دون الآخر، إلى أن ننسى، أن كل هذه القرارات تعكس مجتمعا أكثر تنوعا. طوال صفحات الكتاب، يدرك المرء الخلط الواقع حول هذا الموضوع الأساسي، بما أنه يتربع في صميم تعريف مشروع التعايش الوطني. كارولين فوريسست توضح أن النموذج الفرنسي «أسوأ فهمه وتصويره» في كثير من الأحيان. وتشير بنزاهة فكرية واستنادا إلى أمثلة عديدة، إلى أهمية اتباع فرنسا نهجا لا يغفل التنوع. تختار الكاتبة نماذج من جميع أنحاء العالم: من كندا والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا وجنوب أفريقيا، لتدعم تحليلها. وتشير الصحفية بوضوح مذهل، نظرا لتعقيد

Les Compagnons du veau d'or

أصحاب العجل الذهبي

جان برنار بوي

بالين: ٢٠١٠/١/٤

١٠ يورو - ٨٢ صفحة



دراو، الفوضوى الذى يبيع صحيفته «لا إله ولا ربان أو رئيس»، فى سوق ريتشارد لينوار، يذهب إلى رحلة بحث فى بريطانيا بعد أن أخبره صديقه مارسيل بأن أيضا البغى الجميلة الليتوانية التى وقع فى حبها، تم احتجازها فى قصر هناك، تقوم فيه بدور الدمية الجنسية لثمانية من الأشخاص المهمين الذين يتخلصون من ضغوط عملهم الشاق عن طريق التسلل بها. بعد وقت قصير من وصوله إلى بيمبول، يعلم دراو، الذى لا يعرف فى الحقيقة من أين يبدأ البحث للعثور على أيضا؟ عن الاختفاء الغامض لجان فرانسوا لودونيك، أحد حيتان السوق الذى يستنكر بلا كلل جرائم أقرانه. فى الوقت نفسه، تشهد أيضا فى القصر تنفيذ حكم الإعدام فى شخص مجهول!

Père des mensonges

راهب الأكاذيب

براين إيفنسون

لو شيرش ميدي: ٢٠١٠/١/٢١

ترجمه من الانجليزية (الولايات المتحدة):

هلواز إزكى

١٧ يورو - ٢٤٠ صفحة



بعد أن عانى من الأرق والأحلام المزعجة، قرر الدون فوش، وهو رجل دين محترم، استشارة، ألكسندر فشتج، الطبيب النفسى. وسرعان ما يعترف له بانجذاب آثم للأطفال الصغار. وعندما يتم اغتصاب وقتل فتاة صغيرة فى الأنحاء، يقوم فشتج الذى اشتبه فى قيام فوش بارتكاب الجريمة، بتحذير السلطات الدينية، إلا أن هذه السلطات تفعل كل شيء لتشويه سمعة الطبيب النفسى لتجنب الفضيحة التى تلوح فى الأفق.

سرايفو كان الأطول فى القرن العشرين. فى «لندن-الأقصر»، السينما القديمة حيث يتجمع الشتات البوسنى فى باريس، نتحدث قليلا عن الحرب، وأكثر قليلا عن الأعمال التجارية، والكثير عن الأخوات فيتش: عصمة وأريانة، اللتين كانتا قد انضمتا فى عام ١٩٩٣، بناء على طلب من والديهما، إلى عمهما الذى يعيش فى باريس منذ عدة سنوات، لتصبحا بعد خمسة عشر عاما من الزوار الأساسيين لـ «لندن-الأقصر».

تشتهر أريانا بقدرة خارقة على الإغواء، لكن فى الآونة الأخيرة، كان الحديث منصبا عن عصمة، التى تجوب البلاد بحثا عن أختها الأكبر التى رحلت دون تفسير. يحرك هذا الاختفاء المريب المجتمع بأسره، ويدفع الجميع للإدلاء بدلوهم فى لعبة غير عادية: تستحضر موطنهم الأصلى، الذى تبعثر تاريخه نتيجة لصور متعددة أو متدرجة من التفنت والخرافات.

Olimpia

أوليمبيا

سيلين مينار

دونوويل: ٢٠١٠/١/٥

١٠ يورو - ٩٦ صفحة



«شغلنى الناس بما فيه الكفاية بإطلاق اسم «بيما كاسيا» على، العاقبة وعاهرة البابا، التى تغوى الرجال الأبرياء، مصاصة الدماء، المرأة ذات الصولجان، ملكة النحل، لقد تم تلطيخى بالندس بما فيه الكفاية حتى صرت أستطيع إزالة جيش من المزعجين الأشرار ببذاعة متناهية، وعبور جسر سان أنجيلو، والقطع مع هذه المدينة الثرثرة، تلك الفقاعة الفارغة سان سيج، التى أصبحت بمعنى الكلمة فارغة، ويريدون الآن طردى منها». كانت أولمبيا ميدالشينس (١٥٩٢-١٦٥٧) زوجة شقيق البابا إنوسون العاشر، وملهمته، حتى قيل كثيرا فى تلك الفترة من منتصف القرن السابع عشر، إن دونا أولمبيا هى البابا الحقيقى للكنيسة.

هذا الكتاب، الذى يعتبر سيرة ذاتية لـ «عاهرة العظيمة» التى تسببت، كما يقال، فى لعنة رهيبة على روما، يتيح لنا أن نسمع صوتها قبل أن نسطر تاريخها.

«الأخصائى». «الثلاثة جميعهم من اليساريين السابقين، الذين تم نفيهم من قبل انقلاب بينوشيه، ليلتقوا بعد خمسة وثلاثين عاما للمشاركة فى عمل ثورى ينظمه «الأخصائى». إلا أن هذا الأخير، يتعرض لجريمة قتل غريبة، أثناء توجهه لهذا الاجتماع. حيث يلقي حتفه بعد أن تلقى عليه اسطوانة من خلال النافذة أثناء نزاع عائلى. تنهار الخطة بالكامل، حتى يتذكر الشركاء الثلاثة تعبير «الأخصائى» المفضل: «هل سيهزمنا الانقلاب؟».

Histoire secrète du Costaguana

التاريخ السرى لكوستاجانا

خوان جابرييل فاسكيز

سوى: ٢٠١٠/١/٧

ترجمه من الإسبانية (كولومبيا): إزابيل جوجنون

٢٢ يورو - ٣٢٠ صفحة



فى المنفى فى لندن، يروى الكولومبى خوسيه التاميرانو لجوزيف كونراد قصة حياته فى بنما، لينشرها فى رواية تحت اسم «نوسترامو». لكن عندما تصدر الرواية، تبدو لالتاميرانو مجرد نسيج من الأكاذيب والسخافات. بعد عشرين عاما على هذه الواقعة، التى كانت بمثابة صدمة، يخبر خوسيه التاميرانو القراء ما رواه لكونراد. يخلط بين الحقيقة التاريخية والخيال، والنتيجة هى رواية تحكى تاريخ كولومبيا وبنما مجدولا بطموح وفساد السياسيين، وقهر وقسوة العسكريين، والجشع المعروف عن القوى الاقتصادية والتوسعية.

Le Londres-Louxor

لندن-الأقصر

جاكوتا عليكافازوفيك

أوليفيه: ٢٠١٠/١/٧

٥,١٦ يورو - ١٩٢ صفحة



نسى الجميع (تقريبا) أن حصار

عمره، من خلال هذا الابن، وبعض الشخصيات الأخرى، ثقل التركية السياسية والفلسفية لعصر كامل. من خلال هذه اللوحة التى تنقل لنا ثلاثة عقود من الحياة فى الولايات المتحدة، يتم التعبير عن انحدار كل الراديكاليات.

Scènes de vie villageoise

مشاهد من حياة قرية

عاموس عوز

حاليماز: ٢٠١٠/١/١٤

ترجمة عن العبرية: سيلفى كوهين

٩,١٦ يورو - ٢٠٨ صفحات



نحن هنا فى تل إيلان، قرية قديمة عمرها مائة عام أسسها المستوطنون قبل إنشاء دولة إسرائيل. مجتمع قروى صغير يحيا محاطا بمزارع الكروم والبساتين، ويبدو أن الحياة تمر بهدوء. رغم اجتياح سكان المدينة، فى الآونة الأخيرة، لشوارع البلدة فى يوم السبت، ومعهم، المضاربات العقارية والابتدال. إلا أن العجوز فصيح كيد، العضو السابق فى الكنيسة، قلق لأسباب أخرى. فهو لا يحب الطالب الشاب العربى الذى تؤويه ابنته راشيل فى ملحق لمنزلهم مشيد فى آخر الفناء. خاصة أنه مقتنع بأن شخصا ما يقوم بالحفر تحت منزله أثناء الليل. فى ثمانية فصول، يبرز عاموس عوز مجتمع القرية، وشكوكه، وأفراحه وأحزانه.

L'Ombre de ce que nous avons été

ظل ما كنا عليه

لويس سيبولفيدا

ميتايبه: ٢٠١٠/١/١٤

ترجمه من الإسبانية (تشيلي): برتيل هوسبرج

١٧ يورو - ١٦٠ صفحة



فى مخزن قديم فى حى شعبى فى سانتياجو، ينتظر ثلاثة فى الستينيات من العمر بفارغ الصبر وصول رجل ما،

في عالم بات أكثر تعقيدا .. نحو صحافة أكثر عمقا

وضاح خنفر



الأزمة في أفغانستان تراوح مكانها دون حل منظور مع تكرار عبارات جديدة حول الحوار مع معتدلين أو غير معتدلين من طالبان. في هذا المنتدى سوف نستمتع إلى أناس من تلك المنطقة أيضا نتحدث إليهم ونحاورهم. أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فيبدو أن الطقوس الشعائرية في ذكر الحلول التي صاحبت ما يسمى بالعملية السلمية في العقود الخمسة أو الستة الماضية لا تزال تراوح مكانها. ليس هناك أفق وليس هناك حلول. هناك عملية وهذه العملية أصبحت مطلوبة بذاتها. في منتدانا هذا نسأل سؤالاً

لكثير من المشاركين:

هل من رؤية بديلة لحل القضية الفلسطينية؟

ولكن أيضا على الصعيد الإيجابي هناك أيضا دور متنام لتركيا في المنطقة، سنبتدأ ملتقانا هذا بالحديث عنه. سنحاول أن نلقى الضوء مع مسئولين أتراك وصحفيين ومتابعين حول الوضع في تركيا، وما آلت إليه. وفي إيران كذلك لا تزال الأزمة مستمرة ونريد أيضا بهدوء أن نحاور عددا من المحللين والمفكرين؛ منهم من هو إيراني ومنهم من هو غربي وعربي، لكي نستطلع حقيقة ما يدور بعيدا عن الشعارات الإخبارية والمؤتمرات الصحفية، والمقولات السياسية التي يرددها السياسيون لحسابات محلية وإقليمية ودولية. أقول مجددا إن عالما العربي في السنوات العشر القادمة سيشهد تغييرات كبيرة. نحن في حالة تحول، وفي حالة انتقال، ونأمل من خلال حوار كهذا أن نبدأ في وضع آلية للفهم والتحليل، ثم لنقل الخبر والتعليق. نأمل في نهاية المنتدى أن تكون قد اجتمعت لدى المشاركين حصيلة لا نعتقد أنها ستحل كثيرا أو تفك كثيرا من الألغاز والرموز، ولكنها على الأقل سوف تضيء بعض المناطق الداكنة هنا وهناك، نأمل من بعد ذلك أن تستمر جهودنا جميعا من أجل فهم أكبر للعالم العربي والإسلامي. ■

وهناك والتي بدأت تحجم عن ابتعاث مراسلين ذوي خبرة ليقيموا في بلداننا ولكي يتمعنوا في تطوراتها ويغوصوا في تفاصيلها ويفهموا ثقافتها ومصطلحها ولغتها وعقلها الجمعي، بدأت هذه المؤسسات الإعلامية تحجم عن كل ذلك متجاهلة تطورات هائلة تعصف بهذه البقعة من العالم. هذه التطورات لا نخصنا وحدنا، بل ستنعكس على العالم أجمع بموازين قواه وبتحالفاته، وبأمنه الكوني. ومن هنا أردنا في هذا الملتقى أن نخصص فقرات محددة لمناطق محددة في العالم، القرن الإفريقي يشهد تطورات كبيرة سنستحدث عنها في هذا الملتقى عبر أناس ينتمون إلى القرن الإفريقي. أما أفغانستان وباكستان فالتطورات لا تزال جارية ويبدو أن

التغطية الميدانية والتغطية الاستقصائية أو التغطية المعمقة. واكتفينا جميعا بأخبار عابرة ومعلومات مفككة لا تعطي معرفة، بل تزحم العقل بكم هائل من التفاصيل. والناس أمام ذلك محتارون فإما أنهم لا يقدرّون على فهم تعقيد وألغاز هذه المعلومات التي تصب في أذهانهم، وإما أنهم يحجمون عن الفهم مطلقا ويلجأون إلى القبول بما يسمعون دون أن يؤثر فيهم. لذلك أقول إن الخطر الذي يواجه مهنتنا اليوم عالميا خطر كبير لأنه قد يؤدي إلى انفضاض الناس من حولنا كإعلاميين، خصوصا الذين يشتغلون بصناعة الخبر. وأعتقد أن المؤسسات الإعلامية العالمية التي قلصت تغطيتها لعالمنا العربي والإسلامي وبدأت تلجأ إلى ما تذكره وكالات الأنباء وما ينشر ويكرر هنا

■ ■ ■ مؤتمرا لهذا العام سيأخذ منحى جديدا، ففي العام الماضي حاولنا أن نلقى الضوء على منطقة الشرق الأوسط مستصحبين التيارات الدولية صعودا وهبوطا وتأثيرا وانحسارا. في عامنا هذا نريد أن نغوص في أعماق ما يسمى بالعالم العربي والإسلامي من أجل أن نحاول فك تركيب معقد استعصى في كثير من الأحوال على الفهم، ليس بالمناسبة على الصحفيين والمحللين، بل على الساسة والجنرالات والعسكريين. ولهذا يعيش عالما العربي والإسلامي في حالة هي حالة انتقال أعتقد أنها بدأت منذ الحرب العالمية الأولى ولم تنته بعد، إذ لم يصل عالما الذي نعيش فيه إلى يومنا هذا إلى حالة من الاستقرار. والدليل على ذلك أن الخارطة السياسية لعالمنا العربي قد تتغير بعد شهور قليلة إذا ما انفصل جنوب السودان. حالة الانتقال هذه استصحبت معها خوفًا مقيما من المستقبل واستصحبت معها فوضى في التعبير والمصطلح وفوضى في التحليل والمفهوم. وامتلاً فراغ شاشاتنا بمحللين يرددون شعارات وأفكارا مكررة في كثير من الأحيان كطقوس دينية تتكرر في كثير من الأحيان دون فهم عميق ولا تدبر. وهذا ما يدعونا في هذا المنتدى إلى أن نتوقف لبرهة قصيرة ونحاول أن نضع النظر في المصطلح وفي المفهوم وأن نتحاور جميعا: سياسيين، محللين، إعلاميين، صناع رأي، وقادة لحركات وتيارات في العالم العربي والإسلامي. القضية الأعمق التي تواجه الصحافة اليوم هي السطحية، والسطحية للأسف الشديد تلازم العمل الإخباري التلفزيوني تحديدا. ولعل الأزمة الاقتصادية الأخيرة أضافت عبئا أكبر إلى ما نعانيه. إذ بدأ المحررون ومدراء المؤسسات الإعلامية يحجمون عن صرف الأموال لمزيد من

«القضية الأعمق
التي تواجه الصحافة اليوم
هي السطحية.. وازدحام شاشاتنا
بمحللين يرددون شعارات
وأفكاراً مكررة»

ألقيت هذه الكلمة في افتتاح «منتدى الجزيرة» الخامس حول: «العالم العربي والإسلامي - رؤية بديلة». الدوحة - ٢٣ مايو ٢٠١٠.